

الجمال

مجموعة قصصية

مصطفى صادق الرافعي

دار المحرر الأدبي

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي ،
زاده الله أدباً .

ما أثمر أدبك ، والله ما ضمن لي قلبك ، لا أقارضك ثناء
بثناء ، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء ، ولكني أعدك من خلّص
الأولياء ، وأقدم صفك على صف الأقرباء . وأسأل الله أن يجعل
للعق من لسانك سيفاً يحق الباطل ، وأن يُقيمك في الأواخر مقام
حسنّ في الأوائل ، والسلام .

٥ شوال سنة ١٣٢١

محمد عبده

الانتحار

حدث المسيب بن رافع الكوفي قال : بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة، ومعى سعيد بن عثمان، ومجاهد، وداود الأزدي وجماعة، أقبل فتى فجلس قريباً منا، وكان تلقاء وجهي، لا أمد نظري إلى انطلق في سمته ووقف عليه، وكنا نتحدث فرأيت أنه يتسمع إلى حديثنا؛ فلما تكلم سعيد وكان خافت الصوت من علة به، وكنا نسماه النملة الصخابة رأيت الفتى يتزحف قليلاً قليلاً حتى صار بحيث يقع في سماعه حسيس غللتنا.

وكان سعيد يقول: اجتزت أنا والشعبي^١ أمس بعمران الخياط، فمازحه الشيخ فقال له: عندنا حب^٢ مكسور، تخيطه؟

^١ هو الإمام العظيم "عامر بن شراحيل الشعبي" توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها. عن بعض وثمانين سنة، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام: سعيد بن المسيب في المدينة "ذكرناه في قصة زواج"، الحسن البصري في البصرة "ذكرناه في قصة بنته الصغيرة"، ومكحول في الشام، والشعبي هذا في الكوفة، وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه.

^٢ الحب "بكسر الحاء": هو الزبر، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً، ويقال لرشحه: قطر حب.

قال : نعم ، إن كان عندك خيط من ريح ! فقلت أنا : فاذهب فجئنا بالمغزل الذي يغزل الهواء لنصنع لك الخيط .

قال مجاهد : " هذا ليس بشيء في تنادر شيخنا وما يتفق له ؛ أخبرني أن رجلا جاءه في مسألة ، فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته ، فقال الرجل : أيكما الشعبي ؟ فأوماً الشيخ إلى امرأته وقال : هذه !

قال المسيب : وضحكنا جميعا ، وأخذ نظري الغلام فإذا هو ناكس حزنا وهما ، وكأنه لا يسمع إليها لسمع ، بل ليشغل نفسه عن شيء فيها ، فتتوزع خواطره ، فيتبدد اجتماعها على همه بصوت من هنا وصوت من هنا ، كما يفعل المحزون في مغالبة الحزن ومدافعته ، يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعا ، فيكون الحزن فيه وكأنه بعيد منه .

فقلت في نفسي : أمر أمات الضحك في هذا الفتى وكسر حدته وشبابه ، ثم تحولت إليه وقلت : رأيتك يا بني مقبلا علينا كالمنصرف عنا ؛ فما بالك لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً ؟

قال : إليك عني يا هذا ؛ فأين من الضحك وأنا على شفير القبر ، وروح التراب مالى عيني في كل ما أرى ، وكأن حفرتي

ابتلعت الدنيا التي أنا فيها لتأخذني فيها ، وأنا الساعة ميت حي ؛
رجل في الدنيا ورجل في الآخرة !

قلت : فأعلمني ما بك يا بني ، فلقد احتسبت ولدا لي
كان في مثل سنك وشبابك ولم أرزق غيره ، فقلبي بعده مريض
به ، يتوسمه مفرقا في لداته ، متوهما أن وجوههم تجمععه بملاحه ؛
فأنا من ذلك أحبهم جميعا وأطيل النظر إليهم والتأمل في وجوههم ،
ولست أدري أحدا منهم إلا كان له ولقلبي حديث ! فإن رأيته
حزينا مثلك تقطعت له من إشفاق ورحمة ، وطالعتني فتاي في مثل
همه وحزنه وإنكساره ؛ فيعود قلبي كالعين التي غشاها الدمع ،
تحمل أثر الحزن ومعناه وسره ؛ فبشي ما تجد يا بني ، فلعل لي سببا
إلى كشف ضرك أو إسعافك بحاجتك ؛ ولعلك تكون قد حزنت
من أمر قريب المتناول هين المحاولة ، لم يجعله عندك كبيرا أنه
كبير ، ولكن أنك أنت صغير .

قال الفتى : مهلا يا عم ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده
الحيلة ولا تنقاد فيه الوسائل ، ولا علاج منه إلا بالموت يأخذنا
ويأخذه .

قلت : يا بني ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من
أخذ للقتل بجنايته ولم يعف أهل الدم ، فهل جنيت أو جنى أبوك
على أحد؟

قال : إن الأمر قريب من قريب ، فإني تركت أبي الساعة
مجمعاً على إزهاق نفسه ، وقد أغلق عليه الدار واستوثق من
الباب!

قال المسيب : فكأنما لدغتني حية بهذه الكلمة ، وأكبرت
أن يكون رجل مسلم يقتل نفسهن فتناهضت ، ولكن الغلام أمسك
بي وقال : إنه لا يزال حياً ، وسيقتل نفسه متى أظلم الليل وهدأت
الرجل .

قلت : الحمد لله ، إن في النور عقلاً ، ولكن ما الذي صار
به إلى ما قلت ، وكيف تركته لقدره وجئت؟

قال الفتى : إنه قال لي : يا ولدي ، ليس لك أب بعدي ،
فإن أردت اللحاق بي فارجع مع الليل لنسلم أنفسنا ، وإن آثرت
الحياة فارجع مع الصبح لتسلمني إلى غاسلي!

قلت : أفأمن أنت ألا يكون أبوك قد أخرجك عنه لأن
عينك تمسك يديه وترده عما يهم به ، حتى إذا خلا وجهه منك
أزهاق نفسه؟

قال : لم أدعه حتى أقسم أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمت أن أرجع لأموت معه ؛ فإن لم تمسكه يمينه أمسكه انتظاري ، وقد فرغت الحياة منا فلم يبق إلا أن نفرغ منها ؛ ومن كان فيما كنا في ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم ير الناس من نفسه ضعة ولا استكانة ، وإنما خرجت لأسأل هذا الإمام " الشعبي " وجها من الرأي فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلت به النازلات ، وتعذر القوت ، واشتد الضر ، وتدلّت به المسكنة إلى حضيضها ، وألجئ إلى أحوال دق الرحي لما تدور عليه ، ولم يعد له إلا رأي واحد في معنى الدنيا ، هو أنه مكذوب مزور على الدنيا .

قلت : يا بني ، فإني أراك أدبيا ، فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهور القمر ومحقق محاقه ، وهو اليوم في أحلك الليالي وأشدّها انطماسا ؛ جهده الفقر ، ويا ليته كان الفقر وحده ، بل انتهكته العلل ، وليتها لم تكن إلا العلل مع الفقر ، بل أخذ الموت امرأته فماتت هما به وبني ، ولم يكن له غيري وغيرها ، وكان كل من ثلاثتنا يحيا للآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلامنا لا يفرغ إلا امتلاء ، ولما ذهبت الأم ذهبت الحقيقة التي كنا نقاتل الأيام عنها ، وكانت هي وحدها ترينا الحياة بمعناها

إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهدة البقاء ؛ أما الآن فالحياة عندنا قتل الحياة !

قلت : يا بني ، فإنك والله- مع أدبك لحكيم ، وإنني لأنفس بك على الموت ، فكيف ردتك حياة أمك عن قتل نفسك ولا تردك حياة أبيك ؟

قال : لو بقى أبي حيا لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخر ما كان يملك من أسباب القوة ، حين أخذ القلب الشفيق الذي كان يجعله يرتعد إذا فكر في الموت ، فهو الآن كالذي يحارب عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوه فالرأي قتل نفسه ليستريح من تنكيل العدو به .

قال المسيب بن رافع : وأدركت أن الفتى يريد من سؤال الشيخ تحلة يطمئن إليها أن يموت مسلما إذا قتل نفسه كالمضطر أو المكره ، فأشفقت أن أكسر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته ؛ وقلت : هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا ؛ وكان إمامنا " الشعبي " حكيما لحنا فطنا ، سفرين أمير المؤمنين " عبد الملك " وعاهل الروم ، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله . وقلت : لعل الله يحدث به أمرا . فأخذت بيد الفتى إليه ، ومشيت أكلمه وأرفه عن نفسه . وقلت له : أما تدري أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من

غرروها أيضا، وأنا الزاهد المنقطع في عررة الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا، ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟

يا بني: إن الزاهد يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كان فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وإيم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً، لهو الخالي من الفضائل جميعاً.

يا بني: إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية؛ يبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائله. وما أرك أنت وأباك إلا من المختارين، كأن في أعراقكم دم نبي يقتل أو يصلب!

قال المسيب: وانتهينا إلى دار الشعبي، فطرقت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمنا وسلم، ثم بدرت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت، فترادفت عليه المصائب، وتوالت النكبات، وتواترت الأسقام... ثم

اقتصصت ما قال ابنه حرفاً حرفاً، ثم قلت؛ وإنه الآن موشك أن يزهد نفسه وسيتبعه ابنه هذا؛ وقد "هداه الله إليك فجاء يسلك، أيموت مسلماً من ألجئ وأكره واضطر واستضاق واختل، فتحسى سما فهلك، أو توجأً بحديدة ففضى، أو ذبح نفسه بنصل فخفت، أو حز في يده بسكين فما رقاً دمه حتى مات، أو اختنق في جبل ففاضت نفسه، أو تردى من شاهق فطاح!

وأدرك الشيخ معنى قولي: "هداه الله إليك" ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المرادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه؛ فعلم أن لم أسأله الفتيا والنص، ولكني سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا والله- رجل كريم، أخذته الأنفة وعزة النفس، وما أنا الساعة بمعزل عن همه، فنذهب نكلمه والله المستعان.

ومشينا ثلاثتنا، فلما شارفنا الدار قال الفتى: إنه لا يفتح لي إذا رآك، وربما استفز بنفسه فأزهقها، وسأتسور الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده.

ودخلنا، فإذا رجل كالمریض من غير مرض، خوار مسلوب القوة، انزعج قلبه إلى الموت وما به جرأة، وإلى الحياة وما به قوة؛ وصغر إليه نفسه أنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم

الزائف لا يقبله أحد، وثابر عليه داء الحزن فأضناه وتركه روحا تتقعقع في جلدها، فهي تهم في لحظة أن تثب وتندلق.

وسلم الشيخ وأقبل بوجهه على الرجل، ثم قال: "بسم الله الرحمن الرحيم، {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ﴿البقرة: ١٧٧﴾".
فقطع عليه الرجل وقال كالمحقق: أيها الشيخ، قد صبرنا حتى جاء ما لا صبر عليه؛ وقد خلونا من معاني الكلام كله؛ فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة نملك معناها، هي أن ننتهي!

ومد الشيخ عينه فرأى كوة مسدودة في الجدار، فقال لي: افتح هذه ودع الهواء يتكلم معنا كلامه. فقممت إليها فعاجلتها حتى فتحتها، ونفذ منها روح الدنيا، وقال الشيخ للرجل: أصغ إلي، فإذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك.

أعلمت أن رجلا من المسلمين قد مرض، فأعضل مرضه فأثبته على سريره ثلاثين سنة لا يتحرك، وطوى فيه الرجل الذي كان حيا ونشر منه الرجل الذي سيكون ميتا، فبقي لا حيا ولا ميتا ثلاثين سنة؟

قال الرجل: وفي الدنيا من يعيش على هذا الحال ثلاثين

سنة؟

قال الشيخ : صحيح الكلام واسأل . أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنة ولا يقول : " جاء ما لا صبر عليه " وأي شيء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاء مال غير أنه لا يوضع في الكيس بل في الجسم؟

أفتدري من كان الصابر ثلاثين سنة على بلاء الحياة والموت مجتمعين في عظام ممدودة على سريرها؟ إنه إمامنا " عمران بن حصين الخزاعي " الذي أرسله عمر بن الخطاب يفقه أهل البصرة، وتولى قضاءها، وكان الحسن البصري يحلف بالله ما قدمها خير لهم من عمران بن حصين . ولقد دخلت عليه أنا وأخوه " العلاء " ، فرأيناه مثبتا على سرير الجريد كأنما شد بالحبال وما شد إلا بانتهاك عصبه وذوبان لحمه ووهن عظامه ، فبكى أخوه ، فقال : لم تبكي؟ قال : لأنني أراك على هذه الحال العظيمة؟ قال : لا تبك ، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبال فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسك الأرض كلها قد جعل لكل موضع منها قوة الجميع ، ولولا هذا لدك الجبل موضعه وغار به ؛ وكذلك يحمل المؤمن مثل الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدم ؛ إذ كانت قوة روحه قوة في كل موضع ، فالبلاء محمول على همة الروح لا على

الجسم ، وهذا معنى الخبر : " إن المؤمن بكل خير على كل حال ،
إن روحه لتنزع من بيه جنبه وهو يحمد الله عز وجل " .

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال
له : " امتحني ! " وكيف تراك إذا كنت بطلا من الأبطال مع قائد
الجيش ، أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد : " امتحني
وارم بي حيث شئت ! " وإذا رمى بك فرجعت مثخنا بالجراح
ونالك البتر والتشويه ، أتراها أوصافا لمصائبك ، أم ثناء على
شجاعتك؟

ثم قال : إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئنانا في النفس على
زلازلها وكوارثها ، لم يكن إيمانا ، بل هو دعوى بالفكر أو اللسان
لا يعدوهما ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فجأه الروع أحدث
في ثيابه من الخوف . ومن ثم كان قتل المؤمن نفسه لبلاء أو مرض
أو غيرهما كفرا بالله وتكذيبا لإيمانه ، وكان عمله هذا صورة أخرى
من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !

والإيمان الصحيح هو بشاشة الروح ، وإعطاء الله الرضى
من القلب ، ثقة بوعده ورجاء لما عنده ، ومن هذين يكون
الاطمئنان ، وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمان
عقلا ثانيا مع العقل ، فإذا ابتلي المؤمن بما يذهب معه الصبر

ويطيش له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون ، برز في هذه الحالة عقله الروحاني وتولى سياسة جسمه حتى يفوق العقل الأول . ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة ، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما فيقتل أقواهما الأضعف ، ويخرج الأعرض منهما الأذل .

فالاطمئنان بالإيمان هو قتل الخوف الدنيوي بالتسليم والرضى ، أو تحويله عن معناه بجعل البلاء ثوابا وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقل روحاني له شأن عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفس راضية مرضية ، تقول لمصائبها وهي مطمئنة : نعم . وتقول لشهواتها وهي مطمئنة : لا .

وما الإنسان في هذا الكون ؟ وما خيره وشره ؟ وما سخطه ورضاه ؟ إن كل ذلك إلا كما ترى قبضة من التراب تتكبر وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها !

قال الشيخ : وانظر ، أما تبلى الشجرة الخضراء في بعض أوقاتها بمثل ما يتلى به الإنسان ؟ غير أن لها عقلا روحانيا مستقرا في داخلها يمسك الحياة عليها ويتربص حالا غير الحال ؛ ومهما يكن

من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها في داخلها، ولها دائما ربيع على قدرها حتى في قر الشتاء .

فالعقل الروحاني الآتي من الإيمان، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرفة في كل غرائزها، تكمل شيئا وتنقص من شيء، وتوجه إلى ناحية وتصرف عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذاتها جميعا .

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيره وشره، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضع في النكبات معاني شريفة تنزع منها شرها وأذاها للنفس؛ وليست المصيبة شيئا لولا تأذي النفس بها، وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل، وتغيرت طبيعتها فيعود الفقر بابا من الزهد، والمرض نوعا من الجهاد، والخيبة طريقا من الصبر، والحزن وجها من الرجاء، وهلم جرا .

والنفس وحدها كنز عظيم، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وجدا مع الفقر بطلت عزة المال وأصبح حجرا من الحجر؛ والبلبل يتغرد بمنجرتة الصغيرة ما لا تغني فيه

آلات التطريب كلها . وفي النفس حياة ما حولها ، فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفت أذلتها الدنيا ! .

قال المسيب : ثم سكت الشيخ قليلا ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتنضر وانقلب على روحه التي كان منصرفا عنها ، فعادت مصائبه تضغط روحا لينة كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته ، فينكب أول ما ينكب في صبره ويقينه .

ثم قال الشيخ : ولقد رأيت بعيني رأسي معجزة " العقل الروحاني " وكيف يصنع ؛ رأيت عروة بن الزبير وهو شيخ كبير ، عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رجله الأكلة : فأشاروا عليه بقطعها لا تفسد جسده كله ، فدعي له من يقطعها فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألما ، فقال عروة : لا أستعين بجرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المرقد . فقال عروة : ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه !

ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء؟ قالوا : يسكونك ، فإن الألم ربما عذب معه الصبر ، قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر وكيف احتمل ، إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهمل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغمرت حواسه وأعصابه بالنور الإلهي من معنى التكبير والتهليل ، فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار ونشرها وعروة في التكبير والتهليل ، ثم جيء بالزيت مغليا في مغارف الحديد فحسم به مكان القطع ، فغشي على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يسمع منه في كل هذه الآلام الماحقة أنه ولا آهة ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : " جاء ما لا صبر عليه ! " .

قال المسيب : وأرهف بأس الرجل الضعيف وقوي جأشه ، وانبعث فيه الروح إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحاني ، وعرف أن ما لا يمكن أن يدرك ، يمكن أن يترك .
وجاء هذا العقل الروحاني فمر بالمنشار على اليأس الذي كان في نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائما يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا .

ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول: صدقت؛ "إن كل ذلك إلا كما ترى قبضة التراب تتكبر، وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها!" .

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرى الصواب، ويجتهد في الرجوع إليه، ويصبر على ما يناله في ذلك؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت في مسألة؟

قال المسيب بن رافع: وقام الشعبي إلى الرجل فاعتنقه فرحا بما آل أمره إليه، بعد إذ رأى النور يجري على لونه ويترقرق في ديباجته، كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة. ثم قال له: نعم أخو الإسلام أنت، فاستعد بالله من خذلانه، فإنه ما خذلك إلا وضعك نفسك بإزاء الله تعارضه أو تجاريه في قدرته، فيكلك إلى هذه النفس، فتنتهي بك إلى العجز، وينتهي العجز بك إلى السخط، ومتى كنت عاجزا ساخطا، محصورا في نفسك موكولا إلى قدرتك، كنت كالأسد الجائع في الفقر، إذا ظن أن قوته تتناول خلق الفريسة؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والانزعاج والكآبة؛ وأمثالها من هذه المهلكات تقدح في قلبك الشك في الله، وتثبت في روعك شر الحياة، وتهدى إلى خاطرك حماقات العقل، وتقرر

عندك عجز الإرادة ؛ فتنتهي من كل ذلك ميتا قد أزهقتك نفسك
قبل أن تزهقها !

ولو كنت بدل إيمانك بنفسك قد آمنت بالله حق الإيمان ،
لسلطك الله على نفسك ولم يسلطها عليك ؛ فإذا رمتك المطامع
بالحاجة التي لا تقدر عليها ، رميها من نفسك بالاستغناء الذي
تقدر عليه ؛ وإذا جاءتك الشهوات من ناحية الرغبة المقبلة ، جئتها
من ناحية الزهد المنصرف ، وإذا ساورتك كبرياء الدنيا أذللتها
بكبرياء الآخرة .

وبهذا تنقلب الأحزان والآلام ضروبا من فرح الفوز
والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنونا من الخذلان
والهم ، وتعود موضع فخر ومباهاة ، وكانت أسباب خزي
وانكسار ، " وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حصرت البلاء في
مقداره ، فإذا حصرت لم تزل تنقص من معانيه شيئا شيئا ، فإذا
ضعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامراً متفشيا يجاوز مقداره بما
يصحبه من الخوف والروع ، فلا تزال معانيه تزيد شيئا فشيئا بما فيه
وبما ليس فيه .

يزول ؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء ،
فتتوهمها النفس أوهاما متباينة على أحوالها المختلفة ؛ كما يرى

الأعمى بوهمه ، لا عينه مع الأشياء تكون في طبيعتها ، ولا أشياءه عند عينه تكون في حقيقتها .

قال المسيب : وكان الشمس قد طفلت للمغيب ؛ فقال الإمام للرجل : قم فتوضأ وأسبغ الوضوء ، وسأعلمك أمرا تنتفع به في دينك ودنياك : فإذا قمت إلى وضوئك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك على أن في هذا الماء سرا روحانيا من أسرار الغيب والحياة ، وأنه رمز للسماء عندك ، وأنتك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التي امتدت على أطرافك ؛ ثم سم الله تعالى مفيضا اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معا ، ثم تمثل أنك غسلت يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنتك آخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئا إلا مسحة سماوية تسبغها على كل أطرافك ، ليشعر بها جسمك وعقلك ؛ وأنتك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلاتك سماويا لا أرضيا .

فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادة لك ، فإن الوضوء حيثئذ ينزل من النفس منزلة الدواء ، كلما اغتممت أو تسخطت أو غشيتك حزن أو عرض لك وسواس ، فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلت الحياة وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة

وترى الماء تحسبه هدوءاً لينا لين الرضى ، وإذا هو ينساب في شعورك وفي أحوالك جميعاً .

قال المسيب : وقمت أنا فجددت وضوئي على هذه الصفة بتلك النية ، فإذا أنا عند نفسي مستضيء بروح نجمية لها إشراق وسناء ، وإذا الوضوء في أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه الطهارة والنظافة ، أما في أقوى معانيه فهو إفاضة من السماء فيها التقديس والتزكية وغسل الوقت الإنساني مما يخالطه كلما مرت ساعات ، وابتدؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطوياً مترطباً بالماء .

ثم صلى بنا الشيخ ، وأمرني بالمبيت مع الرجل ، كأنما خشي البدوات أن تبدو له فتنقص عزمه ، أو هو زادني عليه لأغير شخصه وأبدل وحدته التي كان فيها ، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبه بأكمله فوضعني كالتنبيه له .

جاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث ، فاستنابه نبأه ، فقال : مهلاً . ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال : تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملازمة بين السماء والنفس ، وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر .

قال المسيب : وأصبحنا فغدونا على الإمام ، ثم لزمنا الرجل في بعض أموري ، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناس كالحب المتراصف على العنقود ، لا أدري من ساقهم وجمعهم ، كأنما علمت الكوفة أن رجلا مسلما كفر بالله كفره صلعاء وأنه سيحضر درس الشيخ ، وسيحضر الشيخ من أجله ، فهبت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال :

روينا أن رجلا كانت به جراحة ، فأتى قرنا له فأخذ مشقصا^٣ فذبح به نفسه ، فلم يصل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وترك جنازته مطرودة تقتحم متلفة الآخرة كما اقتحمت متلفة الدنيا .

روينا في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

"الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار ، والذي يقتحم يقتحم في النار " .

روينا عنه صلى الله عليه وسلم : "من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة " .

^٣ القرن "بفتحيتين" : جعبة النشاب . والمشقص : سهم فيه نصل عريض .

روينا عنه صلى الله عليه وسلم: "كان رجل به جراح فقتل نفسه، فقال الله: بدرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة". قال الشعبي: يقول الله: "بدرني عبدي بنفسه...". أي بدرني وتأله فجعل نفسه إله نفسه، فقبضها وتوفاها، فكان ظالماً. بدرني وتأله في آخر أنفاسه لحظة ينقلب إلي، فكان مع ظلمه مغروراً أحق!

بدرني وتأله حين ضاق، فهو نفسه في الموت من عجزه أن يمسكها في الحياة، فكان عاجزاً مع ظلمه وغروره وحمقه! بدرني وتأله على جهله بسر الحياة وحكمتها، فلم يستح هذا المخلوق الظالم المغرور في حمقه وعجزه وجهله، ولم يستح أن يبيئني في صورة إله.

بدرني وتأله، فطبع نفسه طابعها الأبدي من غي وتمرد وسفاهة، وأرسلها إلى مقتولة يردّها علي.

بدرني وتأله كأنما يقول: إن له نصف الأمر ولي النصف: أنا أحييت وهو أمات!

بدرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة! قال الشعبي: وإنما تحرم الجنة على من يقتل نفسه، إذ ينقلب إلى الله وعلى روحه جناية يده ما تفارقها إلى الأبد، فهو هناك جيفة من الجيف مسمومة

أبدًا، أو مخنوقة أبدًا، أو مذبوحة أبدًا، أو مهشمة أبدًا يقول الله له : أنت بدرتني بنفسك ، وجريت معي في القدر مجرى واحدًا ، فستخلد نفسك في الصورة التي هي من عملك ، وما قتلت إلا حسناتك .

قال الشعبي : ولو عرف قاتل نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفة أبدية ، فمن ذا الذي يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحول حمارًا وبقي حمارًا ، فيرضى أن يتحول ويسرع ليتحول؟
من ذلك نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة ذلك الرجل الذي قتل نفسه ، كما ينظر إلى ذبابة توجهت بالسب إلى الشمس والكواكب والأفلاك كلها ، ثم جاءته تقول له : اشهد لي .

قال الشيخ : ومم يقتل الإنسان نفسه؟ أما أن الموت آت لا ريب فيه ولا مقصر لحى عنه ، وهو الخيبة الكبرى تلقى على هذه الحياة؛ فما ضرر الخيبة الصغيرة في أمر من أمور الحياة؟

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاح بل من خيبة ، فإن كانت الخيبة من مال فهي الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهي المرض أو الاختلال ، وإن كانت من عزة فهي الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك - كالنساء وغيرهن - فهي العجز عن الشهوة أو

التخيل الفاسد، وليس يخيب الإنسان إلا خيبة عقل أو إرادة، وإلا فالفقر والحاجة والمرض والاختلال والذل والبؤس، والعجز عن الشهوة وفساد التخيل، كل ذلك موجود في الناس، يحمله أهله راضين به صابرين عليه، وهو الغبار النفسي لهذه الأرض على نفوس أهلها. ويا عجباً! إن العميان هم بالطبيعة أكثر الناس ضحكا وابتساماً وعبثاً وسخرية، أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك؟

ليست الخيبة هي الشر، بل الشر كله في العقل إذا تبدل فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب، أو في الإرادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد. أفلا ترون أنه حين لا يبالي العقل ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنى ولا أثر في النفس، ولا يخيب الإنسان حينئذ، بل تخيب الخيبة نفسها؟

لهذا يأبى الإسلام على أهله الترف العقلي والتخيل الفاسد، ويشدد كل الشدة في أمر الإرادة، فلا يترخص في شيء يتعلق بها، ولا يزال ينميها بأعمال يومية تشد منها لتكون رقيقة على العقل حارسة له، فإن للعقل أمراضاً كثيرة يقيس فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً؛ فكانت الإرادة عقلاً

للعقل ؛ هي لينه إذ تصلب ، وهي حركته إذا تبدل ، وهي حلمه إذ طاش ، وهي رضاه إذا سخط .

الإرادة شيء بين الروح والعقل فهي بين وجودين ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودين أيضا ، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روحه ، وأكبر همه نجاحه في هذا الوجود .

وهذا النجاح لا يأتي من المال ، ولا تحققه العافية ، ولا تيسره الشهوات ، ولا يسنيه التخيل الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا مما عمره خمسون سنة أو مائة سنة ، بل يأتي مما عمره الخلود ومما هو باق أبداً في معانيه من الخير والحق والصلاح ؛ فههنا يعين المرض بالصبر عليه مما لا تعين الصحة ، ويفيد الفقر بحقائقه ما لا تفيد الثروة ؛ وههنا يكون العقل الإنساني عاملاً أكثر مما هو متخيل ، وقانعا أكثر مما هو طامع ؛ ههنا لا موضع لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حب الذات ؛ وهذه الثلاث هي جالبة الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة ، وبدونها يكون الإنسان هائنا حتى في أحوال الشقاء .

بالإرادة المؤمنة القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان .

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مرناً مطواعاً ، واستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يقرها ، فإن هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجر وانحصر في غرض واحد قد خاب وخابت فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده .

ولو أن امرأً تم عزمه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً ، لانفسح عزمه أو رك ؛ إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما ، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما ، فتتغير حالة النفس هونا ما ؛ فالصبر كالروح بالهواء على العقل الذي يكاد يخنق من احتباسه في معنى واحد مقفل من جوانبه " ومثل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار لفه بالتراب لفا وسد عليه منافذ الهواء ، وحبسه في هذا التراب الملتف حبس الحشرة في جوف القصبه ؛ فهو على اليقين أنها حالة ساعة طارئة من الزمن لا حالة الزمن ؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهم هو الذي يذهب بهذا الهم .

وكما أن الأرض هي شيء غير هذا الإعصار الثائر منها ، فالحياة كذلك هي أمر آخر غير شقائها .

قال الإمام: وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل، والآخر المثال الروحي للجماعة الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} ﴿الأحزاب: ٢١﴾ .

وأما الثانية فهي قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ﴿الفتح: ٢٩﴾ .

ففي رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية، فتمر همومها حوله ولا تصدمه، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطان لها عليه، وهذه الهموم تجد في مثل هذه النفس قوى بالغة تصرفها كيف شاءت، فلا يجيء الهم قوة تستحق ضعفا، بل قوة تمتحن قوة أخرى أو تثيرها لتكون عملا ظاهرا يقلده الناس وينتفعون منه بالأسوة الحسنة، والأسوة وحدها هي علم الحياة.

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكينا، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيد يلقي على الناس دروس نفسه القوية.

وفي رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشر في الناس ، وهو نظر الإنسان لمن هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظرا لا يبعث إلا الحقد والسخط ، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة ، ومن جعلها في تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره ، وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم ، كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغني العالم ؛ جمع بينهما الاتفاق العقلي وسقط ما عداه .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عمره الطويل أو القصير كأنه في يوم يصبح منه غاديا على الحشر والحساب ؛ فهو متصل بالخلود غير معني إلا بأسبابه ، وبهذا تكون أمراضه وآلامه ، ومصائبه ليست مكاره من الدنيا ، بل هي تلك المكاره التي حفت الجنة بها ؛ ولا يضره الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يغره المتاع لأنه قريب الزوال أيضا .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يسود الإنسان على نفسه ، ومن كان سيد نفسه كان سيد ما حولها يصرفه بحكمه ، ومن كان عبد نفسه صرفه بحكمه كل ما حوله .

قال الشعبي : وأما المثال الروحي للجماعة الكاملة ، فهو في وصف المؤمنين بأنهم "رحماء بينهم" ؛ فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بسط وبيان .

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قبل من حوله ممن يعايشهم ويتصل بهم لا من قبل نفسه ، فإذا قام اجتماع أمة على أنهم "رحماء بينهم" تقرر العظمة النفسية للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يحقروا الفقير بفقره ، ولم يعظموا الغني لغناه ، وإنما يحقرون ويعظمون لصفات سامية أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقير الصابر أعظم قدرا من الغني الشاكر ، وإعظام الناس لفضيلة الفقير هو الذي يجعل فقره عند نفسه شيئا ذا قيمة في الإنسانية .

ومتى تصححت آراء الجماعة في هذه المعاني المؤلمة للناس بطل ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يبلى معنى من معاني الحياة في إنسان إلا وضع إيمانه معنى جديداً في مكانه ، وتصبح الفضيلة وحدها غاية النفس في الجميع ، وبذلك يصبر الفرد على مصائبه ، لا بقوته وحده ، ولكن بجميع القوى التي حوله . أفلا ترون أن إعجاب الناس بالشجاعة وتعظيمهم صاحبها يضع في ألم السلاح لذة يحسها لحم الشجاع البطل ؟

قال المسيب بن رافع : فقام رجل من المجلس ، فقال : أيها الشيخ ، وإذا فسد الناس وغلظت قلوبهم ، وتقطعت بينهم الأسباب ، ولم يعودوا "رحماء بينهم" ، وشمتموا بالفقير ، وتهزءوا بالمبتلى وطرحوه في ألسنتهم كما يطرح الشاعر في لسانه رجلا يهجوه لا يكف عنه فما عسى أن يصنع المسكين حينئذ وكل شيء يدفعه إلى قتل نفسه؟

وقال الشعبي : ههنا الرجاء في الله واليوم الآخر ، وهو شعور لا يشتري بمال ، ولا يلتمس من أحد ، ولا يعسر على من أراده ، والفقير والمبتلى وغيرهما إنما يصنع كل منهم مثاله السامي ؛ فالصبر على هذا العنت هو صبر على إتمام المثال ، وإذا وقع ما يسوءك أو يحزنك فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلما يخلو منها ، بل قلما يجيء إلا بها .

قال المسيب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرؤ آلت أحوال الدنيا إلى ما يخيفه ، أو بلغ الهم مبلغه من قلبه فهم أن يقتل نفسه؟

قال الشعبي : فليجعل الخوف خوفين : أحدهما خوفه عذاب الله خالداً مخلداً فيه أبداً ؛ فيذهب الأقوى بالأضعف ، وإذا

ابتلي فليضم إلى نفسه من هو أشد بلاء منه ؛ ليكون همه أحد همين ، فيذهب الأثقل بالأخف .

إن الإنسان ونفسه في هذه الحياة كالذي أعطي طفلاً نزقاً طياً شاعراً متمرداً ليؤدبه ويحكم تربيته وتقويمه فيثبت بذلك أنه أستاذ ، فيعطي أجر صبره وعمله ، ثم يضيق الأستاذ بالطفل ساعة فيقتله ، كذلك التأديب والتربية ؟

قال المسيب بن رافع : وكان الإمام قد شغل خاطره بهذه القصة فأخذت تمد مداها في نفسه ، ومكنت له من معانيها بمقدار ما مكن لها في همه ، وتفتق بها ذهنه عن أساليب عجيبة يتهيا بعضها من بعض كما يلد المعنى المعنى . فلما قال الرجلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة ، انقذح له من كلامهما وكلامه رأي فقال :

يا أهل الكوفة : أنشدكم الله والإسلام أيما رجل منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدقنا عن أمره ؛ ولا يجدن في ذلك ثلماً ولا عاباً ، فإنما النكبة مذهب من مذاهب القدر في التعليم ، وقد يكون ابتداء المصيبة في رجل هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غيب في أسرار لم تكن فيه ،

وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لأ في سيف
بريقه .

وعقل الهم عقل عظيم ، فلو قد أريد استخراج علم يعلمه
الناس من اللذات والنعم ؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير
والبغال والدواب ما لا يكون مثله ولا قرابه في العقلاء ، ولا تبلغه
القوى الآدمية في أهلها ؛ بيد أنه لو أريد علم من البؤس والألم
والحاجة لما وجد شرحه إلا في الناس ، ثم لا يكون الخاص منه إلا
في الخاصة منهم .

وما بان أهل النعمة ولا غمروا المساكين في تطاولهم
بأعناقهم إلا من أنهم يعلنون أكتاف الشياطين ؛ فالشيطان دابة الغني
الذي يجهل الحق عليه في غناه ويحسب نفسه مخلى لشهواته ونعيمه ؛
كما هو دابة العالم الذي يجهل الحق عليه في علمه ، ويزعم نفسه
مخلى لعقله أو رأيه ، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك قصر
القصير ، وهل يصح في الرأي أن يقال هذا أطول من هذا لأن الأول
فوق السلم والآخر فوق رجليه ؟

قال المسيب : فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى
الرقاب والناس ينفرجون له حتى وقف بإزاء الإمام ؛ وتفرسته
وجعلت عيني تعجمه ، فإذا شيخ تبدو طلاقة وجهه شبابا على

وجهه ، أبلج الغرة متهلل عليه بشاشة الإيمان وفي أساريه أثر من
تقطيب قديم ، ينطق هذا وذاك أن الرجل فيما أتى عليه من الدهر
قد كان أطفأ المصباح الذي في قلبه مرة ثم أضاءه . وعجبت أن
يكون مثل هذا الشيخ قد هم بقتل نفسه يوما ، وأنا أرى بعيني نفسه
هذه منبثقة في الحياة انبثاق النخلة السحوق .

وتكلم هذا الرجل فقال :

أما إذ ناشدتنا الله والإسلام وميثاق العلم ووحي الأقدار في
حكمتها ، فإنني محدثك بخبري على وصفه ورصفه : أملت منذ
ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر ما كان يجري ، وأصبحت في
مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه ، وعجزت يدي
حتى لظفر دجاجة في نبشها التراب عن الحبة والحشرة أقدر مني ؛
وطرقتني النوائب كأنما هي تساكنني في داري ، وأكلني الدهر لحما
ورماني عظاماً ، فما كان يقف علي إلا كلاب الطريق ؛ ولي يومئذ
امرأة أعقبت منها طفلاً ، ويلزميني حقهما وأستطيعه ، وكان بيننا
حب فوق المعاشرة والألفة قد تركني من امرأتي هذه كالشاعر
الغزل من صاحبتة ، غير أن الشعر في دمي لا في لساني .

فلما نهكتني المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد ،
قلت للمرأة ذات يوم وقد شحبت وانكسر وجهها وتقبض من

هزاله : وايم الله يا فلانة لو جاز أن يؤكل لحم الآدمي لذبحت نفسي لتأكلي وتدرى على الصبي ، ولقد هممت أن أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدنا شؤمي عليكما ؛ ولكن ردني قلبي ، وهو حبسني في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما ، فليس لي من الأرض مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبي . ولست أدري -والله- ما نصنع بالحياة وقد كنا من نباتها الأخضر فرجعنا من حطبها اليابس ؛ وعادت الشمس لا تغذوها بل تمتص منها ما بقي ، ولا تستضيء لها ، ولكن تستوقد عليها .

إن من فقد الخير ووقع في الشر ، حري أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً إذا قتل نفسه فخلص من الشر والخير جميعاً ، لا يكدي ولا ينجح ، ولا يآلم ولا يلد ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرها . أما إنه إن كان القبر القبر ولكن في بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموت فالموت ولكن بمرة واحدة وفي شيء واحد لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً ، قد ماتت أيامنا ، وتركنا نعيش كالموتى لا أيام لهم ، وزاد علينا الموتى في النعمة والراحة أنهم لا يتطفلون على أيام غيرهم فيطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك .

قال : فاستعبرت المرأة باكية ، ولما فرغت من كلام دموعها قالت : كأنك تريد أن تفجعنا فيك ؟ قلت : ما عدوت ما في نفسي ؛

ولكن هل بقي في من تفجعين فيه؟ أما ذهب مني ذاك الذي كان لك زوجا وكاسبا، وجاء الذي هو همك وهم هذا الصبي من رجل كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ ولا تعطي؟

أم والله لكأني خلقت إنسانا خطأ، حتى إذا تبين الغلط أريد إرجاعي إلى الحيوان فلم يأت لا هذا ولا ذاك، وبقيت بينهما؛ يمر الناس بي فيقولون: إنسان مسكين. وأحسب لو نطقت الكلاب لقلت عني: كلب مسكين. يا عجبا! عجبا لا ينتهي! أصبحت الدنيا في يدنا من العجز واليأس كأنما هي بعرة نجهد في تحويلها يا قوته أو لؤلؤة.

فقلت المرأة: والله لئن حييت على هذا إن هذا لكفر قبيح، ولئن مت عليه إنه لأقبح وأشد.

فقلت لها: ويحك وماذا تنظر العين المبصرة في الظلام الحالك إلا ما تنظر العمياء؟

قالت: ولم لا تنظر كما ينظر المؤمن بنور الله؟

قلت: فانظري أنت وخبريني ماذا ترين. أترين رغيفاً؟ أترين إداماً؟ أترين ديناراً؟

قالت: والله إنني لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك. أرى قمرا سيكشف هذه السدفة المظلمة إن لم يطلع فكأن قد.

قال : فغاظتني المرأة ورأيتها حينئذ أشد علي بقلّة ذات عقلها من قلة ذات يدي ؛ ولولا حبي إياها ورحمتي لها لأوقعت بها . واستحكم في ضميري أن أزهد نفسي وأدعها لما كتب لها .

وقلت : إن جبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها ، وللقدر يد ضعيفة على النساء تصفعهن وتمسح دموعهن ، وله يد أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجل وتأخذ بحلقه فتعصره .

قال : وكنت قد سمعت قول الجاهلية في هذه الخليقة ؛ أرحام تدفع ، وأرض تبلع . فحضرني هذا القول تلك الساعة وشبه لي ، واعتقدت أن هذا الإنسان شيء حقير في الغاية من الهوان والضعفة : حملته أمه كرها ، وأثقلت به كرها ، ووضعت كرها ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنا لها أن تضع لم يخرج منها حتى يضربها المخاض فتتقلب وتصيح وتمزق وتنصدع ؛ وربما نشب فيها فقتلها ، وربما التوى فيبقر بطنها عنه . وإذا هي ولدته على أي حالها من عسر وتطريق بمثل المطارق المحطمة ، أو سراح ورواح كما يتيسر ؛ فإنما تلده في مشيمة ودماء وقدر من الأخطا كأنما هو خارج من جرح ، ثم تتناوله الدنيا فتضعه من معانيها في أقبح وأقذر

من ذلك كله . ثم يستوفي مدته فيأخذه القبر فيكون شرا عليه في تمزيقه وتعفينه وإحالاته .

قال : وحضرني مع كلمة الجاهلية قول ذلك الجاهل الزنديق الذي يعرف " بالبقلي " إذ كان يزعم أن الإنسان كالبقلة ، فإذا مات لم يرجع ، وقلت لنفسي : إنما أنت بقلة حمقاء ذواية في أرض نشاشة^٤ ، فقتلها ملح أرضها أكثر مما أحيها .

قال : وثرث إلى المدية أريد أن أتوجأ بها ، فتبادرني المرأة وتحول بيني وبينها ، وأكاد أبطش بها من الغيظ ، وكانت روح الجحيم تزفر من حولي لو سمعوا سمعوا لها شهيقا وهي تفور ؛ فما أدري أي ملك هبط بوحي الجنة في لسان امرأتي . قلت لها : إنها عزمة مني أن أقتل نفسي .

قالت : وما أريد أن أنقضها ولست أردك عنها وستمضيها .

قلت : فخلي بين نفسي وبين المدية .

قالت : كلنا نفس واحدة أنا وأنت والصبي فلنقض معا ؛ وما بنفسي عن نفسك رغبة ولا تدع الصبي يتيما يصفعه من

^٤ الأرض النشاشة: هي السبخة التي فيها الملح والماء.

يطعمه ، ويضربه ابن هذا وابن ذاك إذ لا يستطيع أن يقول في أولاد الناس أنا ابن ذلك ولا ابن هذا .

قلت : هذا هو الرأي .

قالت : فتعال اذبح الطفل .

قال المسيب بن رافع : وما بلغ الرجل في قصته إلى ذبح صغيره حتى ضج الناس ضجة منكرة ؛ وتوهم كل أب منهم أن طفله الصغير ممدد للذبح وهو ينادي أباه ويشق حلقه بالصراخ : يا أبي يا أبي ؛ أدركني يا أبي .

أما الإمام فدمعت عيناه وكنت بين يديه فسمعتة يقول : إنا لله ، كيف تصنع جهنم حطبها؟

وأنا فما قط نسيت هذه الكلمة ، وما قط رأيت من بعدها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرت أعماله إلا كان كل ذلك شيئاً واحداً هو طريقة صنعته حطباً . . . كأن الشيطان لعنه الله يقول لأتباعه : جففوه .

وكانت هنيهات ، ثم فاء الناس ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمتكلم : ثم ماذا؟

قال الرجل : ففتحت عيني وقلبي معاً ورمقت الطفل المسكين الذي لا يملك إلا يديه الضعيفتين ؛ ونظرت إلى مجرى

السكين من حلقه وإلى محزها في رقبته اللينة ؛ ورأيته كأنما تفرق
بصره من الفزع على كل جهة، ورأيته يتضرع لي بعينيه الباكيتين
ألا أذبجه، ورأيته يتوسل بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه مني أمام
قاتله، ثم خيل إلي أنه يتلوى وينتفض ويصرخ من ألم الذبح تحت
يد أبيه ؛ تحت يد أبيه التعس .

يا ويلتاه! لقد أخذني ما كان يأخذني لو تهدمت السماء
على الأرض ، وحسبت الكون كله قد انفجر صراخاً من أجل
الطفل الضعيف الذي ليس له إلا ربه أمام القاتل .

فهرولت مسرعاً وتركت الدار والمرأة والصبي وأنا أقول يا
أرحم الراحمين . يا من خلق الطفل عالمه أمه وأبوه وحدهما وباقي
العالم هباء عنده . يا من دبر الرضيع فوهبه ملكاً ومملكة وغنى
وسروراً وفرحاً ، كل ذلك في ثدي أمه وصدرها لا غير يا إلهي !
أنسني مثل هذا النسيان ، وارزقني مثل هذا الرزق ، واكفلني بمثل
هذا التدبير فإني منقطع إلا من رحمتك انقطاع الرضيع إلا من أمه .

قال الرجل : ولقد كنت مغروراً كالجيفة الراكدة تحسب
أنها هي تفور حين فارت حشراتنا . ولقد كنت أحقر من الذباب
الذي لا يجد حقائقه ، ولا يلتمسها إلا في أقدر القذر .

وما كدت أمضي كما تسوقني رجلاي حتى سمعت
صوتا نديا مطلولا يرجع ترجيع الوراق في تخانها وهو يرتل هذه
الآية :

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ
مَنْ أَغْفَلَ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا } ﴿الكهف :
٢٨﴾ .

قال : فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع ؟ هذه شعل لا
كلمات ، أحرقت كل ما كان حولي ولمست مصباح روعي المنطفئ
فإذا هو يتوهج ، وإذا الدنيا كلها تتوهج في نوره ، وارتفعت نفسي
عن الجذب الذي كنت فيه وكأنا لفتني سحابة من السحب ، ففي
روحي نسيم الماء البارد ورائحة الماء العذب .

لعن الله هذا الاضطراب الذي يبتلى الخائف به . إننا نحسبه
اضطرابا وما هو إلا اختلاط الحقائق على النفس وذهاب بعضها في
بعض ، وتضرب الشر في الخير والخير في الشر حتى لا يبين جنس
من جنس ، ولا يعرف حد من حد ، ولا تمتاز حقيقة من حقيقة .
وبهذا يكون الزمن على المبتلى كالماء الذي جمد لا يتحرك ولا

يتسائر . فيلوح الشر وكأنه دائماً لا يزال في أوله ينذر بالأهوال ،
وقد يكون هوله انتهى أو يوشك .

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعترى كل شيء ،
فامتد إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن ؛ فلما سكن ما بي إذا هو قد
كان يأس يوم أو أيام في مكان من الأمكنة ؛ أما ما وراء هذه الأيام
وما خلف هذا المكان ، فذلك حكمة حكم الشمس التي تطلع
وتغيب على الدنيا لإحيائها ، وحكم الماء الذي تهمي السماء به
ليسقي الأرض وما عليها ، وحكم استمرار هذه الأجرام السماوية
في مدارها ولا تمسكها ولا تزنها إلا قوة خالقها .

أين أثر الإنسان الدنيء الحقير في كل ذلك ؟ وهل الحياة إلا
بكل ذلك ؟

وما الذي في يد الإنسان العاجز من هذا النظام كله فيسوغ
له أن يقول في حادثة من حوادثه إن الخير لا يتبدى وإن الشر لا
ينتهي ؟

تعترى المصائب هذا الإنسان لتمحو من نفسه الخسة
والدناءة ، وتكسر الشر والكبرياء ، وتفثأ الحدة والطيش ؛ فلا يكون
من حمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحدة ، وكبرياء وشرّاً ، ودناءة
وخسة ، فهذه هي مصيبة الإنسان لا تلك .

المصيبة هي ما ينشأ في الإنسان من المصيبة .

قال : ورددت الآية الكريمة في نفسي لا أشبع منها ،
وجعلت أرتلها أحسن ترتيل وأطربه وأشجاء ؛ فكانت نفسي تهتز
وترج كأنما هي تبدأ تنظيم ما فيها لإقرار كل حقيقة في موضعها بعد
ذلك الاختلاط والاضطراب .

صبر النفس مع الذين يمثلون روحانيتها تمثيلا دائما بالغداة
والعشي ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وجه الله الذي سبيله
الحب لا غيره من مال أو متاع .

وتقييد العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر في الجمال
والحب ؛ والربط على الإرادة كيلا تتفلت فتسفر إلى حقائر الدنيا
المسماة هزءا وتهكما زينة الدنيا ، تلك التي تشبه حقائق الذباب
العالية . . . فتكون قدرة نجسة ، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا
الخلق الذبابي .

تلك - والله - هي أسباب السعادة والقوة . أما المصائب
كلها ، فهي في إغفال القلب الإنساني عن ذكر الله .

قال : ولما صحت توبتي ، وقوي اليقين في نفسي ، كبرت
روحي واتسعت ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب ،

وأشرق فيها الجمال الإلهي ساطعا من كل شيء ، وكان الصبح
يطلع علي كأنه ولادة جديدة ، فأنا دائما في عمر طفل ، وجاءني
الخير من حيث أحسب ولا أحسب ، وكأنما نمت فانتبهت غنيا
وعمل القلب الحي في الزمن الحي .

ولقد أفدت من الآية طبيعة لم تكن في ، ولا يثبت معها
الشر أبداً ، فأصبح من خصالي أن أرى الحاضر كله متحركا يمر بما
فيه من خيره وشره جميعاً ، وأستشعر حركته مثلما ترى عيناى من
قطار الإبل يهتز تحت رحاله وهو يغذ السير .

لم أبعد قليلا وأنا أمشي مطمئنا تائبا متوكلا حتى دعاني
رجل ذو نعمة ومروءة وجاه ، وكأنما كلمه قلبه أو كلمه وجهي في
قلبه فاستنبأني ، وبثته حالي واقتصصت قصتي . فقال : سيحييك
الله بالطفل الذي كدت تقتله فارجع إلى دارك . ثم وجه إلي دنائير
وقال : اتجر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفل من المال
يبلغ أشده . وقد صدق إيمانه وإيماني ، فبارك لي الله ونما طفل المال
وبلغ وجاوز إلى شبابه .

قال المسيب : وجلس الرجل وكان كالخطيب على المنبر ،
فقال الإمام : ما أشبه النكبة بالبيضة تحسب سجننا لما فيها وهي

تحوطه وتربيته وتعينه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة ،
والرضى إلى غاية ، ثم تنقف البيضة فيخرج خلقا آخر .

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته ، عمله أن يتكون
فيها ، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل .

قال المسيب بن رافع : ومد الإمام عينه وقد رفع له شخص
من المجلس ؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل ،
والصدق إذا كذب ، ثم رد بصره علي كأنه يعجبني من عجبه ؛ ثم
سجا طرفه كأنما أنكر رأي عينه فهو يلتمس رأي قلبه . وتبينت في
وجهه انقباضا خيل إلي أن الشيطان جاء بهذا الرجل يفحمه به
يريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمس في دينه ليرجع بعد
ذلك أصلا لا غنى عنه في إنشاء قصة كفر !

هذا هو ضيفنا " أبو محمد البصري " يتخوض الناس
ليجيء فيحدثنا حديثه في قتل نفسه والإثم بربه ؛ فلو قيل لي : إن
قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره ، قد وقع إلى الأرض
واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً ؛ لكان هذا كهذا في تعاضمه
وإنكاره والعجب منه ؛ فأبو محمد من الرجال الحمس^٥ الذين لو

^٥ أي المتحمسين في دينهم.

كفر أحدهم ثم قيل : " إنه كفر " ، لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعائها ، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تآلى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله ! إن في لفظ الكفر مع ذاك ، وفي لفظ الجنون مع هذا ، شيئاً من نفاق العقل وتأدبه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يشبهه جنون ولا كفر .

ونعوذ بالله من خذلانه ؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدده وإيغاله في الدين كالذي يصنع حبلاً يفتله فتلاً شديداً فيمره على طاق بعد طاق ، ليكون أشد له وأقوى ، ثم يجاذبه الشيطان حبله ، فإذا هو كان في الوهن مثل العنكبوت اتخذت بيتاً في سقف حداد ؛ فرأته يصب الحديد المصهور يجعله سلسلة حلقة في حلقة ، فذهبت تحكيه وترسل من لعبها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة .

إن مع كل مؤمن شيطانه يتربص به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذي يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً محترس متهيئ متجدد الحواس مرهفها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة ، ومن هذا حكمة أن يؤذن المؤذن ، وأن تقام الصلاة مراراً في اليوم ، فكلما بدأ وقت قال المؤمن : الآن أبداً إيماني أظهر ما كان وأقوى .

وقال الإمام : هيه يا أبا محمد! فقال البصري وقد رأى الكراهة في وجه الإمام : لا يفزعك أيها الشيخ ؛ فإن الله - تعالى - قد يجعل ما يحبه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغة فتجري على ألفاظنا ؛ وقد نسمي النازلة تنزل بنا خساراً وهي ربح ، أو نقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقة تسرت لتبديل الفك . إنما لغة القدر في شيء هي حقيقة هذا الشيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأين من حادثة لا تصيب امرأً في نفسه إلا لتقع بها الحرب بين هذه النفس وبين غرائزها ، فتكون أعمال الطبيعة المعادية أسباباً في أعمال العقل المنتصر .

وكثير من هذا البلاء الذي يقضي على الإنسان ، لا يكون إلا وسائل من القدر يرد بها الإنسان إلى عالم فكره الخاص به ؛ فإن هذه الدنيا عالم واحد لكل من فيها ، ولكن دائرة الفكر والنفس هي لصاحبها عالمه وحده . والسعيد من قر في عالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملك في مملكته ، نافذ الأمر في صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقي من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس ، ينظر إلى هذا الغني ، وإلى ذاك المجدود وإلى ذلك الموفق ؛ وهو في كل هذا كالأجنبي في غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذا كل شيء يصبح أجنبياً عن الإنسان ما دام هو أجنبياً عن نفسه .

لقد كنت ضالا عن نفسي وعالمها ، فكنت في هذه الدنيا
أستشعر شعور اللص ، أشيأؤه هي أشياء الناس جميعاً ؛ واللس
ينظر إلى أموال الناس بعيني شاعر متحجب كلف ، وهي تنظر إليه
بعيني مقاتل متربص حذر .

كنت والله إن ضقت بالناس أو وسعتهم ؛ رأيت في ذلك
معنى من ضيق اللص وسعته ؛ هو على أي حاله لا ينظر في أعماق
نفسه إلا شخصا متواريا تحت الظلام يتسلل في خشية وحذر .

و كنت نزقا حديد الطبع سريع البادرة ؛ ومن فقد عالم
نفسه وكان في مثل اللص الذي ذكرت ؛ فإن هذه الطباع تكون هي
أسلحته يدفع بها أو يعتدي . وما قط تمكن إنسان من نفسه وأحاط
بها ونفذ فيها تصرفه ؛ إلا كان راضيا عن كل شيء إذ يتصل من
كل شيء بجهته السامية لا غيرها ، حتى في اتصاله بأعدائه من
الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحانا
لفضائله وإثباتها لها . وقد يكن عدوك في بعض الأمور عينا لك في
رؤية نفسك ؛ ففيه بركة هذه الحاسة ونعمتها .

ولو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ،
وإسلام المقتدين به من أصحابه ، لأدركنا سر الكمال الإنساني ،
وهو أن يقر الإنسان في عالم نفسه ويجعل باطنه كباطن كل شيء

إلهي ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمر به إلى جهة الكمال ، المرتفع به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه . والمؤمن كالغصن ؛ إن أثمر فتلك ثمار نفسه ، وإن عطل لم يشحذ ولم يحسد واستمر يعمل بقانونه .

ولقد نشأت في مغرس كريم ، على صورة من الحياة تشبه صورة الثمرة الحلوة ، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومرتبها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق ، فلما عقلت وعرفت الناس بعد فجارتهم وخالطتهم ، رأيتني منهم كالتفاحة ملقاة في البصل ، وكانت التفاحة حمقاء فزادت حمقا ، وكانت جديدة فزادت جدة ، وظنت أن الحكمة قد مسخت في الدنيا وبدلت إذ خلقت البصلة بعد أن خلقت التفاحة ، وما علمت الخرقاء أن الكمال في هذه الحياة مجموع نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدهما الذي اسمه القبح ؛ لا يعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معناها ومعنى التفاحة لسمت نفسها هي التفاحة ، وقالت عن هذه أنها هي البصلة !

ولما رأت تفاحتي أنها عاجزة أن تجعل الشجر كله في مثل مرتبتها ومغرسها ، قالت : إن الأمر أكبر من طبيعتي ، وما دام سر

الكون مغلقاً فلا تعريف له إلا أنه سر مغلق، وليبق كل شيء في طبيعة نفسه، فعلى هذا يصلح كل شيء ولو في نفسه وحدها.

قال أبو محمد: ولكن بقيت وحشة الدنيا وجفوتها، إذا لم أكن اهتديت إلى عالمي، ولا تأكدت عقيدتي بنفسي؛ فكان كل ما حولي منبجسا في روعي بشره، وكانت الدنيا بهذا كالمطابقة في رأيي على معنى واحد، وزادني أنني كنت رجلاً عزباً متعففاً؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقل البليد، وتلك هي الرجولة البليدة!

والمرأة تضاعف معنى الحياة في النفس، فلا جرم كان الخلاء منها مضاعفة لمعنى الموت؛ علم هذا من علم وجهله من جهل، فكنت أعيش من الكون في فراغ ميت، وكنت أحس في كل ما حولي وحشة عقلية تشعرني أن الدنيا غير تامة؛ وكيف تتم في عيني دنيا أراها غير الدنيا التي في قلبي؟

وعرفت أن كل يوم يمضي على الرجل العزب المتعفف لا يمضي حتى يهيم فيه مرض يوم آخر، ومن هذه الأيام المريضة المتهاكة، تعد الحياة انتقامها من هذا الحي الذي نقض آيتها وافتأت عليها، وجعل نفسه كالإله لا زوجة له ولا صاحبة!

وأيم الله إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزاني وبالمراة الزانية
ما يفرح بالرجل العزب وبالمراة العزباء ، لأنه في ذينك رذيلة في
أسلوبها ، أما في هذين فالشيطان رذيلة في أسلوب فضيلة ! هناك
يلم الشيطان ويمضي ، وهنا يأتي الشيطان و يقيم !
وقد عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح ؛ وليتني
كنت جاهلاً مغلقاً عقله ، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون
العظيم !

ومضت أيامي يضرب بعضها في بعض ، ويمرض بعضها
بعضاً حتى انتهت منهاها ، وجاء اليوم المدنف الهالك الذي
سيموت .

أصبحت فقلت لنفسي : كم تعيشين ويحك في أحكام
جسد مختل لا تصدق أحكامه ، وما أنت معه في طبيعتك ولا هو
معك في طبيعته ؛ ففيم اجتماعكما إلا على بلائي ونكدي ؟
لم تصطلحاً قط على واجب ولا لذة ، ولا حلال ولا
حرام ؛ فأنتما عدوان لا هم لكليهما إلا إفساد المسرة التي تعرض
للآخر . وما أدري بمن يسخر الشيطان منكما ؟ فالعابد الذي
يوسوس باللذات يتمنى اقترافها ، كالفاجر الذي يواقعها
ويقتحمها !

ويحك يا نفس ! إنني رأيت هذه الدنيا الخرقاء لم تقدم لي
إلا رغيفا وقالت : املاً بهذا بطنك وعقلك وعينيك وأذنيك
ومشاعرك . آه ، آه ! ممكن واحد معه أربع مستحيلات ؛ إن هذا لا
يلبثني أن يذهب مني بالأربعة التي تمسكني على الحياة : الأمل
والعقل والإيمان والصبر .

لقد استوى في هذه الكآبة صغير همي وكبيره ، وما أراني
إلا قد أشرفت على الهلكة التي لا باقية لها ، فإن وجهي المتكلح
المتقبض يدل مني على أعصاب متحضرة نهكتها أمراضها
ووساوسها ، وإنما وجه الإنسان في قطوبه أو تهله هو وجهه ووجه
دنياه تعبس أو تبسم .

وتالله لقد عجزت عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة
الواهنة ؛ فإن حباله الصيد - صيد الوحش - لا تكون من خيط
الإبرة ! وأراني أصبحت كإنسان حجري ليس في طبيعته الالتواء إلى
يمين الحياة ويسارها ؛ ويخيل إلي من صلابتي أنني الأسد ، ولكنني
أسد من حجر ، لا تفرض قوته الفرار منه على أحد !

قال أبو محمد : ورأيت نفسي في هذا الحوار كالميتة ، لا
تجيب ولا تعترض ولا تنكر ، وكنت أظنها تراودني على الحياة أو
تردني عن غوايتي ؛ فملأني سكونها جزعا ، وأيقنت أن الشيطان

بيني وبينها، وأنه أخذ بمنافذها، فأردت الصلاة فثقلت عنها
ورأيتني لا أصلح لها، بل خيل إلي أنني إذا قمت إلى الصلاة فإنما
قمت لأتهزأ بالصلاة!

وجعل الشيطان يأخذني عن عقلي ويردني إليه، ثم
يأخذني ويردني، حتى توهمت أنني جنت وكأنا كان يريد اللعين
بقية إيماني يجاذبني فيها وأجاذبه، فلم ألبث أن مسني خبال وألقيت
هذه البقية في يديه!

ثم أفقت إفاقة سريعة، فرأيت "المصحف" يرقبني
قريب، فعذت به وعطفت عليه وقلت له: امنع الضربة عن قلبي.
بيد أنني أحسست أنه خصمي في موقف لا ظهيري؛ كأني جعلته
مصحفاً عند زنديق، فكان كل إيماني الذي بقي لي في تلك اللحظة
أنني ضعفت عن حمل المصحف كما ثقلت عن الصلاة، فبقي
الظاهر طاهراً والنجس نجساً.

ولم تكن نفسي في ولا كنت فيها؛ وقرأت الدنيا على
وجه لا أدري ما هو، غير أنه هو ما يمكن أن يكون معقولا من
تخاليل مجنون تركه عقله من ساعة: بقايا شعور ضعيف، وبقايا
فهم مريض، تتصاغر فيهما الدنيا، ويتحاصر بهما العقل.

فملا انتهيت إلى هذا لم أعقل ما عملت وكانت الموسيقى قد أصابت من يدي عرقاً ناشزاً منتبراً، ففار الدم وانفجرت منه مثل الينبوع ضرب عنه الصخر فانشق فانبثق .

وتحققت حينئذ أنه الموت فنظرت فرأيت . . .

قال المسيب راوي القصة : وتجهم وجه الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شفق محمر فأظلم بغتة عندما قال : " فنظرت فرأيت " .

وارتج المسجد بصيحة واحدة : فرأيت ماذا؟ رأيت ماذا؟

وبعثت الصحبة أبا محمد فقال : رأيت ثلاثة وجوه أشرفت من المصحف تنظر إلي كالعاتبة ، وكان أوسطها كالقمر الطالع ، لو تمثلت آيات الجنة كلها وجهاً لكانته في نصرته وبشاشته ، وغمغمت الوجوه الثلاثة بكلمات لم أسمع منها شيئاً ، ولكن نظرها إلي كان يؤدي لي معانيها ، وكأنها تقول : " أكذلك المؤمن . . . ؟ " .

ثم غابت وتخلت عني وبرزت ثلاثة وجوه أخرى ، كأنها نقائص تلك ، وأعوذ بالله من أوسطها ، لو تمثلت آيات الجحيم كلها وجهاً لكانته في نكره وهوله ، وخيل إلي أن الوجه الأصغر منها وجه سورة من سور المصحف ، ففكرت ، فوقع لي مما قام في نفسي من اللعنة أنها : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } ﴿المسد : ١﴾ .

وطمس الظلام هذه الرؤيا وتغيمت الدنيا ، فأيقنت أن
آثامي قد أقبلت علي ظلمة بعد ظلمة ، والتمتع شيء أحمر ، فنظرت
فإذا الدم يتخايل في عيني كأنه شعل تتلوى ، فجزعت أشد الجزع ،
وحسبتها طرائق ممتدة لروحي تذهب بها إلى الجحيم .
وماتت كل خواطري بعد ذلك إلا فكرة واحدة بقيت حية
تأكل في قلبي أكل النار ، وهي : " كيف تجرأت فوضعت بيني وبين
الله حمقي ؟ " .

ويقولون : إن أختي قد رأنتني أتشحط في دمي فصاحت ،
وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأي ما ،
استطاع حبس الدم ، واحتال حيلته حتى أسف الجرح دواء
وضمده ؛ فجعلت أثوب نفسا بعد نفس ، وراجعت قليلاً قليلاً .
ثم طافت الحياة على عيني ففتحتها ، فإذا الأشياء تبدو لي
وليس فيها حقائق ولا معان ، كأنها تتخلق جديدة تحت بصري ،
وكأنها خارجة لساعتها من يد الله !

ومثالثت شيئاً بعد ساعات ، فأحسست أن نفسي قد
رجعت إلي ساخرة مني تقول : كيف رأيت عمل العقل أيها
العاقل ؟

وبدأت الحياة تتجدد ، فأقسمت بيني وبين نفسي أن أجدد
إيماني بالله ، ولم أكد أفعل حتى أحسست أن قوة الوجود كلها
مستقرة في روحي ، وخيل إلي أنني أنا وحدي القوي على هذه
الأرض قوة جبالها وصخورها ، على حين كان جسمي ممددا
كاليت لا يماسك من الضعف !

فأيقنت حينئذ ما أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط في
الحياة ولم يأتني به علم ولا فكر ؛ أيقنت أنها معجزة الإيمان الجديد
الغض ، المتصل بالله لتوه كإيمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة ، أو
تعترضه خاطرة ، أو تكدره ذرة واحدة من فكر أرضي دنس .

قال المسيب : ثم جلس المتحدث ، وكان الناس في آخر
كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعة ، ورجعوا إليها على مثل حالته
ومثل إيمانه ، فسكت الإمام ولم يتكلم ، ليدع كل نفس تكلم
صاحبها .

قال المسيب بن رافع : وأطرق الناس قليلا بعد خبر " أبي
محمد البصري " ، إذ كان كل منهم قد جمع باله لما سمع ، وأخذ
يحدث ، في نفسه ويراجعها الرأي ، وكان المجلس قد امتد بنا منذ
العصر وما يكاد النهار يشعرنا بإدباره ، حتى اعترضت في شمس

الغبرة التي تعترىها إذا دنت أن تغرب ، وكان إلى يساري فتى ريان
الشباب ، حسن الصورة ، وضيء مشرق ، له هيئة وسمت ، أقبل
على الأيام ، وأقبلت الأيام عليه .

فسمعتني أطن على أذن " مجاهد الأزدي " ؛ وكنت أعرفه
شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه ؛ فقلت له : إنه لم يبق من النهار يا
مجاهد إلا مثل صبر المحب دنا له الموعد ؛ ولم يبق من الشمس إلا
مثل ما تتلفف صاحبتة ، تأخذ عليها ثوبها وغلائلها ، ولكن بعد أن
تسقطها من هنا ومن هنا ، لترى جمال جسمها هنا وهنا !

فاهتز الفتى لهذه الكلمات ، وسالت الرقة في أعطافه ،
وقال : يا عم ، أما ترى ما بقي من النهار كأنه وجه باك مسح
دموعه وليس حوله إلا كآبة الزمن ؟

قلت : كأن لك خبراً يا فتى ، فإن كان شأنك مما نحن فيه
فقصه علينا وعللنا به سائر الوقت إلى أن تجب الشمس ، ولعلك
طائر بنا طيرة فوق الدنيا .

قال : فمه ؟

قلت : تقوم فتكلم ، فإني أرى لك لساناً وبياناً .

قال : أويحسن أن أتكلم في المسجد عن صرعة الحب
وصريعته ، وعاشقة وعاشق ؟

فبادر مجاهد فقال : ويحك يا فتى ! لقد تحجرت واسعاً ؛ إن المؤمن ليصلي بين يدي الله وكتاب سيئاته في عنقه منشور مقروء . وهل أوقات الصلاة إلا ساعات قلبية لكل يوم من الزمن ، تأتي الساعة مما قبلها كما تأتي توبة القلب مما عمل الجسم ؟ إنما يتلقي المسجد من يدخله لساعته التي يدخله فيها ، ولو أنه حاسبه عن أمس وأول منه وما خلا من قبل ، لطرده من العتبة ! إن المسجد يا بني إنما يقول لداخله : ادخل في زمني ودع زمئك ، وتعال إلي أيها الإنسان الأرضي ، لتتحقق أن فيك حاسة من السماء ، وجئني بقلبك وفكرك ، ليشعرا ساعة أنهما في لا فيك .

ولسنا الآن يا بني في متحدث كندي القوم يتطارحون فيه أخبارهم ، بل نحن في مجلس عالم تكلمت فيه رقبة هذا ورقبة هذا بما سمعت ؛ فقم أنت فاذكر علم قلبك وقص علينا خبر طيش الحب والشباب الذي يشبه الكلام فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والقبض من هناك على البرق !

قال المسيب : فانتفض الفتى ، ورأيت مجاهداً يتنهَّد كأنما انصدعت كبده ، فقلت : ما بالك ؟ قال : إن شبابي قد مر علي الساعة فنسمت منه في بردة هذا الفتى ، ثم فقدته فقدنا ثانياً فهرمت

هرما ثانياً، وجاءني الحزن من إحساسي بأني شيخ، حزن من هم أن يدخل باب حبيب ثم رد!

وتحدث الفتى، فإذا هو يدير بين فكيه لسان شاعر عظيم، يتكلم كلامه بنفسين: إحداهما بشرية تصنع المعنى واللفظ، والأخرى علوية فيها النار والنور.

قال: إن لي قصة أيها الشيخ، لم يبق منها إلا الكلام الذي دفنت فيه معانيها؛ وقد تأتي القصة من أخبار القلب مفعمة بالآلام والأحزان، ولا يراد بالآلامها وأحزانها إلا إيجاد أخلاق للقلب يعيش بها ويتبدل. والذي قدر عليه الحب لا يكون قد أحب غيره أكثر مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسه في غيره، وهذه كما هي أعلى درجات الحب؛ فهي أعلى مراتب الإحسان.

ومتى صدق المرء في حبه كانت فكرته فكرتين: إحداهما فكرة، والأخرى عقيدة تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغير؛ وهذه كما هي طبيعة الحب فهي طبيعة الدين.

ولا شيء في الدنيا غير الحب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنة صغيرة، بقدر ما يكفي عذاب نفس واحدة أو نعيمها، وهذه حالة فوق البشرية.

والفضائل عامتها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته ، وقد لا تنقل إلا أقله ويبقى في الحيوانية أكثره : ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته بمرة واحدة ، بيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بآلامه ؛ فهو كأعلى النسك والعبادة .

كان خبري أنني دعيت يوما إلى ما يدعى لمثله الشباب في مجلس غناء وشراب ، يا له من مجلس ! وقد قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا } ﴿البقرة: ٢٦﴾ ، والبعوضة في قصتي أنا كانت امرأة نصرانية ؛ قينة فلان المغنية الحاذقة المحسنة المتأدبة ، تحفظ الخبر وتروي الشعر ، وتكلم بألفاظ فيها حلاوة وجهها ، وتخلق النكتة إذا شاءت خلق الزهرة المفتحة عليها ، سقيط الندى ، وتجد بالحديث ما شاءت وتهزل ، فتجعل للكلام عقلا وشهوة تضاعف بهما من تحدته في شهواته وعقله !

وستجري في قصتها ألفاظ القصة نفسها ، لا أتأثم من ذلك ولا أتذمم ؛ فقد ذكر الله الخمر ولم يقل : " الماء الذي فيه السكر " ، ووصف الشيطان ولم يقل : " الملك الذي عمل عمل المرأة الحسناء في تكبرها " ، وذكر الأصنام بأنها الأصنام ، ولم يسمها : " حاملة السماء التي يصنعها الإنسان بيديه " وحكاية ما بين الرجل والمرأة هي كلام يقبل بعضه بعضا ويلتزم ويتعاقب !

قال المسيب : فتبسم إمامنا ونظرت عيناه تسألان سؤالاً .
أما مجاهد الأزدي فكان من هزة الطرب كأنه على قتب بعير ،
وقال : لله دره فتى ، إن هذا لبيان كحيل العين .

ثم قال الفتى : وذهبت إلى المجلس وقد جعلته هذه المغنية
من حواشيه وأطرافه كأنه تفسير لها هي . أما هي فجعلت نفسها
تفسيرا للكلمة واحدة هي : " اللذة " .

قال المسيب : وطرب مجاهد طرباً شديداً ، وسمعته يخافت
بصوته يقول : " لله درها امرأة ؛ هذه ، هذه عدوة الحور العين ! " .

ثم قال الفتى : وتطرب جماعة أهل المجلس إلى الشرب ،
وما ذقت خمرًا قط ، ولن أذوقها ولو شربها الناس جميعاً ، ولن
أذوقها ولو انقطع الغيث ولم تمطر السماء إلا خمرًا ؛ فإني مذ كنت
يافعا رأيت أبي يشربها ، وكانت أُمي تلومه فيها وتشتد في تعنيفه
وتتخدم ، وكانا يتشاحنان فينالها بالأذي ويندرئ عليها بالسب
وفحش القول . وسكر مرة وغلبه السكر حتى ثارت أحشاؤه ،
فذرعه القيء فتوهمني وعاء ، وجاء إلي وأنا جالس فأمسك بن
وقاء في حجري ، حتى أفرغ جوفه ؛ وثارت أُمي لتنتزعه وأنشأت
تعالجه عني فتصارع جنونه وعقلها حتى كفأته على وجهه كالإناء ؛
فالتوى كالحية بطنا لظهر ، واستجمع كالقنفذ في شوكة ، ثم لكزها

برجله أسفل بطنها فانقلبت ، وأصاب رأسها إجانة^٦ العجين فتثلم
تثليم الإناء كأنما شدخ ضربا بحجر ، دماغها على الأرض أمام
عيني ، ورأيتها لم تزد على أن دفعت بإحدى يديها في الهواء ،
وضمت بالأخرى إلى صدرها ، تتوهم أنها تحميني وتدفعه عني ؛
ثم سكنت ، ولو لم تمت من الشجة في رأسها لماتت من الضربة في
بطنها .

قال المسيب : وأطرق الفتى هنيهة وأطرق الناس معه ؛
فرفع مجاهد صوته وقال : رحمها الله ! فقال الناس جميعا : رحمها الله .
ثم قال الفتى : وكان عامة من في المجلس يعرفون ذلك
مني ، ويعرفون أنه لو ساغ لإنسان أن يشرب دم أمه ما شربت أنا
الخم ، فقالوا للمغنية : إن هذا لا يدخل في ديواننا^٧ فنظرت إلي ،
وهربت أنا من نظرتها بإطراقة ؛ ثم قالت : تشرب على وجهي ؟
فقلت لها : إن وجهك يقول لي : لا تشرب ، فتضاحكت وقالت :
أهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء ؟ فهربت من كلامها بإطراقة
أخرى ، ووصلت الإطراقتان ما بيني وبين قلبي ؛ وتنبه فيها مثل

^٦ هي ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب ، وقد يوضع فيها الماء ليتوضأ منه ، وتتخذ
من حجر أو خزف أو غيرهما .

^٧ تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك .

حنو الأم على طفلها إذا أذته بلسانها فأطرق ساكتا يشكوها إلى قلبها!

والتفت لمن حضر وقالت لهم: لست أطيب لكم ولا تنتفعون بي إلا أن تشربوا لي وله ولأنفسكم، وانحط عليهم الساقى، فشربوا أرطالا وأرطالا، وهي بين ذلك تغنيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهها لهم من دوني تحالسنى النظرة بعد النظرة.

فوسوس لي شيطاني أن تشدد مع هذه بمثل عزمك مع الخمر فإنما هما شيء واحد، ولكنني كنت أحد النظر إليها، فمرة أوامقها نظرة المحب للحبيب، ومرة أغضي عنها بنظرة لا تنظر؛ وكأنني بذلك كنت آخذها وأدعها، وأصلها وأهجرها. فقالت لي كالمنكرة علي: ما بالك تنظر إلي هكذا؟ ولكن هيئة وجهها جعلت المعنى: لا تنظر إلي إلا هكذا!

وأسرع الشراب في القوم وأفرط عليهم السكر؛ فبقيت لي وحدي وبقيت لها وحدها؛ ثم تناولت عودها وضمته إليها ضما شديدا أكثر من الضم، وألمسته صدرها، ونهديها، ثم رنت إلي بمعنى، فما شككت أنها ضمت لي أنا والعود، ثم غنت هذا الصوت:

ألا قاتل الله الحمامة عدوة . . . على الغصن ماذا هيجت حين غنت
فما سكتت حتى أويت لصوتها . . . وقلت ترى هذه الحمامة جنت
وما وجد أعرابية قذفت بها . صروف النوى من حيث لم تك ظنت
إذا ذكرت ماء العضاه وطيبه . . . ويرد الحمى من بطن خبت أرنت
بأكثر مني لوعة غير أنني . . . أجمجم أحشائي على ما أجت
وغتته غناء من قلب يئن ، وصدر يتنهد ، وأحشاء لا تخفي
ما أجت ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمي الدمع على
صوتها ، فيرتعش ويتنزل قليلا قليلا ، حتى يئن أنين الباكية ، ثم
يعتلج في صدرها مع الحب ، فيتردد عاليا ونازلا ، ثم يرفض الكلام
في آخره دموعا تجري .

قال المسيب : فنظر إلي مجاهد وقال : عدوة الجنة والله-
هذه يا أبا محمد ، لا تقبل الجنة من يكون معها ، تقول له : كنت مع
عدوتي !

ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتشوا ، فاعتراهم نصف
النوم وبقي نصف اليقظة في حواسهم ، فكل ما رأوه منا رأوه
كأحلام لا وجود لها خلف أجفانهم المثقلة سكرًا ونعاسًا ، ووثبت
المغنية فجاءت إلى جنبي والتصقت بي ، وأسرع الشيطان فوسوس

لي : أن احذر فإنك رجل صدق ، وإذا صدقت في الخمر فلا تكذب
في هذه ، ولئن مسستها إنها لضياحك آخر الدهر !

فعجبت أشد العجب أن يكون شيطاني أسلم وأعنت عليه
كما أعين الأنبياء على شياطينهم . ولكن اللعين مضى يصدني عن
المرأة دون معانيها ، وكان مني كالذي يدني الماء من عيني القليل
المتلهب جوفه ثم يجعله دائما فوت فمه ، ولقد كنت من الفحولة
بحيث يبدو لي من شدة الفورة في دمي وشبابي أن أجمع في جسمي
رجلا عدة ، ولكن ضربني الشيطان بالخجل فلم أستطع أن أكون
رجلا مع هذه المرأة .

وعجبت هي لذلك وما أسرع أن نطق الشيطان على
لسانها بالموعظة الحسنة ! فقالت أحبتك ما لم أحب أحداً ،
وأحبيت خجلك أكثر منك ، فما يسرني أن تأثم في فتدخل النار
بحبي ، ولو أنك ابتعتني من مولاي ؟ فقلت : بكم اشتراك ؟ قالت :
بألف دينار ! قلت : وأين هي مني وأنا لو بعت نفسي ما حصلت
لي ؟

فتمم الشيطان موعظته ، وقالت وأشارت إلى قلبها : إن
قلبي هذا قبلك غنيا كنت أو فقيراً ، وأحس بك وحدك حب
العذارى أول ما تحب ، وأنا - كما تراني - أعيش في السيئات كالمكرهة

عليها ، فسأعمل على أن تكون أنت حسنتي عند الله ، أذهب إليه
حاملة في قلبي حبي إياك وعفتي عنك ، ولئن كانت عفة من لا
يشتهي ولا يجد تعد فضيلة كاملة ، إن عفة من يجد ويشتهي لتعد
دينا بحاله ، ولا يزال حبي بكرأ ، ولا أزال في ذلك عذراء القلب ،
وهؤلاء قد نزعوا الحياء عني من أجل أنفسهم ، فآلبسني أنت من
أجلك خاصة ؛ وإن قوة حبي كالذي سيتألم بك ويتعذب منك
لطول ما يصبر عنك ، ستكون هي بعينها قوة لفضيلتي وطهارتي .

ثم تناولت عودها وسوته وغنت :

فلو أنا على حجر ذبحنا . . . جرى الدميان بالخبر اليقين^٨
وجعلت تتأوه في غنائها كأنها تذبح ذبحاً ، ثم وضعت
العود جانباً وقالت : ما أشقاني ! إذا اتفقت لي ساعة زواجي في غير
وقتها فجاءت كالحلم يأتي بخيال الزمن فلا يكون فيه من الأشياء
إلا خيال الأشياء .

ثم سألتني : ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل في
الديوان ؟ فبدر شيطاني المؤمن وساق في لساني خبر أمي وأبي ،
فانتضحت عيناها باكية وتم لها رأي في كرأيي أنا في المسكر ؛ وكان

^٨ كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دمياهما طريق واحد ثم التقيا، حكم عليهما
أنهما كانا متحابين، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشائنين. وما أجملها خرافة
وأشعرها.

شيطانها بعد ذلك شيطانا خبيثا مع أصحابها ، وبطريقا زاهدا معي
أنا وحدي !

ورأيتها لا تجالسني إلا متزايلة كالعذراء الخفيرة إذا
انقبضت وغطت وجهها ، وصارت تخافني لأنها تحبني ، وهيبني
الشيطان إليها فعادت لا ترى في الرجل الذي هو تحت عينيها
الثبتين ، ولكن القديس الذي تحت قلبها البكر .

ولم يعد جمالي هو الذي يعجبها ويصحبها ، بل كان
يعجبها مني أني صنعة فضيلتها التي لم تصنع شيئا غيري .

وانطلق الشيطان بعد ذلك في وفيها بدهائه وحنكته وبكل
ما جرب في النساء والرجال من لدن آدم وحواء إلى يومي ويومها !
فكان يجذبني إليها أشد الجذب ، ويدفعها عني أقوى الدفع ، ثم
يغريني بكل رذائلها ولا يغريها هي إلا بفضائلي ، وألقى منها في
دمي فكرة شهوة مجنونة متقلبة ، وألقى مني في دمها فكرة حكمة
رزينة مستقرة . وكنت ألقاها كل يوم وأسمع غناءها ؛ فما هو
بالغناء ولكنه صوت كل ما فيها لكل ما في ، حتى لو التصق
جسمها بجسمي وسار البدن البدن ، وهمس الدم للدم ، لكان هو
هذا الغناء الذي تغنيه .

وأصبحت كلما استقمت لحبها تلوث علي ؛ إذ لست عندها إلا الأمل في المغفرة والثواب ، وكأنا مسخت حبلا طوله من هنا إلى الجنة لتتعلق به . وعاد امتناعها مني جنونا دينيا ما يفارقها ، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبها من كلف وشغف .

وانحصرت نفسي فيها ، فرجعت معها أشد غباوة من الجاهل ينظر إلى مد بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهاية العالم ، وما ههنا إلا آخر بصره وأول جهله . وانفلت مني زمام روحي ، وانكسر ميزان إرادتي ، واختل استواء فكري ، فأصبحت إنسانا من النقائص المتعادية أجمع اليقين والشك فيه ، والحب والبغض له ، والأمل والخيبة منه ، والرغبة والعزوف عنها ، وفي أقل من هذا يخطف العقل ، ويتدله من يتدله .

ثم ابتليت مع هذا اللمم بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي ، فكنت أظاير قطعاً بين السماء والأرض ، وأجد عليها وأتكرر لها ، وهي في كل ذلك لا تزيدني على حالة واحدة من الرهبانية ؛ فكان يطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة ، ثم إذا أنا رمته استحال ثلجاً ، وقرحت الغيرة قلبي وفتت كبدي من عابدة الشيطان مع الجميع ، الراهبة مع رجل واحد فقط !

ورجعت خواطري فيها مما يعقل وما لا يعقل ؛ فكنت
أرى بعضها كأنه راجع من سفر طويل عن حبيب في آخر الدنيا ،
وبعضها كأنه خارج من دار حبيب في جواري ، وبعضها كأنه
ذاهب بي إلى المارستان !

ورأيتنا كأننا في عالمين لا صلة بينهما ، ونحن معا قلبا إلى
قلب ، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلي ، ولم أر لي منجاة
إلا في قتل نفسي لأزهق هذا الوحش الذي فيها .

وذهبت فابتعت شعيرات من السم الوحي الذي يعجل
بالقتل ، وأخذتها في كفي وهممت أن أقمحها وأبتلعها ، فذكرت
أمي ، فظهرت لخيالي مشدوخة الرأس في هيئة موتها ، وإلى جانبها
هذه المرأة في هيئة جمالها ، وثبتت على عيني هذه الرؤيا ، وأدمنت
النظر فيها طويلا فإذا أنا رجل آخر غير الأول ، وإذا المرأة غير
تلك ، وطغت عبرة الموت على شهوة الحياة فمحتها ، وصح عندي
من يومئذ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تقرن في النفس صورة
امرأة ميتة إلى صورة المرأة الحية ، وكلما ذكرت هذه جيء لها
بتلك ، فإذا استمر ذلك فإن الميتة تميتها في النفس وتميت الشهوة
إليها ، ما من ذلك بد ، فليجربه من شك فيه .

وانفتح لي رأي عجيب ، فجعلت أتأمل كيف آمن
شيطاني ثم كفر بعد ، على أن شيطانها هي كفر في الأول ثم آمن
في الآخر؟ فوالله ما كنت إلا غيبا خامد الفطنة ، إذ لم يسنح لي
الصواب حتى كدت أزهد نفسي وأخسر الدنيا والآخرة؛ فإن
الشيطان لعنه الله- إنما ردني عن الفاحشة وهي ذنب واحد ،
ليرميني بعدها في الذنوب كلها بالموت على الكفر!

ورد إلي هذا الخاطر ما عزب من عقلي . ومن ابتلي ببلاء
شديد يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين ، جاء منه شخص كأنما خلق
لساعته ؛ فلعنت شيطاني واستعذت بالله من مكروه ، وألقيت السم
في التراب وغيبته فيه ، وقلت لنفسي : ويحك يا نفس! إن الحياة
تعمل عملا بالحي ، أفترضين أن تعمل الحياة بأبطالها ورجالها ما
عرفت وما علمت ، ثم يكون عملها بك أنت القعود ناحية والبكاء
على امرأة؟

أيتها النفس ، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصاب ،
وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها ، أو زوجها ، أو مولاهما؟
أيتها النفس ، إن إيمان أسلافنا معنا ؛ إن الإسلام في
المسلم .

قال المسيب : وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب ، فصاح
صيحة النصر : الله أكبر ! وجاوبه أهل المسجد في صيحة واحدة :
الله أكبر ! ولم يكديتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المؤذن
لصلاة المغرب . الله أكبر .

قال المسيب بن رافع : وانفض مجلس الشيخ ، ودرجت
بعده أعوام في عدة الشهور من حمل المرأة ، بلغت فيها أمور الناس
مبلغها من خير الدنيا وشرها ، مما أعرف وما لا أعرف ؛ ودخلت
البصرة أنا ومجاهد الأزدي ، نسمع الحسن⁹ ونأخذ عنه ؛ فإنا
لسائران يوما في سكة بني سمرة ، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانية
مقبلا علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرع إليه مجاهد فالتزمه
وقال : مرحبا بذئ نسب إلى القلب . وسلمت بعده وعانقته ، ثم
أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخر أولك ؟ قال مجاهد : بل ما كان
آخر أولها هي ؟

فضحك الرجل وقال : النصرانية تعني ؟ قال : آخرها من
أولها كهذا مني ؛ وأوماً إلى ظله في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً

⁹ الحسن البصري: الإمام العظيم.

غير متميز؛ كأنه ثوب منشور ليس فيه لابس، وكنا في الساعة التي يصير فيها ظل كل شيء مثليه فهو مزج المسخ بالمسخ.

قال مجاهد: ما أفظ جوابك وأثقله يا رجل! كأنك والله تاجر لا صلة له بالأشياء إلا من أثمانها؛ فنظره إلى فراهة الدابة من الدواب وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء.

قال الرجل: فأنا والله تاجر، وأنا الساعة على طريق الإيوان^{١٠} الذي يلتقي فيه تجار العراق والشام وخراسان، وقد ضربت في هذه التجارات وحسنت بها حالي وتأثلت منها، غير أن قلب التاجر غير التاجر، فليس يزن ولا يقبض، ولا يبيع ولا يشتري. أما "تلك" فأصبحت نسيانا ذهب لسبيله في الزمن!

قال مجاهد: فكيف كنت تراها وكيف عدت تنظر إليها؟ قال: كنت أنظر إليها بعيني وأفكاري وشهواتي، فكانت بذلك أكثر من نفسها ومن النساء، وكانت ألوانا ما تنقضي، فلما دخل بيني وبينها الزمن والعقل، أبعدتها هذا عن قلبي وأبعدتها ذاك عن خيالي؛ فنظرت إليها بعيني وحدهما، فرجعت امرأة ككل امرأة، وبنزولها من نفسي هذه المنزلة، رجعت أقل من نفسها ومن النساء، وهذه القلة فيما عرفت لا تصيب امرأة عند محبتها إلا فعلت

^{١٠} هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن "البورصة"، وكذلك كانوا يستعملونها.

بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخة بجسمها ، فأدبرت به ثم أدبرت واستمرت تدبر !

وأنت فإذا أبصرت امرأة شيخوخة قد ذهبتي التي كانت فيها . وأخطرت في ذهنك نية مما بين الرجال والنساء ، فهل تراك واجداً الشهوة والميل إلا النفرة والمعصية؟ إن هذا الذي كان الحب والهوى والعشق ، هو بعينه الذي صار الإثم والذنب والضلالة؟ قال مجاهد : كأنك لما ذهبتي تقتل نفسك من حبها قتلتها هي في نفسك؟

قال : يا رحمة قد رحمت بها نفسي يومئذ ! أما والله- إن الذي يقتل نفسه من حب امرأة لغبي . ويحه ! فليتخلص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعل الله للحب طرفين : أحدهما في اللذة ، والآخر في الحماقة ؛ ما منهما بد ، فهذا الحب يلقي صاحبه في الأحلام ويغشي بها على بصره ، ثم إن هو اتجه بطرفه السعيد إلى حظه المقبل واتفقت اللذة للمحب ، أيقظته اللذة من أحلامه ؛ وإن اتجه الحب بطرفه الشقي إلى حظه المدبر ، وقعت الحماقات فنونا شتى بين الحبيين وفعلت آخرها فعل اللذة ، فأيقظت العاشق من أحلامه أيضا . وهذا تدبير من الرحمة في تلك القوة

المدمرة المسماة الحب، أفلا يدل ذلك على أن اللذة وهم من
الأوهام ما دام تحققها هو فناءها؟

خذ عني يا مجاهد هذه الكلمة: " ليس الكمال من الدنيا
ولا في طبيعتها، ولا هو شيء يدرك، ولكن من عظمة الكمال أن
استمرار العمل له هو إدراكه ". .

قال مجاهد: لقد علمت بعدنا علما، فمن أين لك هذا
وعمن أخذت؟

قال: عن السماء!

قال: ويلك! أين عقلك؟ فهل نزل عليك الوحي؟

قال الرجل: لا، ولكن تعاليا معي إلى الدار فأحدثكما .

قال المسيب: وذهبنا معه؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا،
وأشعرتنا الدار أن ربها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه
النعمة؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد: هيه يا أبا . . . يا أبا من؟
قال: أبو عبيد . قال: هيه يا أبا عبيد .

فأفكر الرجل ساعة ثم قال: عهدكما بي منذ تسع في
مجلس الإمام الشعبي بالكوفة؛ وقد كنت في بقية من النعمة أتجمل
بها، وكانت تمسكني على موضعي في أعين الناس؛ فما زالت تلك
البقية تدق وتنفض حتى نكد عيشي ووقعت في الأيام المقعدة التي

لا تمشي بصاحبها ، وانقلب الزمن كالعدو المغير جاء ليصطلم ويخرب ويفسد ، فأثر في أقبح آثاره ، فبعت ما بقي لي وتحملت عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغير حالي تغيرت نفسي ، ولا أكون في البصرة قد انتهيت إلى الفقر ، بل أكون قد بدأت من الفقر كما يبدأ غيري ، وأدع الماضي في مكانه وأمضي إلى ما يستقبلني .

فالتمت رفقة فالتأمتا عشرين رجلاً ، فلما كنا الطريق ، سلبنا اللصوص وحازوا القافلة وما تحويه ، ونجوت أنا راكبا فرسي وعمري ، وأدركت حينئذ أن الحياة وحدها ملك عظيم ، وأنها هي الأداة الإلهية ، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هين والخطب يسير .

وقلت : لو أن اللصوص قد مروا بنا كما يمر الناس بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عروض اللص للمال والمتاع لا للناس ، فوضعوا فينا الأيدي الناهبة ؛ ومن هذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها . فإذا كان ذلك فأصل السعادة في الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عرضت له ، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا ، تمثل الشر كما يراه واقعا في غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ، ونظرت إلى

نفسها وحظ نفسها ، فقد تعمى وتزل ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تريها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها .

قال : ومضيت على وجهي تتقاذفني البقاع والأمكنة ، وأنا أعاني الأرض والسماء ، وأخشى الليل والنهار ، وأكابد الألم والجوع ، حتى دخلت البصرة دخول البعير الرازح ، قطع الصحراء تأكل منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحسره الكلال وتحت الثقل الذي يحمله ، فجاء ببنية غير التي كان قد خرج بها . وكانت أيامي هذه عمراً كاملاً من الشقاء ، جعلتني أوقن أن هؤلاء الناس في الحياة إن هم إلا كالدواب تحت أحمالها ؛ لا تختار الدابة ما تحمل ولا من تحمل ، ولا يترك لها مع هذا أن تختار الطريق ولا مدة السير ؛ وليس للدابة إلا شيئان : صبرها وقوتها ، إن فقدتهما هلكت ، وإن وهنا فيها كان ضعفها بحسب ذلك .

إن هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية البشر جميعاً ، لا تبالي كيف وقع وفي أي واد هلك ، فلا ينفع الإنسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان في مثل رضاه الذي هو أحكم الحكمة في تلك الحال ، وصبره الذي هو أقوى القوة ، وقناعته التي هي أغنى الغنى ، وجهله الذي هو أعلم

العلم، وتوكله الذي هو إيمان فطرته بفطرته، لا يبالي الحيوان مالا ولا نعيما، ولا متاعا ولا منزلة، ولا حظا ولا جاها، ولن تجد حمار الملك يعرف من الملك أكثر مما يعرف حمار السقاء من السقاء، ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجواب لقال لك الأول: إن الذي فوق ظهري ثقيل مقيت بغيض؛ ولقال لك الثاني: إن الذي يركبه خفيف سهل سمح!

ولكن بلاء الإنسان إنه حين يطوحه البؤس والشقاء وراء الإنسانية، لا ينظر لغير الناس، فيزيده ذلك بؤسا وحسرة، ويمحق في نفسه ما بقي من الصبر، ويقلب رضاه غيظا، وقناعته سخطا، ويبتليه كل ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تدمره غير صاحبها؛ فإذا هي وجدت مساعداً إلى الناس فأهلكت وعاثت وأفسدت، فجعلت صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً، أي ذلك تيسر!

قال: وكنت أعرف في البصرة فلانا التاجر من سراتها ووجوه أهلها، فاستطرقته؛ فإذا هو قد تحول إلى خراسان، وليس يعرفني أحد في البصرة ولا أعرف أحداً غيره، فكأنما نكبت مرة ثانية بغارة شر من تلك، غير أنها قطعت علي في هذه المرة طريق أيامي، وسلبتني آخر ما بقي لنفسي، وهو الأمل!

ورأيت أنه ما من نزولي إلى الأرض بد ، فأكون فيها إنسانا
كالدابة أو الحشرة : حياتها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأي
إلا أن أسخر من الشهوات فأزهدها فيها وأنا القوي الكريم ، قبل أن
تسخر هي مني إذ جئتها وأنا الطامع العاجز !

وفي الأرض كفاية كل ما عليها ومن عليها ، ولكن
بطريقتها هي لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمة على
التغيير والتبديل وتحول شيء إلى شيء ، فهذا الطبي الذي يأكله
الأسد لا تعرف الأرض أنه قد أكل ولا أنه افترس ومزق ، بل هو
عندها قد تحول قوة في شيء آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك
خطب طويل في حكاية أوهام من الخوف والوجل ، كما لو
اخترعت قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحما ، فتعهده فأنبته
فحصده فأكله ، فذهب الزرع محتج على آكله ، وجعل يشكو
ويقول : ليس لهذا زرعتني أنت ، وليس لهذا خرجت أنا تحت
الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمس علي وعليك !

والإنسان يرى بعينه هذا التغيير واقعا في الإنسانية عامتها
وفي الأشياء جميعها ؛ فإذا وقع فيه هو ضج وسخط ، كأن له حقا
ليس لأحد غيره ، وهذا هو العجيب في قصة بني آدم ، فلا يزال فيها
على الأرض كلمات من الجنة لا تقال هنا ولا تفهم هنا ؛ بل محل

الاعتراض بها حين يكون الإنسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيال اللذة في الأرض هو دائماً باعث الحماسة الإنسانية .

قال أبو عبيد : وذهبت أعتمل بيدي وجسمي على آلام من الفاقة والضر ، ومن الخيبة والإخفاق ، ومن إلقاء المسكنة ، وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتني وإن يدي كيد العبد ، وظهري كظهر الدابة ، ورجلي كرجل الأسير ، وعنقي كعنق المغلول ، ويطلع قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتمل إلا بقرص من الخبز ، ولقد رأيتني أبذل في صيانة كل قطرة من ماء وجهي سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لي إن سألت وإن لم أسأل !

وما كان يمسكني على هذه الحياة المرمقة ، تأتي رمقا بعد رمق في يوم يوم - إلا كلام الشعبي - الذي سمعته في مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه ؛ فكان كلامه نورا في صدري يشرق منه كل يوم مع الصبح صبح لإيماني . ولكن بقيت أيام نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربان من الوجع كالذي يجده المجروح في جرحه إذا ضرب عليه ، فكان الشيطان لا يجد منفذا إلي إلا منها . وفقدت

الصديق وعونه ، فما كان يقبل على صديق إلا في أحلامي من وراء
الزمن الأول!

قال مجاهد : والحبيب؟

فتبسم الرجل وقال : إذا فرغت الحياة من الذي هو أقل
من الممكن ، فكيف يكون فيها الذي هو أكثر من الممكن؟ إن جوع
يوم واحد يجعل هذه الحياة حقيقة جافية لا شعر فيها ، ويترك الزمن
وما فيه ساعة واحدة معطرة ، والبؤس يقظة مؤلمة في القلب
الإنساني تحرم عليه الأحلام ، وما الحب من أوله إلى آخره إلا أحلام
القلوب بعضها ببعض!

قال أبو عبيد : وتضعضعت لهذه الحياة المخزية وأبرمتني
أيامها ، وحملت في الميت والحي ، ورأيت الشيطان -لعه الله- كأنما
اتخذني وعاء مطرحا على طريقه يلقي فيه القمامة ، وظهر لي قلبي
في وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباء ، فأعمر ما فيها مقبرتها؛
وعاد البؤس وقاح الوجه لا يستحيي ، فلا أراه إلا في أرذل أشكاله
وأبردها ، ولقد يكون البؤس لبعض الناس على شيء من الحياء
فيأتي في أسلوب معتذر كالمرأة الدميمة في نقابها .

وقلت لنفسي : ما هو -والله- إلا القتل ، فهذا عمر أراه
كالأسير أقيم على النطع وسل عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقم
بأفطع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحم بأحسن من تعجيلها !
وبت أوامر هذه النفس في قتلها وأحدثها حديث الموت ،
فسدلت رأيي فيه وقالت : ما تصنع بجسم كالمتعفن أصبح كالمقبور
لا أيام له إلا أيام انقراضه وتفتيته؟ بيد أني ذكرت كلام " الشعبي "
في ذلك المجلس وأنا أحفظه كله ، فجعلت أهذه ^{١١} ما أترك منه
حرفا ، واتخذته متكلمة مع نفسي لا كلاما ، كنت كلما غلبني
الضعف رفعت به صوتي وأصغيت كما أصغي إلى إنسان يكلمني
فرايت الشيطان بعد ذلك كاللص إذا طمع في رجل ضعيف منفرد ،
ثم لما جاءه وجد معه رجلا ثانيا قويا فهرب !
قال أبو عبيد : ونالني روح من الاطمئنان وجدت له
السكينة في قلبي فنمت ، فإذا الفزع الأكبر الذي لا ينساه من سمع
به ، فكيف الذي رآه بعينه؟

رأيتني ميتا في يد غاسله يقلبه ويغسله كأنه حرقه ؛ ثم
حملت على النعش كأن الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيها
الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى علي الإمام الشعبي في مسجد

^{١١} الهذ: الإسراع في القراءة.

الكوفة، ثم دليت في قعر مظلمة وهيل التراب علي، وتركت
وحيداً وانصرفوا!

وما أدري كم بقيت على ذلك ثم رأيت كأنما نفخ في
الصور وبعثت الأموات جميعا، فطرنا في الفضاء، وكانت النجوم
غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة، وإذا نحن في عرصات
القيامة وفي هول الموقف!

وتوجهت بكل شعرة في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله؛
ورأيت أعمالي رؤية أحزنتني، فهي كمدينة عظيمة كل أهلها
صعاليك إلا قليلا من المستورين، أرى منهم الواحد بعد الواحد في
الساعة بعد الساعة ندرؤا وتبعثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة!
وذكرت أنني كدت أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم؛
فنظرت فإذا الزمن قد ظهر في أبديته، ورجع الماضي حاضرا بكل
ما حوى كأنه لم يمض، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفه عين من
دهر طويل، فحمدت الله أن لم أفقد ألم اللحظة القصيرة القصيرة،
بعذاب الأبد الخالد الخالد الخالد.

وجيء على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذات
في تاريخ الدنيا كله، فصاح صائح: هذا أنعم من كان على الأرض
منذ خلقها الله إلى أن طواها.

ثم غمس هذ المنعم في النار غمسة خفيفة كنبضة البرق،
وأخرج إلى المحشر ، وقيل له والناس جميعا يسمعون : هل ذقت
نعيمًا قط ؟ قال : لا والله .

ثم جيء بأتعس أهل الأرض وأشدهم بؤسا منذ خلقت
الأرض ، فغمس في الجنة غمسة أسرع من النسيم تحرك ومر ، ثم
أخرج إلى المحشر وقيل له : هل ذقت بؤسا قط ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيق جهنم وهي تفور تكاد تميز من الغيظ ؛
فأيقنت أن لها نفسا خلقت من غضب الله ، وخرج منها عنق عظيم
هائل ، لو تضرمت السماء كلها نارا لأشبهته ، فجعل يلتقط صنفا
صنفا من الخلق ، وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرة واحدة
كالماغناطيس لتراب الحديد ؛ وقذف بهم إلى النار ، ثم انبعث فالتقط
الأغنياء المفسدين فأطارهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوما قوما ، وقد
ألجمني العرق من الفزع ؛ ثم طرت أنا فيه ، ونظرت ، فإذا أنا
محتبس في مظلمة نارية كالهواية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو
أنفسهم . ولو أن بحار الأرض جعل فيها البحر فوق البحر فوق
البحر ، إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعد ما بين الأرض
والسماء ، ثم تسجر نار تلظى ، لكنت هي الهواية التي نحن في
أعماقها ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبي : أن عصاة المؤمنين

الموحدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياء وجوارحهم موتى ، لأن هذه الجوارح قد أطاعت الله وسبحته فكرمت بذلك حتى على جنهم ، ثم يعذبون عذابا فيه الرحمة ، ثم يخرجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجل قتل نفسه ، فسمع قائلا من بعيد يقول لمؤمن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرني إيماني ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلا ذبح نفسه يريد أن يصرخ يسأل الله الرحمة ، فلا يخرج الصوت من حلقة ، إذ كان قد فراه وبقي مفريا ! وأبصرت آخر قد طعن في قلبه بمديّة ، فهو هناك تسليخ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نية صالحة ، فلا تزال تسليخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسى من السم فمات ظمآن يتلظى جوفه ، فلا تزال تنشأ له في النار سحابة رؤية تبرق بالماء ، فإذا دنت منه ورجاها ، انفجرت عليه بالصواعق ثم عادت تنشأ وتنفجر ! وقال رجل : إنما كنت مجنونا ضعيفا عاجزا فأزهقت نفسي . فنودي : أوما علمت أن الله يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون ، وقوي لا ضعيف ، وقادر لا عاجز ؟ كنت تعقل بالأقل

أنك ستموت ، وكنت تقوى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشر .

وقال رجل عالم قد حز في يده بسكين فمات : " لم يكن الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيء يدرك " ، فصرخ فيه صوت رهيب : " ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه ! " .

قال أبو عبيد : ثم انتصب بإزائي شيطان مارد أحمر ، يلتمع التماع الزجاج فيه الخمر ، فقام في وجهي وقال : بماذا جئت إلى هنا يا عدو الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النداء : شفعت فيك الخمر التي لم تشربها ، اخرج ، إن إيمانك ينتظرك .

فصحت : الحمد لله ! وتحرك بها لساني ، فانتبهت .

لقد علمت أن الصبر على المصائب نعمة كبرى لا ينعم الله بها إلا في المصائب .

الجمال البائس

"وكيف يُشعَب صدع الحب في كبدي"، كيف يشعب صدع الحب؟

لعمري ما رأيت الجمال مرة إلا كان عندي هو الألم في أجمل صوره وأبدعها؛ أتراني مخلوقاً بجرح في القلب؟ ولا تكون المرأة جميلة في عيني، إلا إذا أحسست حين أنظر إليها أن في نفسي شيئاً قد عرفها، وأن في عينيها لحظات موجهة، وإن لم تنظر هي إلي.

فإثبات الجمال نفسه لعيني، أن يثبت صداقته لروحي باللمحة التي تدل وتتكلم: تدل نفسي وتتكلم في قلبي.

كنت أجلس في "الإسكندرية" بين الضحى والظهر، في مكان على شاطئ البحر، ومعني صديقي الأستاذ "ح" ^{١٢} من أفاضل رجال السلك السياسي، وهو كاتب من ذوي الرأي، له أدب غُضٌّ ونوادر وظرائف؛ وفي قلبه إيمان لا أعرف مثله في مثله، قد بلغ ما شاء الله قوة وتمكناً، حتى لأحسب أنه رجل من أولياء

^{١٢} الأستاذ حافظ عامر "بك".

الله قد عُوِّبَ فحُكِّمَ عليه أن يكون محامياً، ثم زيد الحكم فجعل قاضياً، ثم ضُوِّعَت العقوبة فجعل سياسياً.

وهذا المكان ينقلب في الليل مسرحاً ومرقصاً وما بينهما، فيتغاوى فيه الجمال والحب، ويعرض الشيطان مصنوعاته في الهزل والرقص والغناء، فإذا دخلته في النهار رأيت نور النهار كأنه يغسله ويغسلك معه، فتحس للنور هناك عملاً في نفسك.

ويُرى المكان صدرًا من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل، فما تحيئه من ساعة بين الصبح والظهر، إلا وجدته ساكنًا هادئًا كالجسم المستقل نومًا؛ ولهذا كنت كثيرًا ما أكتب فيه، بل لا أذهب إليه إلا للكتابة.

فإذا كان الظهر أقبل نساء المسرح ومعهن من يطارحن الأناشيد وألحانها، ومن يُتقفهن في الرقص، ومن يُرويهن ما يمثلن إلى غير ذلك مما ابتلتهن به الحياة لتُساقط عليهن الليالي بالموت ليلة بعد ليلة.

وكن إذا جئت رأيتني على تلك الحال من الكتابة والتفكير، فينصرفن إلى شأنهن، إلا واحدة كانت أجملهن^{١٣}، وأكثر هؤلاء المسكينات يظهرن لعين المتأمل كأن منهن مثل العنز

^{١٣} يعني راقصة هناك اسمها "بنوتشيا".

التي كُسر أحد قرنيها، فهي تحمل على رأسها علامة الضعف والذلة والنقص، ولو أن امرأة تبدد حيناً فلا تكون شيئاً، وتجتمع حيناً فتكون مرة شيئاً مقلوباً، وأخرى شكلاً ناقصاً، وتارة هيئة مشوهة؛ لكانت هي كل امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتي يمشين في المسرّات إلى المخاوف، ويعشن ولكن بمقدمات الموت، ويجدن في المال معنى الفقر، ويتلقّين الكرامة فيها الاستهزاء، ثم لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهن من أجله لعنة أب أو أم أو زوجة. وتلك الواحدة التي أومأتُ إليها كانت حزينة متسلبة^{١٤}، فكأنما جذبها حزنها إلي، وكانت مفكرة فكأنما هداها إلي فكرها، وكانت جميلة فدلها علي الحب، وما أدري -والله- أي نفسينا بدأت فقلت للأخرى: أهلاً.

ورأيته لا تصرف نظرها عني إلا لترده إلي، ولا ترده إلا لتصرفه؛ ثم رأيته قد جال بها الغزل جولة في معركته، فتشاغلتُ عنها لا أريها أنني أنا الخصم الآخر في المعركة.

بيد أنني جعلت آخذها في مطارح النظر، وأتأملها خلصة بعد خلصة في ثوبها الحريري الأسود، فإذا هو يشبُّ لونها^{١٥} فيجعله

^{١٤} يقال: تسلّبت المرأة، إذا أحدثت، أي: لبست ثياب الحداد.

^{١٥} يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال.

يتلأأُ ، ويظهر وجهها بلون البدر في تمّه ، ويبيديه لعيني أرق من
الورد تحت نور الفجر .

ورأيت لها وجهاً فيه المرأة كلها باختصار ، يشرق على
جسم بضّ ألين من خملّ النعام ، تعرض فيه الأنوثة فيها الكامل ؛
فلو خلّق الدلال امرأة لكانتها .

وتلوح للرائي من بعيد كأنها وضعت في فمها " زر ورد "
أحمر منضمّاً على نفسه . شفتان تكاد ابتسامتهما تكون نداء لشفتي
محّب ظمآن !

أما عيناها فما رأيت مثلهما عيني امرأة ولا ظبية ؛
سوادهما أشد سواداً من عيون الأطباء ؛ وقد خلقتا في هيئة تثبت
وجود السحر وفعله في النفس ؛ فهما القوة الواثقة أنها النافذة
الأمر ، يمازجها حنان أكثر مما في صدر أم على طفلها ؛ وتتمام الملاحظة
أنهما هما بهذا التكحيل ، في هذه الهيئة ، في هذا الوجه القمري .

يا خالق هاتين العينين ! سبحانك سبحانك !

قال الراوي :

وأَتَغافل عنها أياماً ؛ وطال ذلك مني وشق عليها ، وكأني
صغرت إليها نفسها ، وأرهقتها بمعنى الخضوع ، بيد أن كبرياءها
التي أبت لها أن تُقدّم ، أبت عليها كذلك أن تنهزم .

وأنا على كل أحوالي إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشي
العطر يكون متزوعاً في الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد
يستطيع أن يقول : أخذت مني . ثم لا تدفني إليه إلا فطرة الشعر
والإحساس الروحاني ، دون فطرة الشر والحيوانية ومتى أحسست
جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها ؛ غير أنه
هو منها .

قال الراوي :

فإني لجالس ذات يوم وقد أقبلتُ على شأني من الكتابة ،
وبإزائي فتى ريق الشباب ، في العمر الذي ترى فيه الأعين بالحماسة
والعاطفة ، أكثر مما ترى بالعقل والبصيرة ، ناعم أملد تم شبابه ولم
تم قوته ، كأنما نكصت الرجولة عنه إذ وافته فلم تجده رجلاً . . .
أو تلك هي شيمة أهل الظرف والقصف من شبان اليوم : ترى
الواحد منهم فتعرف النضج في ثيابه أكثر مما تعرفه في جسمه ،
وتأبى الطبيعة عليه أن يكون أنثى فيجاهد ليكون ضرباً من الأنثى !
إني لجالس إذا وافت الحسنة فأومأت إلى الفتى بتحتها ، ثم ذهبتُ
فاعتلت المنصة مع الباقيات ، ورقصت فأحسنت ما شئت ، وكان
في رقصها تعبيراً عن أهواء ونزعات تريد إثارتها في رجل ما ،
فقلت لصاحبنا الأستاذ " ح " : إن كلمة الرقص إنما هي استعارة

على مثل هذا، كما يستعرن كلمة الحب لجمع المال؛ ولا رقص ولا حب إلا فجور وطمع.

ثم إنها فرغت من شأنها فمرت تتهادى حتى جاءت فجلست إلى الفتى . . . فقال الأستاذ "ح" وكان قد ألمّ بما في نفسها: أتراها جعلته ههنا محطة؟

قال الراوي: أما أنا فقلت في نفسي: لقد جاء الموضوع . . . وإني لفي حاجة -أشد الحاجة- إلى مقالة من المكحولات، فتفرغت لها أنظر ماذا تصنع، وأنا أعلم أن مثل هذه قليلاً ما يكون لها فكر أو فلسفة؛ غير أن الفكر والفلسفة والمعاني كلها تكون في نظرها وابتساماتها وعلى جسمها كله.

وكان فتاه قد وضع طربوشه على يده؛ فقد انتهينا إلى عهد رجع حكم الطربوش فيه على رأس الشاب الجميل، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة.

فأسفر ذاك من طربوشه، وأسفرت هذه من نقابها. قال الراوي: فما جلست إلى الفتى حتى أدنت رأسها من الطربوش، فاستنامت إليه، فألصقت به خدها.

ثم التفتت إلينا التفاتة الخشْف المذعور استروح السَّبْع^{١٦}
ووجد مقدماته في الهواء ، ثم أرختَ عينيها في حياء لا يستحي .
وأنشأت تتكلم وهي في ذلك تسارقنا النظر ، كأن في
ناحيتنا بعض معاني كلامها .

ثم لا أدري ما الذي تضاحكتُ له ، غير أن ضحكها
انشقت نصفين ، رأينا نحن أجملهما في ثغرها .

ثم تزعزعت في كرسيها كأنما تهم أن تنقلب ؛ لتمتد إليها
يد فتمسكها أن تنقلب .

ثم تساندت على نفسها ، كالمريضة النائمة تتناهض من
فراشها فيكاد يَنُّ بعضها من بعضها ، وقامت فمشت ، فحاذتنا ،
وتجاوزتنا غير بعيد ، ثم رجعت إلى موضعها متكسرة كأن فيها قوة
تعلن أنها انتهت .

قال الراوي :

ونظرتُ إليها نظرة حزن ؛ فتغضبت واغتاظت ،
وشاجرت هذه النظرة من عينيها الدَّعْجَاوين بنظرات متهمكة ، لا
أدري أهي توبخنا بها ، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسننها مجاناً؟

^{١٦} الخشف: ولد الغزال، يطلق على الذكر والأنثى. واستروح السبع أي: وجد ريحه في
الهواء قبل أن يراه، وكذلك طبيعة الحيوان.

فقلتُ للأستاذ " ح " ، وأنا أجهر بالكلام ليلُغها :

أما ترى أن الدنيا قد انتكست في انتكاسها ، وأن الدهر قد فسد في فساده ، وأن البلاء قد ضُوعف على الناس ، وأن بقية من الخير كانت في الشر القديم فانتزعت؟

قال : وهل كان في الشر القديم بقية خير وليس مثلها في الشر الحديث؟

قلت : ههنا في هذا المسرح قَيان لو كانت إحداهن في الزمن القديم ، لتنافس في شرائها الملوك والأمراء سراة الناس وأعيانهم ، فكان لها في عَهارة الزمن صون وكرامة ، وتتقلب في القصور فتجعل لها القصور حرمة تمنعها ابتذال فنها لكل من يدفع خمسة قروش ، حتى لرُدَّال الناس وغوغائهم وسَفَلَتهم ؛ ثم هي حين يُدبر شبابها تكون في دار مولاها حميلة على كرم يحملها ، وعلى مروءة تعيش بها .

وقديماً أخذت سلَّامة الزرقاء في قبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم ، تبلغ ألفي جنيه . فهل تأخذ القينة من هؤلاء إلا دَخينة^{١٧} بلميمين؟

^{١٧} السيجارة

قال الأستاذ "ح" : ما أبعدك يا أخي عن "بورصة" القبلة
وأسعارها ، ولكن ما خبر اللؤلؤتين؟
قال الراوي :

كانت سلامة هذه جارية لابن رامين^{١٨} ، وكانت من
الجمال بحيث قيل في وصفها : كأن الشمس طالعة من بين رأسها
وكتفيها ؛ فاستأذن عليها في مجلس غنائها الصيرفي الملقب بالماجن ،
فلما أذنت له ، دخل فأقعى بين يديها ، ثم أدخل يده في ثوبه فأخرج
لؤلؤتين ، وقال : انظري يا زرقاء جُعلتُ فداك . ثم حلف أنه نُقِدَ
فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بذاك؟ قال :
أردت أن تعلمي .

ثم غنت صوتاً وقالت : يا ماجن هبهما لي ، ويحك .
قال : إن شئت - والله - فعلت . قالت : قد شئت . قال : واليمين
التي حلفتُ بها لازمة لي إن أخذتهما إلا بشفتيك من شفتي .
قال الراوي :

^{١٨} سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم "٤٠٠٠ جنييه" ، كما اشترى
جارية أخرى يقال لها: ربيحة، بمائة ألف درهم.

ورأيته قد أذنت لي ، وأنصتت لكلامي ، وكأنما كانت تسمعي أعذر إليها ، واستيقنتُ أن ليس بي إلا الحزن عليها والرثاء لها ، فبدت أشد حياء من العذراء في أيام الخدر .

ثم قلت : نعم كان ذلك الزمن سفيهاً ، ولكنها سفاهة فن لا سفاهة عريضة وتصعلك كما هي اليوم .

فنظرت إلي نظرة لن أنساها ؛ نظرة كأنها تدمع ، نظرة تقول بها : ألسْتُ إنسانة؟ فلم أملك أن قلت لها : تعالي تعالي . وجاءت أحلى من الأمل المعترض سنحت به الفرصة ، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت؟

جاءت أحلى من الأمل المعترض سنحت به فرصة ؛ وعلى أنها لم تخطُ إلينا إلا خطوة وثماتها ، فقد كانت تجد في نفسها ما تجده لو أنها سافرت من أرض إلى أرض ، ونقلها البعد النازح من أمة إلى أمة .

يا عجباً ! إن جلوس إنسان إلى إنسان بإزائه ، قد يكون أحياناً سفرًا طويلاً في عالم النفس . فهذه الحسناء تعيش في دنيا فارغة من خلال كثرة : كالتقوى ، والحياء ، والكرامة ، وسمو الروح ، وغيرها ؛ فإذا عرض لها من يشعرها بعض هذه الخلال ،

ويبتزعها من دنيا اضطرارها وأخلاق عيشها ولو ساعة ؛ فما تكون
قد وجدت شخصاً ، بل كشفت عالماً تدخله بنفس غير النفس
التي تدبرها في عالم رزقها .

ولا أعجب من سحر الحب في هذا المعنى ؛ فإن العاشق
ليكون حبيبه إلى جانبه ، ثم لا يحس إلا أنه طوى الأرض
والسموات ودخل جنة الخلد في قبلة .

جلست إلينا كما تجلس المرأة الكريمة الخفيرة ، تعطيك
وجهها وتبتعد عنك بسائرهما ، وتُريك الغصن وتخبأ عنك أزهاره .
فرأيناها لم تستقبل الرجل منا بالأنثى منها كما اعتادت ؛ بل
استقبلت واجباً برعاية ، وتلطفاً بحنان ، وأدباً من فن بأدب من فن
آخر ؛ وكان هذا عجيباً منها ؛ فكلّمها في ذلك الأستاذ "ح"
فقالت : أما واحدة ، فإننا نتبع دائماً محبة من نجالسهم ، وهذه هي
القاعدة . وأما الثانية ، فإننا لا نجد الرجل إلا في الندرة ؛ وإنما نحن
مع هؤلاء الذين يتسوّمون بسيما الرجال ، كحيلة المحتال على
غفلة المغفل ؛ وهم معنا كالقدرة بالثمن ما يشتريه الثمن ، ليسوا
علينا إلا قهراً من القهر ؛ ولسنا عليهم إلا سلباً من السلب ، مادة
مع مادة ، وشر على شر ؛ أما الإنسانية منا ومنهم فقد ذهبت أو هي
ذاهبة .

قال " ح " : ولكن .

فلم تدعه يستدرك بل قالت : " إن " لكن " هذه غائبة الآن ، فلا تجيء في كلامنا ، أتريد دليلاً على هذا الانقلاب ؟ إن كل إنسان يعلم أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ؛ ولكن كل امرأة منا تعلم أن الخط المعوج هو وحده أقرب مسافة بينها وبين الرجل .

قالت : فإذا وجدتُ إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها ، ردتها أخلاقه إلى المرأة التي كانت فيها من قبل ، وزادتها طبيعتها الزَّهْوُ بهذا الرجل النادر ، فتكون معه في حالة كحالة أكمل امرأة ، بيد أنه كمال الحلم الذي يستيقظ وشيكاً ؛ فإن الرجل الكامل يكمل بأشياء ، منها وأأسفاً ! منها ابتعاده عنا . ثم قالت : وصاحبك هذا منذ رأيتَه ، رأيته كالكتاب يشغل قارئه عن معاني نفسه بمعانيه هو .

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه ، فمتى كان الكتاب عند هذه كتاباً يشغل بمعانيه ؟ غير أنني رأيته قد تكلمت واحتفلت ، وأحسن وأصاب ؛ فتركتهما تتحدث مع الأستاذ " ح " ، وغبت عنهما غيبة فكر ؛ وأنا إذا فكرت انطبق علي قولهم : خَلَّ رجلاً وشأنه ، فلا يتصل بي شيء مما حولي . وكان كلامها يسطع لي

كالمصباح الكهربائي المتوقد، فقدّمها فكرها إلى غير ما قدمتها إلى نفسها، ورأيت لها صورتين في وقت معاً، إحداهما تعتذر من الأخرى .

وكنت قبل ذلك بساعة قد كتبت في تذكرة خواطري هذه الكلمة التي استوحيتها منها ؛ لأضعها في مقالة عنها وعن أمثالها، وهي :

إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشريعته، فهل بقي منها إلا الأنثى مجردة تجريدها الحيواني المتكشف، المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعمل هذه المرأة عند ذلك إلا أعمال هذه الأنثى؟

"وما الذي استرعاها الاجتماع حينئذ فترعاه منه وتحفظه له، إلا ما استرعى أهلُ المال أهلَ السرقة! إن الليل ينطوي على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء".

وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت رذائلها دائماً وراء عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمهات والمحصنات من النساء، وليس شأنها، من شأنهن؟ إن خيالها يحرز في وعيه صورتها الماضية من قبل أن تزلّ؛ فإذا خلت إلى نفسها كانت فيها

اثنتان ، إحداهما تلعن الأخرى ، فترى نفسها من ذلك على ما ترى .

"وهي حين تطالع مرآتها لتتبرج وتحتفل في زينتها ، تنظر إلى خيالها في المرأة بأهواء الرجال لا بعيني نفسها ؛ ولهذا تبالغ أشد المبالغة ؛ فلا تُعنى بأن تظهر جميلة كالمرأة ، بل مثمرة كالتاجر ، وتكسبها بجمالها يكون أول ما تفكر فيه ؛ ومن ذلك لا يكون سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسب منه ؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة ، فإن سرورها بمسحة الجمال عليها هو أول فكرها وآخره " .

"إن الساقطة لا تنظر في المرأة -أكثر ما تنظر- إلا ابتغاء أن تتعهد من جمالها ومن جسمها مواقع نظرات الفجور وأسباب الفتنة ، وما يستهوي الرجل وما يفسد العفة عليه ؛ فكأن الساقطة وخیالها في المرأة ، رجل فاسق ينظر إلى امرأة ، لا امرأة تنظر إلى نفسها " .

ذهبتُ أفكر في هذه الكلمة التي كتبتها قبل ساعة ، ولم أستطع أن ألس في هذه القضية وجه القاضي ؛ فدخلتني رقة شديدة لهذا الجمال الفاتن ، الذي أراه يبتسم وحوله الأقدار العابسة ؛ ويلهو وبين يديه أيام الدموع ؛ ويجتهد في اجتذاب الرجال والشبان

إلى نفسه ، والوقت آتٍ بالرجال والشبان الذين سيجتهدون في طرده عن أنفسهم .

وتغشاني الحزن ، ورأتُ هي ذلك وعرفته ؛ فأخرجتُ منديلها المعطر ومسحت وجهها به ، ثم هزته في الهواء ، فإذا الهواء منديل معطر آخر مسحت به وجهي .

وقال الأستاذ " ح " : آه من العطر ! إن منه نوعاً لا أستشيه مرة إلا ردني إلى حيث كنتُ من عشرين سنة خلت ، كأنما هو مسجل بزمانه ومكانه في دماغي .

فضحكت هي وقالت : إن عطرنا نحن النساء ليس عطراً ، بل هو شعور نُثبته في شعور آخر .

فقلت أنا : لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهاً غير هذا . قالت : وما هو ؟

قلت : إن المرأة المعطرة المتزينة ، هي امرأة مسلحة بأسلحتها . أفي ذلك ريب ؟ قالت : لا .

قلت : فلماذا لا يسمى هذا العطر بالغازات الخائفة الغرامية ؟

فضحكت فنوناً ؛ ثم قالت : وتسمى " البودرة " بالديناميت الغرامي .

ونقلني ذلك إلى نفسي مرة أخرى ، فأطرقت إطرقة ؛
فقلت : ما بك ؟ قلت : بي كلمة الأستاذ " ح " ، إنها ألهمت في
قلبي جمرة كانت خامدة .

قلت : أو حركت نقطة عطر كانت ساكنة !

فقلت : إن الحب يضع روحانيته في كل أشياءه ، وهو يغير
الحالة النفسية للإنسان ، فتتغير بذلك الحالة للأشياء في وهم
المحب . " فعطر كذا " مثلاً هو نوع شذيٍّ من العطر ، طيب
الشمِّيم ، عاصف النشوة ، حادّ الرائحة ؛ لكأنه ينشر في الجو روضة
قد مُلئت بأزهاره تُشم ولا تُرى ؟ وإنه ليُجعل الزمن نفسه عبَقاً
بريحه ، وإنه ليُفعم كل ما حوله طيباً ، وإنه ليسحر النفس فيتحوّل
فيها .

وهنا ضحكت وقطعت علي الكلام قائلة : يظهر لي أن
" عطر كذا " هاجر أو مخاصم .

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتشقتُ أَرْجِه مرة إلا
حسبته ينفّح من الجنة .

فما أسرع ما تلاشى من وجهها الضحك وهيئته ، وجاءت
دمعة وهيئتها ، ولمحت في وجهها معنى بكيت له بكاء قلبي .

جمالها، فتنّتها، سحرها، حديثها، لهوها؛ آه حين لا
يبقى لهذا كله عين ولا أثر، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا
ذنوب، وذنوب، وذنوب!

وأردنا أنا و"ح" بكلامنا عن الحب وما إليه، ألا نُوحشها
من إنسانيتنا، وأن نبُل شوقها إلى ما حرّمته من قدرها قدر إنسانة
فيما نتعاطاه بيننا. والمرأة من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أعلى
عندها من الذهب والجوهر والمتاع؛ طمعت في الاحترام من رجل
شريف متعفف، ولو احترام نظرة، أو كلمة. تقنع بأقل ذلك
وترضى به؛ فالقليل مما لا يدرك قليله، هو عند النفس أكثر من
الكثير الذي ينال كثيره.

ومثل هذه المرأة، لا تدري أنت: أطافت بالذنب أم طاف
الذنب بها؟ فاحترامها عندنا ليس احتراماً بمعناه، وإنما هو
كالوَجُوم أمام المصيبة في لحظة من لحظات رهبة القدر، وخشوع
الإيمان.

وليست امرأة من هؤلاء إلا وفي نفسها التندم والحسرة
واللهفة مما هي فيه، وهذا هو جانبهن الإنساني الذي يُنظر إليه من
النفس الرقيقة بلهفة أخرى، وحسرة أخرى، وندم آخر. كم
يرحم الإنسان تلك الزوجة الكارهة المرغمة على أن تعاشر من

تكرهه ، فلا يزال يغلي دمها بوساوس وآلام من البغض لا تنقطع !
وكم يرثي الإنسان للزوجة الغيور ، يغلي دمها أيضاً ولكن
بوساوس وآلام من الحب ! ألا فاعلم أن كل مَنْ مثل هذه الحسنة
تحمل على قلبها مثل هم مائة زوجة كارهة مرغمة مستعبدة ،
يخالطه مثل هم مائة زوجة غيور مكابدة منافسة ؛ ولقد تكون المرأة
منهن في العشرين من سنّها وهي مما يكابد قلبها في السبعين من عمر
قلبها أو أكثر .

وهذه التي جاءتنا إنما جاءتنا في ساعة منا نحن لا منها هي ،
ولم تكن معنا لا في زمانها ولا في مكانها ولا في أسبابها ، وقد
فتحت الباب الذي كان مغلقاً في قلبها على الخفر والحياء ،
وحولت جمالها من جمال طابعه الرذيلة ، إلى جمال طابعه الفن ،
وأشعرت أفراسها التي اعتادتها روح الحزن من أجلنا ، فأدخلت
بذلك على أحزانها التي اعتادتها روح الفرح بنا .

من ذا الذي يعرف أن أدبه يكون إحساناً على نفس مثل
هذه ثم لا يحسن به ؟

تتجدد الحياة متى وجد المرء حالة نفسية تكون جديدة في
سرورها . وهذه المرأة المسكينة لا يعينها من الرجل من هو ، ولكن
كم هو . . . لم تر فينا نحن الرجل الذي هو " كم " ، بل الذي هو

"من" . وقد كانت من نفسها الأولى على بعد قصي كالذي يد يده
في بئر عميقة ليتناول شيئاً قد سقط منه ؛ فلما جلستُ إلينا ،
اتصلت بتلك النفس من قرب ؛ إذ وجدت في زمنها الساعة التي
تصلح جسراً على الزمن .

قال الراوي :

كذلك رأيته جديدة بعد قليل ، فقلت للأستاذ "ح" : أما
تري ما أراه؟

قال : وماذا تري؟ فأومأت إليها وقلت : هذه التي جاءت
من هذه . إن قلبها ينشر الآن حولها نوراً كالصباح إذا أضيء ،
وأراها كالزهرة التي تفتحت ؛ هي هي التي كانت ، ولكنها بغير ما
كانت .

فقالت هي : إني أحسبك تحبني ؛ بل أراك تحبني ؛ بل أنت
تحبني ، لم يخف علي منذ رأيته ورأيتني .

قلت : هببه صحيحاً ، فكيف عرفته ولم أصانعك ، ولم
أتملق لك ، ولم أزد علي أن أجيء إلى هنا لأكتب؟

قالت : عرفته من أنك لم تصانعي ، ولم تتملق لي ، ولم
تزد علي أن تحيى إلى هنا لتكتب .

قلت : ويحك ، لو كُحلت عين " الميكروسكوب " لكانت عينك . وضحكنا جميعاً ؛ ثم أقبلت على الأستاذ " ح " فقلت له : إن القضايا إذا كثر ورودها على القاضي جعلت له عيناً باحثة . قال الراوي :

وأنظر إليها ، فإذا وجهها القمري الأزهر قد شَرِقَ لونه ، وظهر فيه من الحياء ما يظهر مثله على وجه العذراء المخدرة إذا أنت مسستها بريبة^{١٩} ؛ فما شككت أنها الساعة امرأة جديدة قد اصطَلَحَ وجهها وحيَاؤها ، وهما أبداً متعاديان في كل امرأة مكشوفة العفة .

وذهبت أستدرك وأتأول ، فقلت لها : ما ذلك أردتُ ، ولا حَدَسْتُ على هذا الظن ، وإنما أنا مشفق عليك متألم بك ، وهل يعرض لك إلا الطبقة النظيفة من المجرمين والخبثاء وأهل الشر ؛ أولئك الذين أعاليهم في دور الخلاعة والمسارح ، وأسافلهم في دور القضاء والسجون ؟

فقالت : أعترف بأنك لم تحسن قلب الثوب ، فظهر لكل عين أنه مقلوب ، لكنك تحبني وهذا كافٍ أن ينهض منه عذراً !

^{١٩} أي: لأنها ظننت أنه يقول: إنها اعتادت الرجال.

قال الأستاذ "ح" : إنه يحبك ، ولكن أتعرفين كيف حبه؟
هذا باب يضع عليه دائماً عدة من الأقفال .

قالت : فما أيسر أن تجد المرأة عدة من المفاتيح .

قال : ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو
وحبيته تحت أعين الناس : ما تطمع إلا أن تراه ، وما يطمع إلا أن
يراه ، ولا شيء غير ذلك ؛ ثم لا يزال حسنهما عليه ولا يزال هواه
إليها ، وليس إلا هذا .

قالت : إن هذا لعجيب .

قال : والذي هو أعجب أن ليس في حبه شيء نهائي ، فلا
هجر ولا وصل ؛ ينساك بعد ساعة ، ولكنك أبداً باقية بكل جمالك
في نفسه . والصغائر التي تبكي الناس وتلذع في قلوبهم كالنار
ليجعلوها كبيرة في همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات
الحب ، تبكيه هو أيضاً وتعتلج في قلبه ، ولكنها تظل عنده صغائر
ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجربته على جبار الحب .

قال الراوي :

ونظرت إليها ونظرت ، وعابت نفس نفساً في أعينهما ،
وسألت السائلة وأجابت المجيبة ، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت؟
قال الراوي :

نظرت إليها ونظرت : أما هي ، فرّنت إلي في سكون ،
وكانت نظرتها معاتبة طويلة التملق والتوجع ، وفيها الانكسار
والفتور ، وفيها الاسترخاء والدلال .

وبينا كان طرفها ساجياً فاتراً كأنه ينظر أحلامه ، إذ حدّته
إلي فجأة ونظرت نظرة مدهوش ، فبدت عيناها فرعتين ولكن في
وجه مطمئن .

ثم لم تكد تفعل حتى ضيقت أجفانها وحدّقت النظر
متلألئاً بمعانيه ، فبدت عيناها ضاحكتين ولكن في وجه متألم .

ثم ابتسمت بوجهها وعينيها معاً ، وأتمت بذلك أجمل
أساليب المرأة الجميلة المحبوبة في اعتراضها على من تحبه ، وجدالها
مع فكره ، وكسر حجته في كبريائه ، وانتزاع الفكرة المستقلة من
نفسه .

وأما أنا ؛ فكان نظري إليها ساكناً متألماً يقر أنه عجز عن
جواب عينيها ، وسيبقى عاجزاً عن جواب عينيها .

إن وجهها هو الابتسام وروح الابتسام ، وجسمها هو
الإغراء وروح الإغراء ، وفنها هو الفتنة وروح الفتنة ، وهي بهذا
كله هي الحب وروح الحب ؛ غير أن فهمها على حقيقتها في الناس

يجعل ابتسامها عداوة من وجهها، وإغراءها جريمة لجسمها، وفنها رذيلة في جمالها؛ وهي بهذا كله هي الشقاء وروح الشقاء.

أما أني أحب فنعم ونعمًا، بل أراه حبًّا فالحبُّ كبدي، وليس يخلو فؤادي أبدًا من سوائف حب مضي؛ وأما أني أسترذل في الحب وأمتن فضيلتي وأنزل بها، فلا وأبدًا.

إن ذلك الحب هو عندي عمل فني من أعمال النفس، ولكن الفضيلة هي النفس ذاتها؛ الحب أيام جميلة عابرة في زمني؛ أما الفضيلة فهي زمني كله؛ وذلك الجمال هو قوة من جاذبية الأرض في مدتها القصيرة، ولكن الفضيلة جاذبية السماء في خلودها الأبدي.

على أنه لا منافرة بين الحب والفضيلة في رأيي، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن، لا يكون إلا في النفس الفاضلة المتورعة عن مقارفة الإثم. وههنا يتحول الحب إلى ملكة سامية في إدراك معاني الجمال، فيكون الوجه المعشوق مصدر وحي للنفس العاشقة؛ وبهذا الوحي والاستمداد منه ينزل المحب من المحبوب منزلة من يرتفع بالآدمية إلى الملائكية؛ ليتلقى النور منها فنًا بعد فن، والفرح معنى بعد معنى، والحزن السماوي فضيلة بعد فضيلة.

فهذا الحب هو طريقة نفسية لاتساع بعض العقول المهيأة للإلهام، كي تحيط بأفراح الحياة وأحزانها، فتبدع للعالم صورة من صور التعبير الجميلة التي تثير أشواق النفس؛ كأن كل محل وحييته من هؤلاء الملهمين، هما صورة جديدة من آدم وحواء، في حالة جديدة من معنى ترك الجنة، لإيجاد الصورة الجديدة من الفرح الأرضي، والحزن السماوي.

والخطر في الحب ألا يكون فيه خطر، فهو حينئذ نداء الجنس، لا يكون إلا دنيئاً ساقطاً مبذولاً، فلا قيمة له ولا وحي فيه؛ إذ يكون احتيالاً من عمل الغريزة جاءت فيه لابسـة ثوبها النوراني من شوق الروح لتخدع النفس الأخرى فيتصل بينهما، حتى إذا اتصل بينهما خلعت الغريزة هذا الثوب واستعلنت أنها الغريزة، فانحصر الحب في حيوانيته، وبطلت أشواقه الخيالية أجمع.

قال الراوي:

وعرفت الحسناء هذا كله من عرّضها نظرة وتلقيها نظرة غيرها، فقالت للأستاذ "ح": أما أن يكون مع أثر الشعر والفكر في الجمال ودعوى الحب، أثر الزهد في الجسم الجميل وادعاء الفضيلة؛ فإن بعيداً أن يجتمعا.

قال "ح" : وأين تُبعدينه ويحكـ عن هذه المنزلة؟ إني
لأعرف من هو أعجب من هذا!!

قالت : وماذا بقي من العجب فتعرفه؟

قال : أعرف متزوجاً، أحب أشد الحب وأمّضه، حتى
استهام وتدلّه، فكان مع هذا لا يكتب رسالة إلى حبيبته حتى
يستأذن فيها زوجته، كيلا يعتدي على شيء من حقها. وزوجته
كانت أعرف بقلبه وبحب هذا القلب، وهي كانت أعلم أن حبه
وسلوانه إنما هما طريقتان في الأخذ والترك بين قلبه وبين المعاني،
تارة من سبيل المرأة وجمالها، وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها.
فتنهّدت وقالت : يا عجباً! وفي الدنيا مثل هذا الزوج الطاهر، وفي
الدنيا مثل هذه الزوجة الكريمة؟

ثم إنها وجمّت هنيئاً تجتمع في نفسها اجتماع السحابة،
ثم استدمعت، ثم أرسلت عينيها تبكي؛ فبدرت أنا أرفّه عنها حتى
كفكت من دمعها، وكأن "ح" قد وخزها في قلبها وخزة أليمة
بذكره لها الزوجة، ثم الزوجة الطاهرة، ثم الطاهرة حتى في
وسوسة شيطان الغيرة. ارتفع ثلاث مرات بالزوجة، لترى هذه
المسكينة أنها سافلة ثلاث مرات، وكأنه بهذا لم يكلمها، بل رسم
لها صورتها في عيشها المخزي، وقال لها: انظري.

ويا ما كان أجملها يترقرق الدمع في عينيها الفاتنتين
الكحيلتين، فيبث منهما حزناً يخيل لمن رآه، أنه من أجملها سيحزن
الوجود كله!

ليس البكاء من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من
العاشقين، بل هو فن الحزن يضع جمالاً جديداً في فن الحسن. وأكاد
أعجب كيف وجد الدمع مكاناً بين المعاني الضاحكة في وجهها،
لو لم يكن هذا الدمع قد جاء ليُظهر على وجهها الفن الآخر من
جمال المعاني الباكية.

وسألتها: ما الذي خامر قلبك من كلام الأستاذ "ح"
فأبكاك، وأنت كما أرى يتألق النور على جدران المكان الذي
تَحْلِينَ به، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك؟

فتشككت لحظة ثم قالت: أبك ما تقول أم أنت تتهكم

بي؟

قلت: كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق:

الجمال، والحب، والألم الإنساني؟

قالت: لا تثريب عليك^{٢٠} ولكن صور إلي ببلاغتك كيف

أحببتك وأنت غير متحبيب إلي، وكيف جادلت نفسي فيك

^{٢٠} أي: لا عتب عليك.

وداورتها ، وكلما عزمت انحل عزمي ؟ فهذا ما لا أكاد أعرف كيف
وقع ، ولكنه وقع . هذه قطرة من الماء الصافي العذب ، فضع عليها
" الميكروسكوب " يا سيدي ، وقل لي ماذا ترى ؟

قلت : إنك تخرجين من السؤال سؤالاً ، فما الذي خامر
قلبك من كلام " ح " فبكيت له ؟

قالت : إذن فليست هي قطرة من الماء ، بل تلك دمعة من
دموعي ، فضع عليها الميكروسكوب يا سيدي .
قال الراوي :

وكانت حزينة كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها ،
وبقيت روحها تبكي في داخلها . فأراد الأستاذ " ح " أن يستدرك
لغلطته الأولى فقال : إنك الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه ،
فكل امرأة يحبها هي عروس قلمه ولها على هذا القلم حق النفقة .

فضحكت نوعاً من الضحك الفاتر ، كأنما ابتكره ثغرها
الجميل لساعة حزنها ؛ ونظرت إليّ ، فقلت : إن كان الأمر من نفقة
العروس على القلم ، فما أشبه هذا " بلا شيء " جُحا .

فضحكتُ أظرف من قبل ، وخيل إليّ أن ثغرها انطبق بعد
افتراعه على قبلة أفلتت منه ، فأمسكها من آخرها .

ثم قالت : ما هو " لا شيء " جُحا ؟

قلت : زعموا أن جحا ذهب يحتطب ، وحمل فوق ما يطيق ، فبهَظَه الحملُ وبلغ به المشقة ، ثم رأى في طريقه رجلاً أبله فاستعان به ، فقال الرجل : كم تعطيني إذا أنا حملت عنك؟ قال : أعطيك " لا شيء " . قال : رضيت .

ثم حمل الأبله وانطلق معه حتى بلغ الدار ، فقال : أعطني أجري ، قال جحا : لقد أخذته . واختلفا : هذا يقول : أعطني ، وهذا يقول : أخذت ؛ فلبَّه الرجل ^{٢١} ومضى يرفعه إلى القاضي ، وكانت بالقاضي لُوثَة ، وعلى وجهه رَوْءَة الحمق ^{٢٢} تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه ، فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت في الحبس أو تعطيه " اللا شيء " .

قال جحا في نفسه : لقد احتجت لعقلي بين هذين الأبلهين ؛ ثم إنه أدخل يده في جيبه وأخرجها مطبقة ، وقال للرجل : تقدم وافتح يدي ، فتقدم وفتحها . قال جحا : ماذا فيها؟ قال الرجل : " لا شيء " .

فقال له جحا : خذ " لا شيءك " وامض ، فقد برئت

ذمتي .

^{٢١} أخذ بتلابيبه.

^{٢٢} اللوثة "بضم اللام": مَسَّ من الجنون، وتكون أيضاً بمعنى الحمق، وروءة الحمق: علاماتُه، وهي معروفة في علم الفراسة.

قالوا: فذهب الرجل محتج، فقال له القاضي: مه! أنت
أقررت أنك رأيت في يده "لا شيء"، وهو أجرك فخذ ولا تطمع
في أزيد من حقك!

وضحكت وضحكنا، ثم قالت: أنا راضية أن أكون
عروس القلم، فليُجر علي القلم نفقتي، وليُصور لي كيف
أحببت، وكيف أمرت نفسي وجادلتها؟

قلت: لا أتكلم عنك أنت ولا أستطيعه. بيد أنني لو
صنفت رواية يكون فيها هذا الموقف، لوضعت على لسان العاشقة
هذا الكلام تحدث به نفسها.

تقول: كيف كنت وكيف صرت؟ لقد رأيتني أعاشر مائة
رجل فأخالطهم في شتى أحوالهم، وأصرفهم في هواي، وكلهم
يجهد جهده في استمالي، وكلهم أهل مودة وبذل، وما منهم إلا
جميل مخلص، قد أُنق وتجميل وراع حسنه؛ كأنما هرب إلي في ثياب
عرسه ليلة زفافه، وترك من أجلي عروساً تبكي وتصيح بويلها.
ثم أنا مع ذلك مغلقة القلب دونهم جميعاً: أصدفُهم المودة
والصحبة، وأكذبهم الحب والهوى؛ فلست أحبهم إلا بما أنال
منهم، ولست أحبب إليهم إلا ما أنوّلهم مني، وهم بين عقلي

وحيلتي رجال لا عقول لهم، وأنا بين أهوائهم وحمقاتهم امرأة لا ذات لها.

ثم أرى بغتة رجلاً فرداً، أكاد أنظر إليه وينظر إلي حتى يضع في قلبي مسألة تحتاج إلى الحل.

وأرتاع لذلك فأحاول تناسيه والإغضاء عنه، فتلجّ المسألة في طلب حلها، وتشغل خاطري، وتمدد في قلبي؛ وهو هو المسألة.

فأفزع لذلك وأهتم له، وأجهد جهدي أن أكون مرة حازمة بصيرة، كرجال المال في حق الثروة عليهم؛ ومرة قاسية عنيدة، كرجال الحرب في واجبها عندهم؛ ومرة خبيثة منكرة، كرجال السياسة في عملها بهم؛ ولكني أرى المسألة تلين لي وتتشكّل معي وتحتمل هذه الوجوه كلها، لتبقى حيث هي في قلبي؛ فإنه هو هو المسألة.

وأعتم لذلك غمّاً شديداً، وأراني سأسقط بعد سقوطي الأول وأقبح منه؛ إذ الحياة عندنا قائمة بالخداع، وهذا يُفسده الإخلاص؛ وبالمكر، وهذا يعطله الوفاء؛ وبالنسيان، وهذا يبطله الحب؛ وإذ عواطفنا كلها متجردة لغرض واحد، هو كسب المال وجمعه وادخاره؛ وفضيلتنا عملية لا تُتخيّل، حسابية لا تحتل؛

فيستوي عندنا الرجل بلغ جماله القمر في سمائه ، والرجل بلغت دَمَامَتِه الذباب في أقذاره ؛ والحب معنا هو : كم في كم ويبقى ماذا ، أو كما يقول أهل السياسة : هو " النقطة العملية في المسألة " . ولكن المسألة التي في قلبي لا ترى هذا حلًّا لها ؛ لأنه هو هو المسألة .

فيزيد بي الكرب ، ويشتد علي البلاء ، وأحتال لقلبي وأدبّر في خنقه ، وأذهب أفنعه أن الرجل إذا كان شريفًا لم يحب المرأة الساقطة ؛ إذ يُعَاب بصُحْبَتِها والاختلاف إليها ، فإذا كان ساقطًا لم تحبه هي ، فإنما هو صيدها وفريستها ، وموضع نَقْمَتِها من هذا الجنس ؛ وأشرف على قلبي في المَلَكَمَة والتعذيل فأقول له : ويحك يا قلبي ! إن المرأة منا إذا تفتّح قلبها لحبيب ، تفتح كالجرح لينزف دمائه لا غير . فيقتنع القلب ويجمع على أن ينسى ، وأن يرجع عن طلبه الحب ؛ وأرى المسألة قد بطلت وكان بطلانها أحسن حل لها ، وأنام وادعة مطمئنة ، فيأتي هو في نومي ويدخل في قلبي ، ويعيد المسألة إلى وضعها الأول ، فما أستيقظ إلا رأيته هو هو المسألة .

فأتناهى في الخوف على نفسي من هذا الحب ، وأراه سجنها وعقابها ، وقهرها وإذلالها ، فأقول لها : ويلك يا نفسي !

إنما همك في الحياة وسائل الفوز والغلب، فأنت بهذا عدوة مسمامة في غفلة الرجال صديقة، وقد وُضعت في موضع تعيشين فيه بإهانات من الرجال، يسمونها في نذالتهن بالحب؛ فأنت عدوة الرجال بمعنى من الدهاء والخبث، وعدوة الزوجات بمعنى من الحقد والضغينة، وعدوة البغايا أيضاً بمعنى من المغالبة والمنافسة، وكل ما يستطيع الدهاء أن يعملهُ فهو الذي عليّ أنا أن أعملهُ، فماذا أصنع وأنا أحب؟ وكيف أنجح وأنا أحب؟ ولكن النفس تجيئني على كل هذا بأن هذا كله بعيد عن المسألة، ما دام هو هو في المسألة.

قال الراوي :

وكانت كالذاهلة مما سمعتُ، ثم قالت : ألك شيطان في قلبي؟ فهذا كله هو الذي حدث في سبعة أيام.

قال "ح" : ولكن كيف يقع هذا الحب؟ وهبْكَ صُنفت تلك الرواية، ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام، فماذا كنت تُنطقها في وصف حبها وما اجتذبتها من رجل فاز بقلبها ولم يداورها، بعد مائة رجل كلهم داورها ولم يفز منهم أحد؟ أتكون في وجه هذا الرجل أنوار كتباشير الصبح تدل على النهار الكامن فيه؟

قالت هي : نعم نعم . بماذا كنت تنطقها؟
قلت : كنت أضع في لسانها هذا الكلام تجيب به عاذلة
تعذلها :

تقول : لا أدري كيف أحببته ، ولكن هذه الشخصية
البارزة منه جذبتني إليه ، وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مفعماً
بالمغناطيس مصدره ، ومعناه هو ، ولا شيء فيه إلا هو .
عرضته لي شخصيته ظاهراً لأن جواب شخصيته في ،
وأصبح في عيني كبيراً لأن جواب شخصيتي فيه ، ومن ذلك
صارت أفكارني نفسها تزيده كل يوم ظهوراً ، وتزيدني كل يوم
بَصراً ، وأعطاه حقّه في الكمال عندي حقّه في الحب مني ؛ وبتلك
الشخصية التي جوابها في نفسي ، أصبح ضرورة من ضرورات
نفسي .

قال الراوي :

ولما رأيته في جوي كنسيمة وعاصفته ، أردتها على قصتها
وشأنها ، فماذا قلت لها وماذا قالت؟
قلت لها : إن قلبي وقلبك يتجاليان^{٢٣} في هذه الساعة
ويتباكيان ؛ أتدرين ماذا يقول لك قلبي؟

^{٢٣} أي: يتكاشفان، ويجلو كلاهما للآخر ويوضح.

إنه ليقول عني : أعزز علي بأن تكوني ههنا ، وأن تتألف منك هذه القصة التي تبدأ بالوصمة وتنتهي بالاستخذاء ، فتنتلق المرأة في متالفها ومهاويها ليلبغ بها القدر ما هو بالغ ؛ وليس إلا الضرورة وسطوتها بها ، والإذلال ومهاتته لها ، والاجتماع وتهكمه عليها ، والابتذال واستعباده إياها ؛ ومهما يأت في القصة من معنى فليس فيها معنى الشرف ؛ ومهما يكن من موقف فليس فيها موقف الحياء ؛ ومهما يجر من كلام فليس فيها كلمة الزوجة ، وأعزز علي بأن أرى المصباح الجميل المشبوب الذي وُضع ليضيء ما حوله ، قد انقلب فجعل يُحرق ما حوله ؛ وكان يتلأأ ويتوقد ، فارتد يتسعر ويتضرم ويحني ما يتصل به ، وسقط بذلك سقطة حمراء .

أفتردين ماذا يقول لي قلبك ؟

إنه يقول عنك : يا بؤسنا من نساء ! لقد وضعنا وضعاً مقلوباً ، فلا تستقيم الإنسانية معنا أبداً ، وكل شيء منقلب لنا متنكر ؛ والشفقة علينا تنقلب من تلقاء نفسها تهكماً بنا ؛ فنبكي من شفقة بعض الناس ، كما نبكي من ازدراء بعض الناس . يا بؤسنا من نساء !

قالت : صدقتَ ، وكذلك تنقلب أسباب الحياة معنا
أسباباً للمرض والموت ؛ فاليقظة ليس لها عندنا النهار بل الليل ،
والصَّحْو لا يكون فينا بالوعي بل بالسُّكْر ، والراحة لا تكون لنا في
السكون والانفراد ، بل في الاجتماع والتبذل ؛ وماذا يردُّ على امرأة
من واجباتها السهر والسكر والعريضة ، والتبذل ، وتدريب الطباع
بالوقاحة ، وتَضْرِيَةِ النفس على الاستغواء ، والتصدي بالجمال
للكسب من رذائل الفساق وأمراضهم ، والتعرض لمعروفهم
بأساليب آخرها الهوان والمذلة ، واستماحتهم بأساليب أولها
الخداع والمكر ؟

إن حياة هذه هي واجباتها ، لا يكون البكاء والهم إلا من
طبيعة من يحياها ، وكثيراً ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طُرُقاً
تتهارب فيها معاني البكاء ؛ فإذا أثقلنا الهم وجَلَّ عن الضحك
وعجزنا عن تكلف السرور ، خَتَلْنَا العقل نفسه بالخمَر ؛ فما تسكر
المرأة منا للسكر أو النشوة ، بل للنسيان ، وللقدرية على المرح
والضحك ، ولإمداد محاسنها بالأخلاق الفاجرة ، من الطيش
والخلاعة والسفه وهَذْيَان الجمال الذي هو شعره البليغ ، عند بلغاء
الفساق .

قال الأستاذ " ح " : أهذا وحاضر الغادة منكن هو الشباب والصبي والجمال وإقبال العيش ، فكيف بها فيما تستقبل ؟
قالت : إن المستقبل هو أخوف ما نخافه على أنفسنا ،
وليس من امرأة في هذه الصناعة إلا وهي معدة لمستقبلها : إما نوعاً
من الانتحار ، وإما ضرباً من ضروب الاحتمال للذل والخسف ؛
وليس مستقبلنا هذا كمستقبل الثمار النضرة إذا بقيت بعد أوانها ،
فهو الأيام العفنة بطبيعة ما مضى ، بلى إن مستقبل المرأة البغي هو
عقاب الشر .

قال " ح " : هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات ؛ فالمرأة
منهن قد تتبرم بزوجها وتضجر وتغتم ، وتزعم أنها معذبة ؛
فتسخط الحياة ، وتندب نفسها ؛ ثم لا تعلم أنه عذاب واحد برجل
واحد ، تألفه ، فتعتاده ، فترزق من اعتياده الصبر عليه ، فيسكن
بهذا نفارها ؛ وتلك نعمة واجبها أن تحمد الله عليها ، ما دام في
النساء مثل الشهيديات ، تتعذب الواحدة منهن فنوناً من العذاب
بمائة رجل ، وبألف رجل ، وهم مع ذلك يبتلون روحها بعددهم
من الذنوب والآثام .

وقد تستثقل الزوجة واجباتها بين الزوج والنسل والدار، فتغتاظ وتشكو من هذه الرجرجة اليومية في الحياة؛ ثم لا تعلم أن نساء غيرها قد انقلبت بهن الحياة في مثل الخسف بالأرض.

وقد تجزع للمستقبل وتنسى أنها في أمان شرفها، ثم لا تعلم أن نساء يترقبن هذا الآتي كما يترقب المجرم غد الجريمة، من يوم فيه الشرطة والنيابة والمحكمة وما وراء هذا كله.

فقلت: وهناك حقيقة أخرى فيها العزاء كل العزاء للزوجات، وهي أن الزوجة امرأة شاعرة بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياح ذاتها.

والزوجة امرأة تجد الأشياء التي تتوزع حبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته، يفيض بالحب، ويستمد من الحب؛ والأخرى لا تجد في هذا شيئاً، فتقلب وحشية القلب، يفيض قلبها برذائل، ويستمد من رذائل؛ إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل.

والزوجة امرأة هي امرأة خالصة للإنسانية، أما الأخرى فمن امرأة ومن حيوان ومن مادة مهلكة.

وتمام السعادة أن النسل لا يكون طبيعياً مستقراً في قانونه إلا للزوجات وحدهن؛ فهو نعمتهن الكبرى، وثواب مستقبلهن

وماضيهن ، وبركتهن على الدنيا ؛ ومهما تكن الزوجة شقية
بزوجها ، فإن زوجها قد أولدها سعادتها ، وهذه وحدها مزية
ونعمة ؛ أما أولئك فليس لهن عاقبة ^{٢٤} ؛ إذ النسل قلب لحالتهن
كلها ؛ وهو غنى إنساني ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ؛ وهو
رحمة ، ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن . وقد
وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن ، حب
الرجل الجديد ، فكانت هذه نقمة أخرى .

قال " ح " : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن
الثاني بعد الأول ، أو الثالث بعد الثاني ، أو الرابع بعد الثالث ؟
قلت : ليس الجديد عليهن هو الواحد بعد الواحد إلى آخر
العدد ، ولكنه الرجل الذي يكون وحده بالعدد جميعاً ؛ إذ هو
عندهن يشبه الزوج في الاختصاص وفي شرف الحب ، فهو الحبيب
الشريف الذي تتعلقه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة ، ولكنه
من نقمة الطبيعة أن ممن وجدته منهن لا تجده إلا لتعاني ألم فقده .
يا عجباً ! كل شيء في الحياة يلقي شيئاً من الهم أو النكد
أو البؤس على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعة كلها ترجمهن
بالحجارة .

^{٢٤} يقال: ليس له عاقبة، أي: ليس له نسل وعقب.

قالت هي : وليست الحجاره هي الحجاره فقط ، بل منها
الفاظ تُرجم بها المسكينه كألفاظك هذه ، وكتسمية الناس لها
" بالساقطة " ؛ فهذه الكلمه وحدها صخره لا حجر .

ثم تنهدت وقالت : من عسى يعرف خطر الأسرة والنسل
والفضيلة كما تعرفها المرأة التي فقدتها؟ إننا نحسها بطبيعة المرأة ،
ثم بالحنين إليها ، ثم بالحسرة على فقدانها ، ثم برؤيتها في غيرنا ؛
نعرفها أربعة أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجة نوعاً واحداً ،
ولكن هل ينصفنا الرجال وهم يتدافعوننا؟ هل يرضون أن يتزوجوا
منا؟

قلت : ولكن الأسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحمرة
خديها ، بل على أخلاقها وطباعها ؛ فهذا هو السبب في بقاء المرأة
الساقطة حيث ارتطمت ؛ وهي متى سقطت كان أول أعدائها
قانون النسل .

ومن ثم كانت الزلة الأولى ممتدة متسحبة إلى الآخر ؛ إذ
الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي ، أما في اعتبار غيرها فهي
تاريخ للنسل ، إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب كله فلا يوثق
به .

وهذه الزلة الأولى هي بدء الانهيار في طباع رقيقة متداخلة متساندة، لا يقيمهما إلا تماسكها جملة؛ وما لم يتماسك إلا بجملته فأول السقوط فيه هو استمرار السقوط فيه؛ ولهذا لا يعرف الناس جريمة واحدة تعد سلسلة جرائم لا تنتهي، إلا سقطت المرأة؛ فهي جريمة مجنونة كالإعصار الثائر يلفها لفاً؛ إذا تناول المرأة في ذاتها، وترجع على أهلها وذويها، وترعى إلى مستقبلها ونسلها؛ فيهلكها الناس هي وسائر أهلها من جاءت منهم ومن جاءوا منها.

والمرأة التي لا يحميها الشرف لا يحميها شيء، وكل شريفة تعرف أن لها حياتين إحداها العفة، وكما تدافع عن حياتها الهلاك، تدافع السقوط عن عفتها؛ إذ هو هلاك حقيقتها الاجتماعية؛ وكل عاقلة تعرف أن لها عقليْن تحتمي بأحدهما من نزوات الآخر، وما عقلها الثاني إلا شرف عرضها.

قال الأستاذ "ح": إن هذه هي الحقيقة، فما تسامح الرجال في شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل، فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه.

قلت: وهذا هو معنى الحديث: "عفوا تعف نساؤكم" فإن عفاف المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها، ما لم تنهيها الوسائل

والأحوال التي تعين نفسها على ذلك ؛ وأهم وسائلها وأقواها وأعظمها ، تشدد الرجال في قانون العرض والشرف .

فإذا تراخى الرجال ضعفت الوسائل ، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعف تنبثق حرية المرأة متوجهة بالمرأة إلى الخير أو الشر ، على ما تكون أحوالها وأسبابها في الحياة . وهذه الحرية في المدنية الأوروبية قد عودت الرجال أن يغضوا ويتسمحوا ، فتهافت النساء عندهم ، تنال كل منهن حكم قلبها ويخضع الرجل .

على أن هذا الذي يسميه القوم حرية المرأة ، ليس حرية إلا في التسمية ، أما في المعنى فهو كما ترى :

إما شرود المرأة في التماس الرزق حين لم تجد الزوج الذي يعولها أو يكفيها ويقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثل هذه هي حرة حرية النكد في عيشها ؛ وليس بها الحرية ، بل هي مستعبدة للعمل شر ما تستعبد امرأة .

وإما طلاق المرأة في عبثاتها وشهواتها ، مستجيبة بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع في الرجال ، بمقدار ما يشتره المال ، أو تعين عليه القوة ، أو يسوغه الطيش ، أو يجلبه التهلك ، أو تدعو إليه الفنون ؛ فمثل هذه هي حرة حرية سقوطها ؛ وما بها الحرية ، بل يستعبد لها التمتع .

والثالثة حرية المرأة في انسلاخها من الدين وفضائله ، فإن هذه المدنية قد نسخت حرام الأديان وحلالها بحرام قانوني وحلال قانوني ، فلا مَسْقَطَة للمرأة ولا غَضاضَة عليها قانونًا . . . فيما كان يُعدّ من قبلُ خزيًا أقبح الخزي وعارًا أشد العار ؛ فمثل هذه هي حرة حرية فسادها ، وليس بها الحرية ، ولكن تستعبدُها الفوضى .

والرابعة غَطْرَسَة المرأة المتعلمة ، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معًا ؛ فترى أن الرجل لم يبلغ بعد أن يكون الزوج الناعم كقفاز الحرير في يدها ، ولا الزوج المؤنث الذي يقول لها : نحن امرأتان ، فهي من أجل ذلك مطلقة مخللة كيلا يكون عليها سلطان ولا إمرة ؛ فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزيفها ، وهي مستعبدة لهوسها وشدوذها وضلالتها .

حرية المرأة في هذه المدنية أولّها ما شئت من أوصاف وأسماء ، ولكن آخرها دائماً إما ضياع المرأة ، وإما فساد المرأة . والدليل على التواء الطبيعة في المدنية ، استواء الطبيعة في البادية ؛ فالرجال هناك قوَّامون على النساء ، والنساء بهذا قوَّامات على أنفسهن ؛ إذ ينتقمون للمنكر انتقامًا يفور دمًا ؛ وبهذه الوحشية يقررون شرف العرض في الطبيعة الإنسانية ، ويجعلونه

فيها كالغريزة، فيحاجزون بين الرجال والنساء أول شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمة من حوله .

قال الراوي :

وغطت وجهها بيديها ، وقالت : إنك لا تزال ترجم بالحجارة ، إن فيك متوحشاً .

قلت : بل متوحشة .

إنك أنت قد تكلمت فيّ ، فجمالك الذي يضع الإنسان في ساعة مجنونة ليمتعه بطيشها ، قد وضعنا نحن في ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلت : جمالك ، فقد قلت : وحيك ، إذ لا جمال عندي إلا ما فيه وحي .

أما قلت : إنك لو خُيرت في وجودك لما اخترت إلا أن تكوني رجلاً نابغة يكتب ويفكر ويتلقى الوحي من الوجوه الجميلة؟

فدقت صدرها بيدها وقالت : أنا؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفكرت لحظة وقالت : إذا كنت أنت تزعم أنني قلته ، فأظن أنني قلته .

قال " ح " : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هي شيئاً من هذا؟ أربع غلطات شنيعة من فساد الذوق .

قالت : بل قل : أربع غلطات جميلة من فن الذوق ؛ إن الرجل الظريف القوي الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدث المرأة .

قال " ح " : لتضحك منه ؟
قالت : لا ، بل لتضحك له .
قلتُ : فلي إليك رجاء .
قالت : إن صوتك يأمر ، فقل .
فماذا قلت لها وماذا قالت ؟

قلت لها : إن كلمة الكفر لا تكون كافرة إذا أكره عليها من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، وكلمة الفجور أهون منها وأخف وزناً وشأناً ، ثم لا تكون إلا فاجرة أبداً ، إذ لا إكراه على هذه الدعارة إكراهاً لا خيار فيه . وما أول الدعارة إلا أن تمد المرأة طرفها من غير حياء ، كما يمد اللص يده من غير أمانة .

ومن اضطرَّ إلى الكفر استطاع أن يجنب محراب المسجد في أعماقه فيصلي ثمة ، ولكن الفجور لا يترك في النفس موضعاً لدين ولا إيمان ؛ إذ هو دائب في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلا ضابط ، فيجعل المرأة تحيا بعيدة عن ضميرها ؛ فيضعف منها

أول ما يضعف آثار الآداب والأخلاق ، فيهلك فيها أول ما يهلك إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورها بمجد هذا المعنى .

فإذا انتهت المرأة إلى هذا ، لم يكن لها مبدأ ولا عقيدة إلا أن على غيرها أن يتحمل عواقب أعمالها ، وهذه بعينها هي حالة المجنون جنون عقله ؛ أفلا تكون المرأة حينئذ مجنونة جنون جسمها ؟ فساءها ذلك وبان فيها ، ولكنها أمسكت على ما في نفسها ؛ والمرأة من هؤلاء لا يمشي أمرها في الناس ولا يتصل عيشها ، إلا إذا كثرت طباعها كثرة ثيابها ، فهي تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل ؛ فينبعث منها الغضب وهي في أنعم الرضى ، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ ، كأن لم تغضب ولم ترض لأنها ليست لأحد ولا لنفسها .

وتُسائر غضبها ثم قالت : كأن كلامك أن لك رجاء إلي ، فأنا أحب ، أحب أن أعلم .

قلت : وأنا كذلك أحب ، أحب أن أعلم .

فضحكت وسُرِّي عنها ، وثبتت على شفيتها ابتسامة لو جاء ملك من السماء ليضع في ثغرها ابتسامة أجمل منها ، لما وجد أجمل منها .

ثم قالت : تحب أن تعلم ماذا؟

قلت : أحب أن أعلم منك قصة هذه الحياة ما كان أولها؟
قالت : لقد قضيتَ من حكمك فينا ، ولكنك أخطأت ،
فلكل ليل مظلم كوكبه ؛ والكوكب الوقاد المعلق فوق ليل المرأة منا
هو إيمانها ؛ نعم إنه ليس كإيمان الناس في واجباته ، لكنه كإيمان
الناس في تعزيتة ، والله ربنا وربكم !

قلت : لو أطيع الله بمعصيته لاستقام لك هذا ، وإنما أن
تصفي الإيمان الأول الذي كان عملاً ، فصار ذكرى ، فصارت
الذكرى أملاً ، فظننت الأمل هو الإيمان .

قالت : ثم إننا جميعاً مكرهات على هذه الحياة ، فما نحن
إلا صرعى المصادمة بين الإرادة الإنسانية وبين القدر .

قلت : ولكن لم تهفُ واحدة منكن في غلطتها الأولى وهي
مستكرهة على غلطة ؛ بل هي راغبة في لذة ، أو مبادرة لشهوة ، أو
طالبة لمنفعة .

قالت : هذا أحد الوجهين ؛ أما الآخر فالتماس الرزق
وصلاح العيش ؛ فالرجل مع الرجل رأس ماله قوته ، وعمله
بقوته ؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثتها وعمل أنوثتها .
وفي الوجه الأول وجه اللذة والمنفعة تحتال كلمة الفجور على
المرأة بكلمات رقيقة ساحرة ، منها الحب والزواج والسعادة ،

فتستسلم المرأة مضطرة ليقع شيء من هذا . وفي الوجه الثاني -وجه
الرزق والعيش- تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة
المستضعفة بكلمات رهيبة قاتلة، منها الجوع والفقر والشقاء ،
فتسقط المرأة مضطرة خيفة أن يقع شيء من هذا؛ وفي أحد
الوجهين يكون الرجل هو الفاجر لفساد آدابه، وفي الوجه الآخر
يكون الفاجر هو المجتمع لفساد مبادئه .

قلت : أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه المدينة ، لم
تقع أبداً إلا في موضع غلطة من غلطات القوانين ؛ وآفة هذه
القوانين أنها لم تُسن لمنع الجريمة أن تقع ، ولكن للعقاب عليها بعد
وقوعها ، وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها ، وتركها لقانون
الغريزة الوحشي في هؤلاء الوحوش الأدميين ، الذين يأخذهم
السُّعَار من هذه الرائحة التي لا يعرفونها إلا في اثنين : المرأة الجميلة
والذهب . فما ألجأت المرأة حاجتها أو فقرها إلى أحدهم ورأى
عليها جمالاً ، إلا ضربه ذلك السعار ؛ فإن استخفَّتْ بنزواته
وتعسرت عليه ، طردها إلى الموت ، ومنعها أن تعيش من قبله ؛ وإن
صلحت له وتيسرت ، آواها هي وطردها شرفها .

وبخلاف ذلك الدين ؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها، فهو في أمر المرأة يُلزم الرجل واجبات، ويلزم المجتمع واجبات غيرها، ويلزم الحكومة واجبات أخرى :

أما الرجل فينبغي له أن يتزوج، ويتحصن، ويغار على المرأة، ويعمل لها؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدب، ويستقيم، ويعين الفرد على واجبات الفضيلة، ويتدامج ويشد بعضه بعضاً؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمي المرأة، فتعاقب على إسقاطها عقاب الموت والألم والتشهير؛ لتقيم من الثلاثة حُرّاً ساجداً، من لا يخش الله خشيتها؛ فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضع غلطة تسقط فيه المرأة.

قال الأستاذ "ح" : صدقت، فالحقيقة التي لا مرأى فيها، أن فكرة الفجور فكرة قانونية؛ وما دام القانون هو أباحها بشروط، فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط؛ ومن هذا التقرير يُقدم عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان؛ ومن ثم تأتي الجراءة على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون، ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطة بآخر معانيها وأقبح معانيها.

وتقرير سيادة المرأة في الاجتماع الأوروبي، وتقديمها على الرجال، والتأدب معها؛ كل ذلك يجعل جراءة السفهاء عليها

جراءة متأدبة، حتى كأن المتحكِّك منهم في امرأة يقول لها: من فضلك كوني ساقطة، أما هنا فجراءة السفهاء جراءة ووقاحة معاً، وذلك هو سرها.

القانون كأنما يقول للرجال: احتالوا على رضى النساء، فإن رضىن الجريمة فلا جريمة؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براعة الرجل الفاسق إنما هي في الحيلة على المرأة وإيقاظ الفطرة في نفسها، بأساليب من المَلَق والرياء والمكر، تتركها عاجزة لا تملك إلا أن تدعن وترضى؛ وبهذا ينصرف كل فاجر إلى إبداع هذه الأساليب التي تُطلق تلك الفطرة من حيائها، وتُخرجها من عفتها، "تطبيقاً للقانون".

ولا سيادة في اجتماعنا للمرأة، ولكن القانون جعلها سيادة نفسها، وجعلها فوق الآداب كلها، وفوق عقوبة القانون نفسه إذا رضيت؛ إذا رضيت ماذا؟

قلت: فإذا كان القانون هنا في مسألتنا هذه يعدل بالظلم، ويحمي الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة؛ فهو إنما يُفسد الدين، ويصرف الناس عن خوف الله إلى خوف ما يخاف من الحكومة وحدها؛ وبهذا لا يكون عمله إلا في تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة، ويدع الباطن يُسر ما شاء من خبثه وحيلته وفساده؛ فكأنه

ليس قانوناً إلا لتنظيم النفاق وإحكام الخديعة ؛ فلا جرم كان قانوناً لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها ؛ فإذا أخذت المرأة ملاينة ورضى فهذا فجور قانوني . وإن كانت الملاينة هي عمل الحيلة والتدبير ، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكر ، وإن ضاعت المرأة وسقطت ، وذهب شرفها باطلاً ، وألحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً . أما إذا أخذت المرأة مكارهة وغضباً ، فهذه هي الجريمة في القانون ؛ ويسمى القانون جريمة الاعتداء على العرض ، وهي بأن تسمى جريمة العجز عن إرضاء المرأة ، أحق وأولى .

على أن المسكينة لم تؤخذ في الحالتين إلا غضباً ، ولكن اختلفت طريقة الرجل الغاصب ؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأد بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة ، هي إخراجها من شرفها ، وحرمانها حقوق إنسانيتها في الأسرة ، وطردها وراء حدود الاعتبار الاجتماعي ، وتركها ثمة مُخلّاة لمجاري أمورها ، فلا يتيسر لها العيش إلا من مثل الرجل الفاجر ، فلا تكون لها بيئة إلا من أمثاله وأمثالها ، كما يجتمع في الموضع الواحد أهل المصير الواحد ، على طريقة القطيع في المجزرة .

فقالت هي : الحق أن هذه الجريمة أولها الحب ؛ وهي لا تقع إلا من بين نقيضين يجتمعان في المرأة معاً : كبر حبها إلى ما يفوت العقل ، وصغر عقلها إلى ما ينزل عن الحب . والمرأة تظل هادئة ساكنة رزينة ، حتى تصادفها اللحاظ النارية من العين المقدرة لها ، فلا يكون إلا أن تملأها ناراً ولهباً ؛ ولتكن المرأة من هي كائنة ، فإنها حينئذ كمستودع البارود ، يَهْوِلُ عظمه وكبره ، وهو لا شيء إذا اتصلت به تلك الشرارة المهاجمة .

وليست حراسة المرأة شيئاً يؤبه به أو يعتد به أو يسمى حراسة ، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار ؛ فيستوي في وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة ، والفرع من الحريق الأعظم ؛ فيحتاج لاثنيهما بوسائل واحدة في قدر واحد ، واعتبار واحد .

وإذا تُركت المرأة لنفسها تحرسها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها ، فقد تُرك لنفسه مستودع البارود تحرسه جدران الأربعة القوية .

والرجال يعلمون أن للمرأة مظاهر طبيعية ، من الخيال والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهات بالعفة ؛ لكن هؤلاء الرجال أنفسهم يعلمون كذلك ، أن هذا الظاهر مخلوق مع المرأة كجلد

جسمها الناعم، وأن تحته أشياء غير هذه تعمل عملها وتصنع البارود النسائي الذي سينفجر .

قلت : إذا كان هذا ، فقبح الله هذه الحرية التي يريدونها للمرأة . هل تعيش المرأة إلا في انتظار الكلمة التي تحكمها بلطف ، وفي انتظار صاحب هذه الكلمة ؟

قالت : إنه هذا حق لا ريب فيه ، وأوسع النساء حرية أضيعهن في الناس ؛ وهل كالومس في حريتها في نفسها ؟ ولكن يا شؤمها على الدنيا ! إنها هي بعينها كما قلت أنت حرية المخلوق الذي يُترك حراً كالشريد ، لتجرب فيه الحياة تجاربها . وماذا في يد المرأة من حرية هي حرية القدر فيها ؟

قلت : ولهذا لا أرجع عن رأيي أبداً ، وهو أنه لا حرية للمرأة في أمة من الأمم ، إلا إذا شعر كل رجل في هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها ، بحيث لو أهينت واحدة ثار الكل فاستفادوا لها ، كأن كرامات الرجال أجمعين قد أهينت في هذه الواحدة ؛ يومئذ تصبح المرأة حرة لا بحريتها هي ، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال .

فضحكت وقالت : " يومئذ " ! هذا اسم زمان أو اسم

مكان ؟

قال الأستاذ " ح " : ولكننا أبعدنا عن قصة هذه الحياة ، ما كان أولها؟ قالت : إن الشبان والرجال علم يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه ؛ ويجب أن يقر في ذهن كل فتاة ، أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ، ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كالمحل الذي تبتاع منه منديلاً من الحرير أو زجاجة من العطر ، فيه إكرامها وخدمتها .

وأساس الفضيلة في الأنوثة الحياء ؛ فيجب أن تعلم الفتاة أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجّمت ، أي : توقّحت ، أي : تبذّلت ، استوى عندها أن تذهب يمينا أو تذهب شمالاً ، وتهيات لكل منهما ولأيهما اتفق ؛ وصاحبات اليمين في كَنَف الزوج وظلّ الأسرة وشرف الحياة ، وصاحبات الشمال ما صاحبات الشمال .

قلت : هذا هذا ، إنه الحياء ، الحياء لا غيره ؛ فهل هو إلا وسيلة أعانت الطبيعة بها المرأة لتسمو على غريزتها متى وجب أن تسمو ، فلا تلقى رجلاً إلا وفي دمها حارس لا يغفل . وهل هو إلا سلب جمعته الطبيعة إلى ذلك الإيجاب الذي لو انطلق وحده في نفس المرأة لاندفعت في التبرج والإغراء ، وعرض أسرار أنوثتها في المعرض العام؟

قالت : ذاك أردت ، فكل ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق ، فلا تعدنه من فرط الجمال ، بل من قلة الحياء .

واعلم أن المرأة لا تخضع حق الخضوع في نفسها إلا لشيئين : حياؤها و غريزتها .

قلت : يا عجباً ! هذا أدق تفسير لقول تلك المرأة العربية : " تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها " . فإن اختضعت المرأة للحياء كفّت غريزتها .

قالت : . . . وجعلها الحياء صادقة في نفسها وفي ضميرها ، فكانت هي المرأة الحقيقية الجديرة بالزوج والنسل وتوريث الأخلاق الكريمة وحفظها للإنسانية .

قلتُ : ومن هذا يكون الإسراف في الأنوثة والتبرج أمام الرجال كذباً من ضمير المرأة .

قالت : ومن أخلاقها أيضاً ؛ ألا ترى أن أشد الإسراف في هذه الأنوثة وفي هذا التبرج لا يكون إلا في المرأة العامة ؟

قلت : والمرأة العامة امرأة تجارية القلب . فكأن المسرفة في أنوثتها وتبرجها ، هذه سبيلها ، فهي لا تؤمن على نفسها .

قالت : قد تؤمن على نفسها ، ولكنها أبدأ مؤسس الفكر في الرجال ، فيوشك ألا تؤمن ؛ وهي رهن بأحوالها وبما يقع لها ، فقد يتقدم إليها الجريء وقد لا يتقدم ، ولكنها بذلك كأنها معلنة عن نفسها أنها " مستعدة ألا تؤمن " .

قال " ح " : لكن يقال : إن المرأة قد تتبرج وتتأنث لترى نفسها جميلة فاتنة ، فيعجبها حسننها ، فيسرّها إعجابها .

قالت : هذا كالقول : إن أستاذ الرقص الذي رأيته هنا ، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجل إلى راقصة تتأوّد وتهتز وتترجّج . إن هذا الرّقّاص فيه الحركة الفنية كما هي حركة ليس غير ؛ فهو كالميزان أو القياس أو أي آلات الضبط ؛ أما فتنة الحركة وسحرها ومعناها من المرأة الفاتنة في وهم الرجل المفتون بها ؛ فهذا كله لا يكون منه شيء في أستاذ الرقص ؛ وإن كان أستاذ الرقص .

إن أجمل امرأة تبصق بفمها على وجهها في المرأة ، إذا محي الرجل من ذهنها ، أو لم يطل بعينه من وراء عينيها ، أو لم تكن ممتلئة الحواس به ، أو بإعجابه ، أو بالرغبة في إعجابه ؛ فمهما يكن من جمال هذه فإنها لا ترى وجهها حينئذ إلا كالدينا إذا خلت من العدل .

قلتُ: ولكننا أبعدنا عن " قصة هذه الحياة ما كان أولها؟ " .

قالت: سأفعل ذلك لموضعك عندي: إن قصتي في الفصل الأول منها هي قصة جمالي؛ وفي الفصل الثاني هي قصة مرض العذراء؛ وفي الفصل الثالث هي قصة الغفلة والتهاون في الحراسة؛ وفي الفصل الرابع هي قصة الخداع الطبيعة النسوية المبنية على الرقة وإيجاد الحب وتلقيه والرغبة في تنويعه أنواعاً للأهل والزوج والولد؛ ثم في الفصل الخامس هي قصة لؤم الرجل: كان محباً شريفاً يقسم بالله جهد أيمانه، فإذا هو كالمزور والمحتال والللص وأمثالهم ممن لا يُعرفون إلا بعد وقوع الجريمة .

ثم سكتتْ هنيئَةً، فكان سكوتها يتم كلامها .

وقال " ح " : فما هو مرض العذراء الذي كان منه الفصل

الثاني في الرواية؟

قالت: كل عذراء فهي مريضة إلى أن تتزوج؛ فيجب أن يُعلّمها أهلها أن العلاج قد يكون مسموماً؛ وينبغي أن يحُوطوها بقريب من العناية التي يحاط المريض بها، فلا يُجعل ما حوله إلا ملائماً له، ويُمْنَع أشياء وإن أحبها ورغب فيها، ويُكره على أشياء وإن عافها وصدَف عنها .

قال " ح " : فيكون القانون الاجتماعي تصديقاً للقانون الديني من أن الذكورة هي في نفسها عداوة للأنوثة ، وأن كل رجل ليس ذا رَحِمٍ مَحْرَمٌ^{٢٥} يجب أن يكون مرفوضاً إلا في الحالة الواحدة المشروعة ، وهي الزواج .

قالت : فتكون المشكلة الاجتماعية هي : من ذا يُرغم الذكورة على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضع الأنوثة؟ قال : ولكن إذا كان سقوط الفتاة هو جناية " الزواج المزور " ، فما عسى أن يكون سقوط بعض المتزوجات؟ قالت : هو جناية " الزواج المنقَح " . . . تريد أنفسهن الخبيثة تنقيح الزوج ؛ والمومسات أشرف منهن ، إذ لا يعتدين على حق ولا يَخُنُّ أمانة .

ورفَّ على وجهها في هذه اللحظة شعاع من الشمس كان على جبينها كصفاء اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كإشراق الياقوت ؛ ورأتهني أتأمله ، فقالت : أنا متتشية بحظي في هذه الساعات ؛ وهذا الشعاع إنما جاء يختم نورها .

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيقي من حياتها . . . وهو رجل يتحظاهها ؛ كلما

^{٢٥} يقال: ذو رحم محرم، أي: لا يحل للمرأة، كأبيها وأخيها ... إلخ.

أخذته عينها ابتسمت له ابتساماً من الذل ، لو لم تجعله هي ابتساماً
لكان دموعاً ؛ ثم وقفت وما تتماسك من الهم ، كأنها تمثال
" للجمال البائس " ؛ ثم حيّت وسلّمت وودّعت ؛ وبعد " واوات "
أخرى مشت ساكنة ، ومرآها يضح ويبيكي .

فوداعاً يا أوهام الذكاء التي تلمس الحقائق بقوة خالقة
تزيد فيها !

ووداعاً يا أحلام الفكر التي تضع مع كل شيء شيئاً غيره !
ووداعاً يا حبها .

السمكة

حدث أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي قال : حصّلت في مدينة " بلخ " سنة ثلاثين ومائتين ، وعالمها يومئذ شيخ خراسان أبو عبد الرحمن^{٢٦} الزاهد صاحب المواعظ والحكم ؛ وهو رجل قلبه من وراء لسانه ، ونفسه من وراء قلبه ، والفلك الأعلى من وراء نفسه ، كأنه يلقي عليه فيما زعموا .

وكان يقال له عندهم : " لقمان هذه الأمة " ؛ لما يعجبهم من حكمه في الزهد والموعظة ، وقد حضرت مجالسه وحفظت من كلامه شيئاً كثيراً ، كقوله : من دخل في مذهبنا هذا " يعني الطريق " فليجعل على نفسه أربع خصال من الموت : موت أبيض ، وموت أسود ، وموت أحمر ، وموت أخضر ؛ فالموت الأبيض الجوع ، والموت الأسود احتمال الأذى ، والموت الأحمر مخالفة النفس ، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض " يعني لبس المرقعة والخلق من الثياب " .

^{٢٦} هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها ، توفي سنة ٢٣٧ للهجرة .

وقلت يوما لصاحبه وتلميذه "أبي تراب" وجاريتيه في تأويل هذا الكلام: قد فهمنا وجه التسمية في الموت الأخضر ما دامت المرقعة خضراء؛ فما الوجه في الأبيض والأسود والأحمر؟ فجاء بقول لم أرضه، وليس معه دليل، ثم قال: فما عندك أنت؟ قلت: أما الجوع فيميت النفس عن شهواتها ويتركها بيضاء نقية، فذلك الموت الأبيض؛ وأما احتمال الأذى فهو احتمال سواد الوجه عند الناس، فهو الموت الأسود؛ وأما مخالفة النفس فهي كإضرار الناس فيها، فذاك الموت الأحمر.

قال أحمد بن مسكين: وكنت ذات نهار في مسجد "بلخ" والناس متوافرون ينتظرون "لقمان الأمة" ليسمعوه، وشغله بعض الأمر فراث عليهم، فقالوا: من يعظنا إلى أن يجيء الشيخ؟ فالتفت أبو تراب وقال: أنت رأيت الإمام أحمد بن حنبل، ورأيت بشرا الحافي وفلانا وفلاناً، فقم فحدث الناس عنهم، فإنما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوة. ثم أخذ بيدي إلى الأسطوانة التي يجلس إليها إمام خراسان فأجلسني ثمة وقعد بين يدي.

وتناولت الأعناق، ورماني الناس بأبصارهم، وقالوا: البغدادي! البغدادي! وكأنما ضوعفت عندهم بمجلسي مرة وبنسبتي مرة أخرى، فقلت في نفسي: والله ما في الموت الأحمر

والأخضر ولا الأسود موعظة ، ولو لبس عزرائيل قوس قزح
لأفسد شعر هذه الألوان معناه ، وإنما يجب أن يكون كما يجب أن
يكون ؛ ولا موعظة في كلام لم يمتلئ من نفس قائله ، ليكون عملا
فيتحول في النفوس الأخرى عملا ولا يبقى كلاما ؛ وإنه ليس
الوعظ تأليف القول للسامع يسمعه ، لكنه تأليف النفس لنفس
أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قرابة بين النفسين ،
حتى كأن الدم المتجاذب يجري فيه ويدور في ألفاظه .

وكنت رأيت رؤيا " ببلخ " تتصل بقصة قائمة في بغداد ،
فقصصتها عليهم ، فكانت القصة كما حكيتها : أني امتحنت
بالفقر في سنة تسع عشرة ومائتين ؛ وانحسمت مادتي وقحط منزلي
قحطا شديداً جمع علي الحاجة والضرر والمسكنة ، فلو انكمشت
الصحراء المجذبة فصغرت ثم صغرت حتى ترجع أذرعاً في أذرع ،
لكانت هي داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد .

وجاء يوم صحراوي كأنما طلعت شمس من بين الرمل لا
من بين السحب ، ومرت الشمس على دراي في بغداد مرورها على
الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شيء
يسيغه حلق آدمي ، إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها
وأجذاعها ، ولي امرأة ولي منها طفل صغير ، وقد طوينا على جوع

يخسف بالجوف خسفا كما تهبط الأرض ، فتمنيت حينئذ لو كنا
جرذانا فنقرض الخشب ! وكان جوع الصبي يزيد المرأة ألما إلى
جوعها ، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطون خاوية .

فقلت في نفسي : إذا لم تأكل الخشب والحجارة فلنأكل
بشمها . وجمعت نيتي على بيع الدار والتحول عنها ، وإن كان
خروجي منه كالخروج من جلدي : لا يسمى إلا سلخا وموتًا ؛
وبت ليلتي وأنا كالمثخن حمل من معركة ؛ فما يتقلب إلا على
جراح تعمل فيه عمل السيوف والأسنة التي عملت فيها .

ثم خرجت بغلس لصلاة الصبح ، والمسجد يكون في
الأرض ولكن السماء تكون فيه ، فرأيتني عند نفسي كأني خرجت
من الأرض ساعة . ولما قضيت الصلاة رفع الناس أكفهم يدعون
الله " تعالى " ، وجرى لسانى بهذا الدعاء : " اللهم بك أعوذ أن
يكون فقري في ديني ، أسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك ،
وأسألك بركة الرضا بقضائك ، وأسألك القوة على الطاعة والرضا
يا أرحم الراحمين " .

ثم جلست أتأمل شأني ، وأطلت الجلوس في المسجد كأني
لم أعد من أهل الزمن فلا تجري علي أحكامه ، حتى إذا ارتفع
الضحى وابيضت الشمس جاءت حقيقة الحياة ، فخرجت أتسبب

لبيع الدار، وانبعثت وما أدري أين أذهب، فما سرت غير بعيد حتى لقيني "أبو نصر الصياد" وكنت أعرفه قديماً، فقلت: يا أبا نصر! أنا على بيع الدار؛ فقد ساءت الحال وأحوجت الخصاصة، فأقرضني شيئاً يمسكني على يومي هذا بالقوام من العيش حتى أبيع الدار وأوفيك.

فقال: يا سيدي! خذ هذا المنديل إلى عيالك، وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل. ثم ناولني منديلاً فيه رقاقتان بينهما حلوى، وقال: إنهما والله بركة الشيخ.

قلت: وما الشيخ وما القصة؟

قال: وقفت أمس على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة، فمر بي أبو نصر بشر الحافي فقال: مالي أراك في هذا الوقت؟ قلت: ما في البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع. فقال: الله المستعان! احمل شبكتك وتعال إلى الخندق؛ فحملتها وذهبت معه، فلما انتهينا إلى الخندق قال لي: توضاً وصل ركعتين. ففعلت، فقال: سم الله -تعالى- وألق الشبكة. فسميت وألقيتها، فوقع فيها شيء ثقیل، فجعلت أجره فشق علي؛ فقلت له: ساعدني فإنني أخاف أن تنقطع الشبكة، فجاء وجرها معي، فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلاً لها سمنا

وعظما وفراهة . فقال : خذها وبعها واشتر بئمنها ما يصلح عيالك . فحملتها فاستقبلني رجل اشتراها ، فابتعت لأهلي ما يحتاجون إليه ، فلما أكلت وأكلوا ذكرت الشيخ فقلت أهدي له شيئاً ، فأخذت هاتين الرقاقتين وجعلت بينهما هذه الحلوى ، وأتيت إليه فطرقت الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك في الدهليز وادخل . فدخلت وحدثته بما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إني هيات للبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلت ومعني رقاقتان فيهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ! اذهب كله أن وعيالك .

قال أحمد بن مسكين : وكنت من الجوع بحيث لو أصبت رغيفاً لحسبته مائدة أنزلت من السماء ، ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا ، كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة ؛ وطفقت أرددها لنفسي وأتأمل ما تفتق الشهوات على الناس ، فأيقنت أن البلاء إنما يصيبنا من أننا نفسر الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة ، فإذا استقر في أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به في النفس كل معانيه من المعاصي والذنوب ، وأخذت شياطين هذه المعاني تحوم على

قلوبنا، فنصبح مهينين لهذه الشياطين، عاملين لها، ثم عاملين معها، فتدخلنا مداخل السوء في هذه الحياة، وتقحمنا في الورطة بعد الورطة، وفي الهلكة بعد الهلكة.

وما هذه الشياطين إلا كالذباب والبعوض والهوام، ولا تحوم إلا على رائحة تجذبها، فإن لم تجد في النفس ما تجتمع عليه، تفرقت ولم تجتمع، وإذا ألت الواحدة منها بعد الواحدة لم تثبت. فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التي أفست علينا رؤية الدنيا كما خلقت. لكان للدنيا في أنفسنا شكل آخر أحسن وأجمل من شكلها، ولكانت لنا أعمال أخرى أحسن وأظهر من أعمالنا.

فالشيخ لم يكن في نفسه معنى لكلمة "التلذذ" وبطرده من نفسه هذا اللفظ الواحد، طرد معاني الشر كلها، وصلاح له دينه، وخلصت نفسه للخير ومعاني الخير. ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأة يعشقها، لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع، ما فيه إلا المرأة وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها.

وقد كنت سمعت في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث: "لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات". فما فهمت -والله- معناه إلا من كلمة الشيخ في السمكة، وقد علمنيها هذا الصياد العامي؛ فالشياطين

تنجذب إلى المعاني ، والمعاني يوجد لها اللفظ المستقر في القلب
استقرار غرض أو شهوة أو طمع ؛ فإذا خلا القلب من هذه
المعاني ؛ فقد أمن منازعتها له وشغلها إياه ، فيصبح فوقها لا بينها ؛
ومتى صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يعميه
ويعترض نظره إلى الحقائق ، انكشفت له هذه الحقائق فانكشف له
الملكوت ؛ فإذا وقع بعد في واحدة من اللذات ولو " كالرقاقتين
والحلوى " ، استعلت الأشياء عليه فحجبته ، وعاد بينها أو تحتها ،
وعمي عمى اللذة ؛ والحجاب على البصر كأنه تعليق العمى على
البصر .

وكنت لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد
ضرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غشي عليه فلم يتحول عن
رأيه ؛ فعلمت الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل من نفسه
للضرب معنى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي ؛
ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لجزع وتحول ، ولو ضرب
ضرب الإنسان لتألم وتغير ؛ ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنة
وبقاء الدين ، وأنه هو الأمة كلها لا أحمد بن حنبل ، فلو تحول
لتحول الناس ، ولو ابتدع لابتدعوا ؛ فكان صبره صبر أمة كاملة لا
صبر رجل فرد ، وكان يضرب بالسياط ونفسه فوق معنى

الضرب ، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئاً ؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه ، وكان الرجل هو الفكر ليس غير .

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل ، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتمنوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا ؛ فهم يزرعون في الأمم زرعاً بيد الله ، ولا يملك الزرع غير طبيعته ، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح : أثمري غير التفاح .

قال أحمد بن مسكين : وأخذت الرقاقتين وأنا أقول في نفسي : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هوانها على الله أن الإنسان فيها يلبس وجهه ما يلبس نعله . فلو أن إنسان كانت له نظرة ملائكية ثم اعترض الخلق ينظر في وجوههم . لرأى عليها وحولاً وأقذاراً كالتي في نعالهم أو أقدر أو أقبح ، ولعله كان لا يرى أجمل الوجوه التي تستهيم الناس وتتصباها من الرجال والنساء ، إلا كالأحذية العتيقة .

ولكنني أحسست أن في هاتين الرقاقتين سر الشيخ ، ورأيتهما في يدي كالوثيقتين بخير كثير ؛ فقلت : على بركة الله . ومضيت إلى دراي ، فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي ،

فنظرت إلى المنديل وقالت : يا سيدي ، هذا طفل يتيم جائع ولا صبر له على الجوع ، فأطعمه شيئاً -يرحمك الله- ونظر إلي الطفل نظرة لا أنساها ؛ حسبت فيها خشوع ألف عابد يعبدون الله تعالى منقطعين عن الدنيا ؛ بل ما أظن ألف عابد يستطيعون أن يروا الناس نظرة واحدة كالتي تكون في عين صبي يتيم جائع يسأل الرحمة . إن شدة الهم لتجعل وجوه الأطفال كوجوه القديسين ، في عين من يراها من الآباء والأمهات ، لعجز هؤلاء الصغار عن الشر الآدمي وانقطاعهم إلا من الله والقلب الإنساني ، فيظهر وجه أحدهم وكأنه يصرخ بمعانيه يقول : يا رباه يا رباه !

قال أحمد بن مسكين : وخيل إلي حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه ، والناس عمي لا يبصرونها ، وكأنهم يمرون بها في هذا الموطن مرور الحمير بقصر الملك ؛ لو سئلت فضلت عليه الإصطبل الذي هي فيه .

وذكرت امرأتي وابنها وهما جائعان مذأمس ، غير أنني لم أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد ، بل معنى هذه المرأة المحتاجة وطفلها ، فأسقطتهما عن قلبي ودفعت ما في يدي للمرأة وقلت لها : خذي وأطعمي ابنك ، ووالله ما أملك بيضاء ولا صفراء ، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام ؛ ولولا هذه

الخلعة بي لتقدمت فيما يصلحك ، فدمعت عيناها ، وأشرق وجه الصبي ، ولكن طم على قلبي ما أنا فيه فلم أجد للدمعة معنى الدمعة ، ولا للبسمة معنى البسمة .

وقلت في نفسي : أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاما ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي ستة أيام ، وكان ابن عمر يطوي ، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم ؛ ولكن من للمرأة وابنها بمثل عقدي ونيتي ؟ وكيف لي بهما ؟

ومشيت وأنا منكسر منقبض ، وكأنني نسيت كلمة الشيخ : " لو أطمعنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة " . فذكرتها وصرفت خاطري إليها وشغلت نفسي بتدبرها وقلت : لو أنني أشبعت ثلاثة بجوع اثنين لحرمت خمس فضائل^{٢٧} وهذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلة محتاجة إلى مثل هذا العمل ، وهذا العمل محتاج إلى أن يكون هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت .

وكانت الشمس قد انبسطت في السماء وذلك وقت الضحى الأعلى ، فملت ناحية وجلست إلى حائط أفكر في بيع

^{٢٧} يريد جوعه، وجوع امرأته، وجوع ابنه، ثم شبع هذه المرأة، وشبع ابنها، فهذه خمس فضائل.

الدار ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مر أبو نصر الصياد وكأنه مستطار فرحاً ، فقال : يا أبا محمد ، ما يجلسك ههنا وفي دارك الخير والغنى ، قلت : سبحان الله ! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟

قال : إني لفني الطريق إلى منزلك ، ومعني ضرورة القوت أخذتها لعيالك ، ودراهم استدنتها لك ، إذا رجل يستدل الناس على أبيك أو أحد من أهله ، ومعه أثقال وأحمال ، فقلت له : أنا أدلك . ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البصرة ، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنة ، فأفلس وانكسر المال ثم ترك البصرة إلى خراسان ، فصلح أمره على التجارة هناك ، وأيسر بعد المحنة ، واستظهر بعد الخذلان ، وأقبل جده بالشراء والغنى ؛ فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلل ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة ، وإلى ذلك طرائف وهدايا .

قال أحمد بن مسكين : وأنقلب إلى داري فإذا مال جم وحال جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : " لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة " ! فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعة ، لما اهتدى إلي ؛ فقد

كان أبي مغموراً لا يعرفه أحد وهو حي ؛ فكيف به ميتاً من وراء
عشرين سنة؟

وآليت ليعلمن الله شكري هذه النعمة ؛ فلم تكن لي همة
إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنها ، فكفيتهما وأجريت عليهما
رزقا ، ثم اتجرت في المال ، وجعلت أربه بالمعروف والصنيعة
والإحسان وهو مقبل يزداد ولا ينقص ، حتى تمولت وتأثلت .

وكأنني قد أعجبتني نفسي ، وسرني أنني قد ملأت
سجلات الملائكة بحسناتي ، ورجوت أن أكون قد كتبت عند الله في
الصالحين ، فنمت ليلة فرأيتني في يوم القيامة والخلق يموج بعضهم
في بعض ، والهول هول الكون الأعظم على الإنسان الضعيف ،
يسأل عن كل ما مسه من هذا الكون . وسمعت الصائح يقول : يا
معشر بني آدم ! سجدت البهائم شكراً لله أنه لم يجعلها من آدم .
ورأيت الناس وقد وسعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على
ظهورهم مخلوقة مجسمة ، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها
مخزيات !

وقيل : وضعت الموازين . وجيء بي لوزن أعمالي ،
فجعلت سيئاتي في كفة وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى ،

فطاشت السجلات ورجحت السيئات ، كأنما وزنوا الجبل
الصخري العظيم الضخم بلقافة من القطن .

ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كانت أصنعه فإذا
تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس : كالرياء والغرور
وحب المحمدة عند الناس وغيرها ، فلم يسلم لي شيء ، وهلكت
عني حجتي ، إذ الحجة ما يبينه الميزان ، والميزان لم يدل إلا على أنني
فارغ .

وسمعت الصوت : ألم يبق لي شيء ؟ فقليل : بقي هذا .
وأنظر لأرى ما هذا الذي بقي ، فإذا الرقاقتان اللتان
أحسننت بهما على المرأة وابنها ! فأيقنت أنني هالك ؛ فلقد كنت
أحسن بمائة دينار ضربة واحدة فما أغنت عني ، ورأيتها في الميزان
مع غيرها شيئاً معلقاً ، كالغمام حين يكون ساقطاً بين السماء
والأرض : لا هو في هذه ولا هو في تلك .

ووضعت الرقاقتان ، وسمعت القائل : لقد طار نصف
ثوابهما في ميزان أبي نصر الصياد . فأنخذلت أنخذالاً شديداً ، حتى
لو كسرت نصفين لكان أخف علي وأهون .

بيد أنني نظرت فرأيت كفة الحسنات قد نزلت منزلة
ورجحت بعض الرجحان .

وسمعت الصوت : ألم يبق له شيء؟ فقيل : بقي هذا .

وأنظر ما هذا الذي بقي ، فإذا جوع امرأتي وولدي في ذلك اليوم! وإذا هو شيء يوضع في الميزان ، وإذا هو ينزل بكفة ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتا بالسوية . وثبت الميزان على ذلك فكنت بين الهلاك والنجاة .

وأسمع الصوت : ألم يبق له شيء؟ فقيل : بقي هذا .

ونظرت فإذا دموع تلك المرأة المسكينة حين بكت من أثر المعروف في نفسها ، ومن إثاري إياها وابنها على أهلي ، ووضعت غرغرة عينيها في الميزان ففارت ، فطمت كأنها لجة ، من تحت اللجة بحر ؛ وإذا سمكة هائلة قد خرجت من اللجة وقع في نفسي أنها روح تلك الدموع ، فجعلت تعظم ولا تزال تعظم ، والكفة ترجح ولا تزال ترجح ، حتى سمعت الصوت يقول : قد نجا! وصحت صيحة انتبهت لها ، فإذا أنا أقول : " لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ! " .

قال أحمد بن مسكين : انتشر حديث السمكة في أهل " بلخ " ، واستفاض بينهم ، وكنت قصصته عليهم يوم السبت ، فلما دار السبت من أسبوعه لقيني شيخهم حاتم بن يوسف

"لقمان الأمة" ومعه صاحبه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنك في هذه المدينة قمر طلع ليل فلا يعظ الناس في يوم السبت غيرك؛ ومن سمع فكأنه عاين، وليس على السنة أهل بلغ منذ تحدثت إلا بشر وابن حنبل، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك. والكلام عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكى قرب من حقائقهم، وسمو إلى معانيهم، وليس في القول باب له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلق النور: يضيء ما حوله من حيث يرى، ويعمل فيما حوله من حيث لا يرى، وفي ظاهره الجمال والمنفعة. وفي باطنه القوة والحياة. ولست أقول لك: اذهب فحدث الناس، ولكني أقول: اذهب فأعظ الناس عقلا من الحديث.

قال ابن مسكين: فلما صلينا العصر، قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي ذاك، وهتف الناس يريدون الحديث عن بشر الحافي وما سقط لي من أخباره، على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل، فابتدأت بذكر موته رحمه الله- وأن يومه كأنما اجتمع له أهل خمس وسبعين سنة، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح، فلم يحصل في قبره إلا في الليل مما احتشد في طريقه من الخلق، حتى لكأن في نعشه سرا من أسرار الجنة يطالعهم به الموت فخرجوا

ينظرون إليه ، وكانوا يصيحون في جنازته : هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة .

ثم قلت : حدثني حسين المغازلي ^{٢٨} : أن بشرا رحمه الله كان لا يأكل إلا الخبز تورعا عن الشبهات واكتفاء لضرورة الحياة بالأقل والأيسر ، وكان يقول في ذلك يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأي شيء تأكل الخبز؟ فقال : أذكر العافية فأجعلها إداماً . وقد أعانه على ذلك أن لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصا في نفسه حتى فضل الإمام أحمد بن حنبل بأشياء : منها أنه له أهلاً ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجت تم نسكك ، فقال : أخاف أن تقوم الزوجة بحقي ولا أقوم بحقها ، فكانت هذه النية في نفسه أفضل من زواجه .

وكان مع هذا لا يؤاكل أحداً ، ولا يسعى إلى لقاء أحد ، حتى أنه لما رغب في مؤاخاة الزاهد العظيم "معروف الكرخي" ، أرسل إليه "الأسود بن سالم" وكان صديقاً لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك ، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوة

^{٢٨} نسبة إلى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان بشر يعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن اخته عمر : يا بني ، اعمل بيدك ؛ فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا رحمهم الله .

يحتسبها ويعتد بها ؛ إلا أن يشترط فيها شروطا : أولها أنه لا يحب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة ، فقال معروف : أما أنا فإذا أحببت أحداً لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهاراً ، وأزوره في كل وقت ، وأثره على نفسي في كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوة بيني وبينه ، ولكنني أزوره متى أحببت ، وأمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها إذا هو كره زيارتي .

قال حسين المغازلي : وكان هذا كله من أمر بشر معروف في بغداد ، لا يجهله أحد من أهلها ، إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر عجبي حين كنت عنده يوماً وقد زاره " فتح الموصلي " ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلي وقال : اشتر لنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب من ما تجد من الحلوى ، وأطيب ما تجد من الطيب ، وما قال لي مثل ذلك قط ، وهو الذي رأى الفاكهة يوماً فقال : ترك هذه عبادة ! وهو القائل لأبي نصر الصياد : لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة .

فذهبت فاشترت وانتقيت وتخيرت ، ثم وضعت الطعام بين أيديهما ، فرأيته يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسطة إليه وما لي عهد كان بانبساطه إلى أحد . وقد كنت أخبرته في ذلك النهار بنجر أحمد بن حنبل ، علمته من إدريس الحداد : فإنه

لما زالت المحنة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم وصرف إلى بيته ،
حمل إليه مال كثير من سروات بغداد وأهل الخير فيها ، فرد جميع
ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيرا ، وهو محتاج إلى أيسره ، وإلى
الأقل من أيسره ، وإلى الشيء من أقله ، فجعل عمه إسحاق يحسب
ما ورد ذلك اليوم ، فكان خمسين ألف دينار ، فقال له الإمام : يا
عم ، أراك مشغولا بحساب ما لا يفيدك . قال : قد رددت اليوم كذا
وكذا ألفا وأنت محتاج إلى حبة من دائق . فقال الإمام : يا عم ، لو
طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه .

قال المغازلي : فمنت تلك الليلة وأنا أفكر في صنع
الشيخ ، وقد تعلق خاطري به : كيف انقلبت الحال معه ، وأي
شيء هذا الحال ؟ وجعلت أكد ذهني لأعرف الحقيقة العقلية التي
سلطت عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه ، وأنا أعلم أن
للقوم علوما روحانية ليست في الكتب ، فمنها ما لا يتعلمونه إلا
من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ، ومنها ؛
ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبي
إلى أوهام كثيرة ليس في جميعها طائل ولا بها معرفة ، حتى غلبتني
عينايا ، وأنا من وهج الفكر نائم كالمریض ، وقد ثقل رأسي
واختلط فيه ما يعقل بما لا يعقل .

فرأيت أول ما رأيت ملكاً جباراً يحكم مدينة عظيمة ، وقد أطلق المنادي في جمع كل أطفال مدينته ، فجاء بهم من كل دار ، ثم رأيتهم قد جلس على سريرهم وفي يدهم مقراض عظيم ، قد اتخذوه على هيئة نصلين عريضين لو وضعت بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها ، فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه في شقي المقراض فيقرضها ، فإذا هي تتناثر أسرع مما يقرض المقص الخيط ، ثم يرمي بالطفل مغشياً عليه ، ويتناول غيره فيبتر أصابعه ، والأطفال يصرخون ، وأنا أرى كل ذلك ولا أملك إلا غيظي على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمضي فيه هذا الغيظ فأقرض عنقه بمقراضه .

ثم رأيتهم يأخذون طفلاً صغيراً ، فلما جاءت قدم الطفل بين شقي المقراض صاح : يا رب ، يا رب ، فإذا المقراض يلتوي فلا يصنع شيئاً ، وكأن فيه حجراً صلباً لا قدماً رخصة . فتميز الجبار من الغيظ وقال : من هذا الطفل ؟ فسمعت هاتفاً يهتف : هذا بشر الحافي ! لا يبلغ تاج ملك في الأرض أن يكون لقدمه الحافية نعلاً عند الله !

وكان إلى يميني رجل يتوضأ وجهه صلاحاً وتقوى ، فقلت له : من هذا الطاغية ؟ ولم اتخذ المقراض لأقدام الأطفال خاصة ؟

فقال : يا حسين! إن هذا الجبار هو ذل العيش ، وهذا
وسمه لأهل الحياة على الأرض ، يحقق به في الإنسان معنى البهيمة
أول ما يدب على الأرض ، حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم .
قلت : فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إن لله عبادةً استخصهم لنفسه ، أول علامته فيهم أن
الذل تحت أقدامهم ، وهم يحيئون في هذه الحياة لإثبات القدرة
الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التي هي نفسها طبيعة الذل ؛
فإذا طرح أحدهم للشهوات وزهد فيها ، واستقام على ذلك في
عقد نية وقوة إرادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس ، ولكنه
رجل قوي اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس في معاركها
الطاحنة ، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم في معاركه
الدامية : هذا يتعلم منه فن ، وذلك يتعلم منه فن آخر ، وكلاهما
يرمى به على الموت لإيجاد النوع المستعز من الحياة ، فأول فضائله
الشعور بالقوة ، وآخر فضائله إيجاد القوة .

قال المغازلي : وضرب النوم على رأسي ضربه أخرى ،
فإذا أنا في أرض خبيثة داخنة ، قد ارتفع لها دخان كثيف أسود
يتضرب بعضه في بعض وجعلت أرى شعلا حمرا تذهب وتجيء
كأنها أجسام حية ، فوقع في وهمي أن هؤلاء هم الشياطين : إبليس

وجنوده، وسمعت صارخا يقول: يا بشرى! فلتبك السماء على الأرض، لقد أكل بشر الحافي من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوي عنده حجرها ومدرها، وذهبها وفضتها! فعارضه صائح أسمع صوته ولا أرى شخصه: ويلك يا زلنبور^{٢٩}! إن هذا شر علينا من عامة نسكه وعبادته؛ فهذا ويحك- هو الزهد الأعلى الذي كان لا يطيقه بشر؛ إنه إعنات سلطه على نفسه، فإني دفعت هذا "المغازلي" الأعمى القلب ليزين له ما فعل أحمد من حبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته، زهداً، وورعاً، وقوة عزم، ونفاذ إرادة؛ وقلت: عسى أن تتحرك في نفسه شهوة الزهد فيحسد أو يغار، أو تعجبه نفسه فيكون لي من ذلك لمة بقلبه فأوسوس له، فإننا نأتي هؤلاء من أبواب الثواب كما نأتي غيرهم من أبواب المعاصي، ونتورع مع أهل الورع كما نتسخر مع أهل السخر؛ ولكن الرجل رجل وفيه حقيقة الزاهد، فقد أعطي القوة على جعل شهوات نفسه أشخاصاً حية يعاديها ويقاثلها، فإذا أنا جعلت شهوته في اللذة قتل اللذة، وإذا جعلتها في الكآبة قتل الكآبة، وليس الزاهد العابد هو الذي يتكشف ويتعفف، ويتخفف

^{٢٩} هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى، وفي بعض النسخ التي بأيدينا أنه خنزب لا زلنبور.

ويتلفف ، فإن كثيراً ما تكون هذه هي أوصاف الذل والحمق ، ويكون لها عمل العبادة وفيها إثم المعصية . ولكن الزاهد حق الزاهد من أدار في هذه الأشياء عينا قد تعلمت النظر بحقه والإغضاء بحقه ؛ فهذا لا يخطئ معنى الشر إن لبسناه عليه في صورة الخير ولا معنى الخير إن زورناه في صورة الشر ، وبذلك يضع نفسه في حيث شاء من المنزلة ، لا في حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدنيئة .

وما أكل بشر هذه الطيبات إلا ليبادر بها وسوستي ويردني عن نفسي وعن اللمة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهد ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه لحبط أجره ؛ فهذه الطيبات علاج نفسه علاج مريض ، وقد غير على جوفه طعاما بطعام ، كما يبدل على جلده ثوبا بثوب ؛ ولا شهوة للجلد في أحدهما .

قال المغازلي : وثقل النوم علي ثقلة أخرى ، فرأيتني في واد عظيم ، وفي وسطه مثل الطود من الحجارة قد ركم بعضها على بعض ، ورأيتني مع بشر أقص عليه خبر أحمد بن حنبل ؛ فقال : انظر - ويحك - إن الناس يسمونها خمسين ألف دينار ، وهي هنا في وادي الحقائق خمسون ألف حجر لو أصابت أحمد لقتلته ولكانت قبره آخر الدهر .

إن المال يا بني هو ما يعمل به المال لا جوهره من الذهب والفضة ، فإذا كنت بمفازة ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك . فالتراب والذهب هناك سواء ؛ والفضائل هي ذهب الآخرة ؛ فهنا تجدد بالمال دنياك التي لا تبقى أكثر من بقائك ، وهناك تجدد بالفضائل نفسك التي تخلد بخلودها .

ومعنى الغنى معنى ملتبس على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه ، فحين يرد أحمد بن حنبل خمسين ألفاً ، يكون هذا المعنى قد صحح نفسه في هذا العمل وجهها من التصحيح .

قال حسين المغازلي : وغطني النوم في أعماقه غطة أخرى ؛ فإذا أنا في المسجد في درس الإمام أحمد ، وهو يحدث بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم ، نزع منها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حرموا بركة الوحي " ، وهم أن يتكلم في تفسيره ولكنه رأي فأمسك عنه وأقبل علي فقال : يا حسين ! إذا اجتزأ شيخك بالرغيف فهذا عنده هو قدر الضرورة ؛ فإن أكل الطيبات فقد عرضت حال جعلت هذه الطيبات عنده هي قدر الضرورة ؛ وفي هذه النفوس السماوية لا يكون الجزء الأرضي إلا محدوداً ، فلا يكون محصوله إلا ما ترى من قدر الضرورة .

ولما صغر الجزء الأرضي في نفوس المسلمين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء السماوي فيها ، إذ كانت إرادتهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت بذلك لا تذلل ولا تضعف ولا تنكسر ؛ فالأدمية كلها تنتهي إلى بعض صور ، وهؤلاء هم الذين محلهم في أعلاها .

يا حسين ! ألا وإن رد خمسين ألف دينار هو كذلك قدر الضرورة .

قال حسين : وذهبت أعرض على الإمام بما كان في نفسي من أن هذا المال وإن لم يكن من كسبه ، فقد كان يتحول في يده عملا من أعمال الخير ؛ وأنسيت أن هذه الصدقات هي أوساخ الناس وأقذار نفوسهم ، فلم أكد أفصح فمي حتى رأيت الكلام يتحول طينا في فمي ليذكرني بهذا المعنى ؛ وكدت أختنق فانتفضت أنفسي ، فطار النوم والحلم .

قال أحمد بن مسكين : ودار السبب الثالث ، وجلست مجلسي للناس وقد انتظمت حلقتهم ؛ فقام رجل من عرض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل ، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان ، حفظنا منها

قوله صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره " . وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطان الكافر دهين سمين كاس ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار . فهل يأكل الشيطان ويدهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرى ويتشعث ويغبر ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا وقوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطان هذا السائل ؛ فإن إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويسمعه طنزه وتهكمه ^{٣٠} ، حرك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كأنما يقول له : تنبه - ويحك - على معناي ، فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورة من الرد علي ، ولكنني حقيقة من الرد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عنق عدوه بمائة اسم وضعت للسيف .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة بن عقبة الكوفي المحدث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد بن حنبل ؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يقال له : " راهب الكوفة " ؛ ومن زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت - والله - لأغيظن الشيطان بهذا الخبر ، فإن

^{٣٠} الطنز: التهزؤ والتهكم، ولعل منه كلمة "طظ" عند العامة.

أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تنهزم فيها الجيوش ، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات مع الشيطان ، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض ، فالناس يحسبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه نوع نظام آخر غير نظام أعضائه ؛ ولا أشق من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف ؛ ولو أن ملكا عظيما تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزت له جوانب الأرض ، لكان علمه هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها .

قال أحمد بن مسكين : وقصصت عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة بن عقبة كثير الفكر في الشيطان ، يود لو رآه وناقله الكلام ؛ وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودها فيه ، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الحي للخطأ على الأرض ؛ والخطاء يكون صوابا محولا عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكا من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام ، أي وجد في الكون روح الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطئ .

فلما هبط آدم من الجنة وحرمها هو وزوجه وذريته، كان إبليس لعنه الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر، فكأن هذه الآدمية أخرجت من الجنة، وأخرجت معها قوة لا تزال تصدها عنها، ليضطربا في الكفاح مليا من زمن هو عمر كل إنسان، وهذا هو العدل الإلهي: لم يعرف آدم حق الجنة، فعوقب ألا يأخذها إلا بحقها، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر.

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته، ثم هوم فكان بين اليقظة والنوم، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال متنبها، فكأن العين مترجمة تبصر من تحت أجفانها بصرًا يشاركها فيه العقل.

فرأى شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءه في زي رجل زاهد، حسن السميت طيب الريح، نظيف الهيئة، وكاد يشبه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه، فإن عيني الكاذب تصدقان عنه، وقد علم الله أن الكاذب آدمي قفر كالمثاهة من الأرض، فجعل عينيه كالعلامات لمن خاض الفلاة.

وظهر الشيطان زاهداً عابداً تقياً نقياً كأنه دين صحيح خلق بشراً، فصرخ فيه أبو عامر: عليك لعنة الله! أمعصية في ثوب الطاعة؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصية : إنها طاعة لم يقارفها أحد . وهل خلقت الشهوات في نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصي من النفس ، وجعل كل منها طاعة لشيء ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية ؟ ألا ترى يا أبا عامر أن الحيلة محكمة في الداخل من الجسم أكثر مما هي محكمة في الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله في الإنسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموت قد خلق إلا ردا عليك أنت ، ليتبين الناس أنك الممتلىء الممتلىء ، ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية منك ورد عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهي تموت ، وإنما تمام وجودها ساعة تنقضي ؛ ومتى قالت اللذة : قد انتهيت . فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ، ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقىها حية ، فهي تلد الحنين إليها ، وهو لا يسكن حتى يعود لذة تنقضي وتلد .

قال الشيخ : معاني التراب ، معاني التراب ؛ كل نبتة فيها بذرتها ، ولكن عليك لعنة الله لماذا جئتني في هذه الصورة ؟

قال إبليس : لأنني لا ألبس إلا محبة القلب الآدمي ، ولولا ذلك لطردتني القلوب كلها وبطل عملي فيها ، وهل عملي إلا التلبس والتزوير ؛ أفندري يا أبا عامر أني لا أعترى الحيوان قط .

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر إلى الشيء إلا نظرة واحدة ، هي نظره وفهمه معا ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } ﴿الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢﴾ .

فأنت أيها الشيطان التزوير ، والتزوير موضعه الكذب ؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء ، فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى رحمك الله أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العباد ، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك . . . ؛ إن الحيوان شيء واحد ، فهو طبيعة مسخرة بنظامها ، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فألوهيته أن يقر النظام بين هذه المتناقضات ، كأنما امتحن

فأعطى من جسمه كونا فيه عناصر الاضطراب ، وحوله عناصر
الاضطراب ، ثم قيل له دبره .

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكت لعنك الله ؟

قال : ضحكت من أنك أعلمتني حقيقة الإبلسية ،
فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة .

قال الشيخ : عليك لعنة الله ، فما هي تلك الحقيقة التي
زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ، ما غلا إنسان في زعم
التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبلسية ؛ وسأعلمك يا أبا
عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل : إنها ألوهية تقرر النظام بين
متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة .

قال الشيخ : وتسخر مني لعنك الله ؟ فمتى كنت تعلم
الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدر من شيخ
الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها ؟

قال : عليك لعنة الله ؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ، هي التي أعجزتني في

نبيكم .

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم ؛ فما هي ؟

قال إبليس : هي ثلاث بها نظام النفس ، ونظام العالم ، ونظام اللذات والشهوات ؛ أن تكون لك تقوى ، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى ، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعت هذه الثلاث في إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس .

فإن كانت التقوى وحدها -كتقوى أكثر الزهاد والرهبان- فما أيسر أن أجعل النظر منها نظر الغفلة والجن والبلادة والفضائل الكاذبة ، وإن كان الفكر وحده -كفكر العلماء والشعراء- فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيغ ، والإلحاد والبهمية والردائل الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } ﴿الأعراف: ٢٠١﴾ .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرني والله أن أفسر لك ، فإن قارورة من الصبغ لا تصبغ البحر ، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع في الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف مخلوق ظالم ، فلو أنك صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الإنساني

بالزاهد والمصلح ، ما دام المصلح شيئاً غير السيف ، وما دام الزاهد شيئاً غير الحاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطان عارم ، فإذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده؟ قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة تحسب جسمها . . .

فصرخ الشيخ : اغرب عني عليك لعنة الله !
قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عمر . لقد لقيت المسيح وجربته وهو كان تفسيرها .

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقى به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ، ولا يظن أنه يجد ، ولا يرجوا أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روح الله وكلمته كما تزعم فمر هذا الحجر ينقلب خبزاً ، فكان تقياً ، فتذكر فإذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحول ، لأن الموت إتمام حقيقته السامية فوق هذه الدنيا ، ولو ملئت له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول ؛ لأن له بصراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛

ليس بالخبز وحده يحيا ؛ بل بمعان أخرى هي إشباع حقيقته السماوية التي لا شهوة لها .

ثم ارتقيت به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين ، كشفتها كلها لعينه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدت لي . فكان متقيا ، فتذكر فإذا هو مبصر : أبصر حقيقة الخيال الذي جسمته له ، وعلم أن الشيطان يعطي مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يعطيها في ساعة لذة ، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى ؛ ثم لا يبقى من كل ذلك باق غير الإثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت فهي خيال في جرعة الحياة ، كما هي خيال في جرعة الخمر .

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر ، الذي وراءه التذكر ، الذي وراءه التقوى ، التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفئها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر ، وآخر وجودها التلاشي . فالبصر الكاشف الذي يجرد الأشياء من سحرها الوهمي ، هذا هو كل السر .

قال الشيخ : لعنك الله ؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤال شيطاني ، تريد -
ويحك- أن تحتال على الشيطان؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك .
ليس الإيمان هو الاعتقاد ولا العمل ، ولو كان من هذين
لما شق على أحد ولصلحت الدنيا وأهلها ؛ إنما الإيمان وضع يقين
خفي يكون مع الغريزة في مقرها ، ويصلح أن يكون في مقرها
لتصدر عنه أعمال الغريزة ، وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا
كان يقينا ثابتا بما هو أكبر من الدنيا ، فيرجع إليه الإنسان فيتذكر
فيبصر . هناك ميراث من الآخرة للمؤمن ، فاليقين بهذا الميراث هو
سر الإيمان .

والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين
ومعارضة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر
للمغفل عظيمة ، كما تشب نار أكبر من قرص الشمس ثم يقال
للأبله : انظر بعينيك ، فيصدق أنها أكبر من الشمس .

ومتى صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر من
النفس ؛ فأيسر أسباب الحياة حينئذ يفسد المعتقد ويسقط الفضيلة ؛
وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ .

أما إذا ثبت اليقين فالشيطان مع الإنسان يصغر ثم يصغر ،
ويعجز ثم يعجز .

حتى ليرجع مثل الدرهم إذا طمع الطامع أن يجعل الرجل
الغني الكثير المال لصا من اللصوص بهذا الدرهم .

قال الشيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين
فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطع إفساد اليقين زدته
يقينا فيفسد ، واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول
أعماله السافلة ؛ وبأي عجب يكون الشيطان إلا بمثل هذا ؟

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ ، فمد يده فأخذ
فيها عنق إبليس وقد رآه دقيقا ، ثم عصره عصرا شديدا يريد
خنقه ؛ ففقهه الشيطان ساخرا منه . ويتنبه الشيخ ، فإذا هو يشد
بيده اليمنى على يده اليسرى .

قال أحمد بن مسكين : وأزف ترحلي عن " بلخ " ،
وتهيأت للخروج ، ولم يبق من مدة مقيلي بها إلا أيام يجيء فيها
السبت الرابع ، وكان قد وقعت ممارة بيني وبين مفتي " بلخ " أبي
إسحاق إبراهيم بن يوسف الباهلي تلميذ أبي يوسف صاحب
الإمام أبي حنيفة ، ويزعمون أنه شحيح على المال ، وأنه يتغلله من
مستغلات كثيرة^{٣١} ، فكأنما غشيته غمامتي ، فهو لا يرى أن أتكلم

^{٣١} المستغلات: أصول الأموال، وتغلل واستغل بمعنى.

في الزهد، ومحسب هذا الزهد تماوت العباد، ونفض الأيدي من الدنيا، وسوء المصاحبة لما ينعم الله به على العبد، وخذلان القوة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التي زعم أنها أباطيل الطاعات وما أقربها من أباطيل المعصية. ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حضر مجلسي، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف.

وجادلته فرأيت أنه واهن الدليل، ضعيف الحجة، يحمن تخمين فقيه، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النص إلى الظاهر، كأن الحقيقة إذا أُلقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتي، ويزعم أن الوعظ وعظ الفقهاء، يقولون: هذا حرام، فيكون حراماً لا يقارفه أحد، وهذا حلال، فيكون حلالاً لا يتركه أحد، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومداخله إلى النفس وسياسته فيها، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى، إن لم تُزين بزینتها لم تستهوَ أحداً؛ وأن الموعظة إن لم تتأد في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه، وأنه لا يغير النفس إلا النفس التي فيها قوة التحويل والتغير، كنفوس الأنبياء ومن كان من طريقة روحهم، وأن هذه الصناعة إنما هي وضع نور البصيرة في الكلام، لا وضع القياس الحجة، وأن الرجل الزاهد الصحيح الزهد، إنما هو الحياة

تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً في الحياة والعمل . لا شيئاً في القول والتوهم ، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار في النار ؛ من واتاها أحسها .

ولعمري ، كم من فقيه يقول للناس : هذا حرام . فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً ما دام لا ينطق إلا بنطق الكتب ، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التي تجعله روحاً تتعلق الأرواح بها وتضعه بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كأنه آت من الجنة منذ قريب ، راجع إليها بعد قريب .

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس ، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه ؛ إذ حرصه فوق بصيرته ، وله في النفوس رائحة الخبز ، وله معنى : خمس وخمس عشرة^{٣٢} ، وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التي يتكلم بها ؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء ، ولكنني رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس في الحرام والحلال وفي نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم أجد لكلامهم

^{٣٢} يريد أنه في هذا الدنيا "عملية حسابية" وفي أيام ضعفه الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص.

نفعا ولا رداً، إذ يلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذي يتكلمون فيه؛ وتسخر الحقيقة منهم -على خطرهم وجلال شأنهم- بذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له: لا تسرق.

قال ابن مسكين: فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجا، وكانوا قد تعاملوا إزماعى الرحيل عن بلدهم، وجاء "لقمان الأمة" في أشياعه وأصحابه، وجاء أبو إسحاق المفتي في جماعته؛ واستقر بي المجلس فنفذت الناس بنظري، فكأنهم من كثرتهم نبات غطى الأرض، فأذكرني هذا شيخنا السري بن مغلّس السقطي^{٣٣}، وكان قد لزم دراه في بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد إليه، وهممت أن أجعل الموعدة في شرح كلمته المشهورة: "لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا". وما نقلوه عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: "الحمد لله". فقال صاحبه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل

^{٣٣} السقط: رديء المتاع "روبايكيا"، وبائعه السقطي. وهذا الإمام العظيم كان أوحده أهل زمانه في الورع، وله كلام إلهي مشرق، وقد توفي عن سن عالية في سنة ٢٥٣هـ.

فقال : نجا حانوتك . فقلت : الحمد لله فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردت لنفسي خيراً من الناس !

قال ابن مسكين : ولكنني أحببت أن أكلم المفتي ومال المفتي ؛ فحدثتهم حديث معرفتي بالسري : أني سمعت يوماً " غيلان الخياط " يقول : إن السري كان اشترى كرلوز^{٣٤} بستين ديناراً ، وأثبتته في رزناجه^{٣٥} وكتب أمامه : ربحه ثلاثة دنانير^{٣٦} ؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً ، فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكر بتسعين . فقال السري : ولكنني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ، فلست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً ، فقال الدلال : وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ، ألا أغش مسلماً ، فلست أشترى منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال اشترى منه ، ولا السري باعه . . . !

^{٣٤} الكر "بضم الكاف": مكيال عظيم يقدر به في الحساب، وهو أربعون إردباً مصرياً.

^{٣٥} أي دفتر حسابه.

^{٣٦} خمسة في المائة.

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لي همة إلا أن ألقى الشيخ وأصحابه ، وأخذ عنه ، فلم أعرج على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه ، فأجده في حلقة وعنده ممن كانت أعرفهم : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريس الحداد ، وعلي بن سعيد الرازي ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضرة روحه ، وكأنما يمدّه بالنور عرق من السماء ، فهو يتلأأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يحسن في ذات نفسه أنه الأدنى ، من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الإنسان الأعلى .

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحة الأشواق لا مسحة الآلام ، آثار ما يجده في روحه القوية ، لا كآلام الـاس التي هي آثار الحرمان في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسحة الغم والكآبة .

وما يخطئ الناظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى ، فإن الأولى تتندى على روح الناظر بمثل الطل إذا قطره الفجر ، والأخرى تتشور في روحه كما تهيج الغبرة إذا ضربت الريح الأرض .

كان الشيخ في وجود فوق وجودنا؛ فلا تتلون له الأشياء ولا تعدو عنده ما هي في نفسها، ولا يحمل الشيء له إلا معناه من حيث يصلح أو لا يصلح، ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي، وإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطان عينه في عين الناظر إليها؛ وإنما تزيد وتنقص في القلب عندما يكون روح الشيطان في القلب؛ وإنما يشتبه ما ينبغي وما لا ينبغي عندما يأتي الشيء من جهتين: جهته من طبيعته هو، وجهته من طبيعتنا نحن. وبهذا قد يجمع الإنسان المال ثم لا يجد في المال معنى الغنى، وقد تتفق أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل. وكم من إنسان يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان ينبغي، وآخر لم يجد شيئاً ووجد بذلك راحته.

قال ابن مسكين: وما كان أشد عجبني حين تكلم الشيخ، فقد أخذ يحيب عما في نفسي ولم أسأله، كأن الذي في فكري قد انتقل إليه؛ فروى الحديث: "إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم، نزع منها هيبة الإسلام؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حرموا بركة الوحي". ثم قال في تأويله:

إن ملك الوحي ينزل بالأمر والنهي ليخضع صولة الأرض بصولة السماء، فإذا بقي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بقي عمل الوحي إلا أنه في صورة العقل، وبقيت روحانية الدنيا إلا أنها

في صورة النظام، وكان مع كل خطأ تصحيحه؛ فيصبح الإنسان بذلك تنفيذاً للشرعة بين أمر مطاع ومأمور مطيع، فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضهم أستاذاً لبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لشيء، وقوة سنداً لقوة فيقوم العزم في وجه التهاون، والشدة في وجه التراخي، والقدرة في وجه العجز؛ وبهذا يكونون شركاء متعاونين، وتعود صفاتهم الإنسانية وكأنها جيش عامل يناصر بعضه بعضاً، فتكون الحياة مفسرة ما دامت معانيها السامية تأمر أمرها وتلهم إلهامها، وما دامت ممثلة في الواجب النافذ على الكل.

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعاني، فليست حقيقة الحرية الإنسانية إلا الخضوع للواجب الذي يحكم، وبذلك لا بغيره يتصل ما بين الملك والسوقة، وما بين الأغنياء والفقراء، اتصال الرحمة في كل شيء، واتصال القسوة في التأديب وحده. فبركة الوحي إنما هي جعل القوة الإنسانية عملاً شرعياً لا غير.

أما تعظيم الأمة للدنيا والدرهم، فهو استعباد المعاني الحيوانية في الناس بعضها لبعض، وتقطع ما بينهم من التشابك في لحمة الإنسانية، وجعل الكبير فيهم كبيراً وإن صغرت معانيه، والصغير فيهم صغيراً وإن كبر في المعاني، وبهذا تموج الحياة بعضها

في بعض ، ولا يستقيم الناس على رأي صحيح ، إذ يكون الصحيح والفساد في ملك الإنسان لا في عمل الإنسان ، فيكنز الغني مالا ويكنز الفقير عداوة ، كأن هذا قتل مال هذا ، وكأن أعمالا قتلت أعمالا ، وترجع الصفات الإنسانية متعادلة ، وتباع الفضائل وتشتري ، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة ، وينقص من ينقص ولكن في الحرية ، وتكون المنفعة الذاتية هي التي تأمر في الجميع وتنهى ، ويدخل الكذب في كل شيء حتى في النظر إلى المال ، يرى كل إنسان كأنما درهمه وديناره أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهمه ، فإذا أعطي نقص فغش ، وإذا أخذ زاد فسرق ؛ وتصبح النفوس نفوسا تجارية تساوم قبل أن تنبعث لفضيلة ، وتماكس إذا دعت لأداء حق ، ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعدة لا من الروح ، فلا يقال حينئذ : إن رغيفين أكثر من رغيف واحد . كما هي طبيعة العدد ، بل يقال : إن رغيفين أشرف من رغيف ، كما هي طبيعة النفاق .

أما التجارة -وهي التفسير الظاهر لمعاني النفوس- فتصبح بين الغش والضرر والمماكرة ، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشاري ، وتفسد الإرادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة . وما التاجر في الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق في الموضع المتقلب ،

فكلمته كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه ، ويمتحن بالدنيا والدرهم أشد مما يمتحن العابد بصلاته وصيامه ، وقد شهد رجل عند عمر بن الخطاب في قضية ، فقال له عمر : ائتني بمن يعرفك . فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : فكنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا . قال عمر : أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .

قال : فاذهب فلست تعرفه !

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض ، وإرادة الخير واعتقاد الصدق ، وهو في كل ذلك مظهر توضع اليد عليه كما تجس اليد مرض المريض وصحته .

فإذا عظمت الأمة الدينار والدرهم ، فإنما عظمت النفاق والطمع والكذب والعداوة والقسوة والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين أهلها ، حتى لتكون المسافة بين غني وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد ما بينهما . وإنما هيبة الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال ، وفي بذل الحياة لا في الحرص

عليها، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد، وفي وضع حدود الفضائل بين الناس لا في وضع حدود الدراهم، وفي إزالة النقائص من الطباع لا في إقامتها، وفي تعاون صفات المؤمنين لا في تعاديها، وفي اعتبار الغنى ما يعمل بالمال لا ما يجمع من المال، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة، لا الذهب والفضة.

هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة.

العجوزان

قال محدثي : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت ماثبتهما^{٣٧} ذلك المكان القائم على شاطئ البحر في إسكندرية في جهة كذا ؛ وهما صديقان كانا في صدر أيامهما - حين كانت لهما أيام . . . رجلي حكومة يعملان في ديوان واحد ، وكانا في عيشهما أخوي جدَّ وهزل ، وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلة أحدهما من الآخر ؛ وكان بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة والدمعة من الدمعة .

ولبثا كذلك ما شاء الله ، ثم تبددا وأخذتهما الآفاق كدأب " الموظفين " ؛ ينتظمون ويتشرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكان " الموظف " من تفسير قوله تعالى : { وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } ﴿لَقمان : ٣٤﴾ !

^{٣٧} أي المكان الذي اجتمع فيه بعد التفرق.

وافترق الصديقان على مضض، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض "موظفيها" هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض؛ ثم تصرفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق لا يلتقيان، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذي مضى... يحفظ ولا يرى... قال المحدث: وكنت مع الأستاذ "م"، وهو رجل في السبعين من عمره، غير أنه يقول عن نفسه إنه شاب لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة... ويزعم أن في جسمه الناموس الأخضر الذي يحمي الشجرة حياة واحدة إلى الآخر.

رجل فاره، متأنق، فاخر البزة، جميل السمات، فارع الشطاط^{٣٨} كالمصبوب في قالب لا عوج فيه ولا انحناء، مجتمع كله لم يذهب منه شيء، قد حفظته أساليب القوة التي يعانيتها في رياضته اليومية؛ وهو منذ كان في آنفته وشبابه لا يمشي إلا مستأخر الصدر^{٣٩} مشدود الظهر، مرتفع العنق، مسنداً قفاه إلى طوقه؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله: إن هذا من عمل إسناد القفا^{٤٠}.

^{٣٨} ممتد الطول.

^{٣٩} يقال مستقدم الصدر، للهرم المحني الظهر؛ فأخذنا منها مستأخر الصدر، وذلك بوزنه حين يكون مشدوداً، فيكون أعلاه إلى الوراء.

^{٤٠} هذه حقيقة رياضية، ولها أقوى الأثر في شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الإنسان.. والمراد بالطوق: البنيقة "الياقة".

وهو دائماً عطر عبق، ثم لا يمس إلا عطرًا واحدًا لا غيره، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبي، وأنه يبقى للأيام رائحتها.

وله فلسفة من حسه لا من عقله، وفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير، ومن بعض قواعدها الزهر، ومن بعضها الموسيقى، ومن بعضها الصلاة أيضاً؛ وكل تلك هي عنده قواعد لحفظ الشباب. ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هي لم تتغير اتصل الشباب فيها واطرد في الروح، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى.

وهو يزيد في حكمة الصلاة فكرة رياضية عملية لم ينتبه إليها أحد، هي رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام؛ ويقول: إن ثروة الصلاة تكنز في صندوقين: أحدهما الروح لما بعد الموت، والآخر البطن لما قبل الموت؛ ويرى أن الإسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصب في الروح كل يوم.

قال المحدث: وبينما نحن جالسان مر بنا شيخ أعجف مهزول موهون في جسمه، يدلف متقاصر الخطو كأن حمل السنين

على ظهره، مرعش من الكبر، مستقدم الصدر منحن يتوكأ على عصاً، ويدل انحناءه على أن عمره قد اعوج أيضاً، وهو يبدو في ضعفه وهزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا إنساناً، وكأنها ما خبطت إلا لتمسك عظاماً على عظم . .

قال: فحملق إليه "م" ثم صاح: رينا! رينا. فالتفت العجوز، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل إليه وأقبل ضاحكاً يقول: أوه!. ريت، ريت!

ونهض "م" فاحتضنه وتلازما طويلاً، وجعل رأساهما يدوران ويتطوَّحان، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظمئة لا عهد لي بمثلها في صديقين، حتى لحيل إلي أنهما لا يتعانقان ولا يتلاءمان، ولكن بينهما فكرة يعتنقانهما ويقبلانهما معاً . .

وقلت: ما هذا أيها العجوزان؟

فضحك "م" وقال: هذا صديقي القديم "ن"، تركته منذ أربعين سنة معجزة من معجزات الشباب، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمه . . .
ثم التفت إليه وقال: كيف أنت يا رينا؟

قال العجوز " ن " : لقد أصبحت كما ترى ؛ زاد العمر في رجلي رجلاً من هذه العصا ، ورجع مصدر الحياة في مصدرًا للآلام والأوجاع ودخلت في طبيعتي عادة رابعة من تعاطي الدواء .
فضحك " م " وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هي العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هي الأكل والشرب والنوم . . ثم أنت يا ريت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال " م " : أقرأها كما يقرأها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصحف يوماً غير ما تقرأ في يوم ؟

قال : آه ! إن أول شيء أقرأ في الصحف أخبار الوفيات ؛ لأرى بقايا الدنيا ، ثم " إعلانات الأدوية " . . . ولكن كيف أنت يا ريت ؟ إنني لأراك ما تزال من وراء أربعين سنة في ذلك العيش الرخي ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يحرملك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلمسك بأصابعه لا بمساميره ، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم .

قال : ناشدتك الله ، أفى معجزات العلم الحديث معجزة

لعظمي ؟

قال " م " : ويحك يا رينا! إنك على العهد لم تبرح كما كنت مزبلة أفكار . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما رأى بمنزلة بين العظم والخشب؟!

قال المحدث : وضحكنا جميعاً، ثم قلت للأستاذ " م " : ولكن ما " رينا وريت " ؟ وما هذه اللغة ؟ . وفي أي معجم تفسرها؟

قال : فتغامز الشيخان، ثم قال " م " : يا بني، هذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها، فهي كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى .

قلت : ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كل شاب في هذه الجاهلية الأولى، وما أحسب " رينا، وريت " في لغتكما إلا بمعنى " سوسو، وزوزو " في اللغة الحديثة؟ فقال " م " : اسمع يا بني : إن رجل سنة ١٩٣٥ متى سأل في رجل سنة ١٨٩٥ : ما معنى رينا وريت؟ فرد عليه : إن " رينا " معناها " كاترينا " ؛ وكان " ن " بها صَباً مغرمًا، وكان مقتلاً قتله حبها . أما " ريت " فهو لا يعرف معناها .

فامتعض العجوز " ن " ، وقال : سبحان الله! اسمع يا بني : أن رجل سنة ١٨٩٥ في يقول لك : إن " ريت " معناها

"مرغريت" ، وكانت الجوى الباطن وكانت اللوعة والحريق الذي لا ينطفئ في قلب الأستاذ "م" .

قلت : فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ ،
فكيف تريان الحب الآن؟

قال العجوز "ن" : يا بني ، أن أواخر العمر كالمنفي . .
ونحن نتكلم بالألفاظ التي تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم . . غير أن
المعاني تختلف اختلافاً بعيداً .
قلت : واضرب لهم مثلاً .

قال : واضرب لهم مثلاً كلمة "الأكل" ، فلها عندنا ثلاثة
معان : الأكل وسوء الهضم ، ووجع المعدة ؛ وكلمة "المشي" فلها
أيضاً ثلاثة معان : المشي ، والتعب ، وغمزات العظم . . . وكلمة
"النسيم" ، النسيم العليل يا بني ، زيد لنا في معناها : تحرك
"الروماتيزم" . .

فضحك "م" وقال : يا شيخ . .

قال العجوز : وتلك الزيادة يا بني لا تحيء إلا من نقص ،
فهنا بقية من يدين ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ،
ومن ، ومن . . . ومجموع كل ذلك بقية من إنسان .

قال الأستاذ "م" : والبقية في حياتك .

قال " ن " : وبالجمللة يا بني فإن حركة الحياة في الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتي الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب في مغامرته : ليمض الزمن ولتصرم الأيام ! فإن الأيام هي التي تتصرم والزمن هو الذي يمر ؛ أما الشيوخ فلن يتمنوه أبداً ؛ فمن قال منهم : ليمض الزمن ، فكأنما قال : فلأمض أنا . . .

فصاح " م " : يا شيخ يا شيخ

ثم قال العجوز : واعلم يا بني أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم ، فيصبح مثله ضعيفاً لا غناء عنده ولا حيلة له ؛ وكل مصانع لنكشير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكتين ، وما بقي من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها ؛ فهي عاجزة أن تكسر عظامي . . .

قال المحدث : ففقهه الأستاذ " م " ، وقال : كدت والله أتخشب من هذا الكلام ، وكادت معاني العظم تخرج من عظامي ؛ لقد كان المتوحشون حكماء في أمر شيوخهم ، فإذا علت السن بجماعة منهم لم يتركوهم أحياء إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهزة ، فيكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلوا منها وقد عقلت أيديهم بأغصانها ؛ فإذا صاروا على

هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجونها وينفضونها ساعة من نهار؛ فمن ضعفت يده من أولئك الشيوخ أو كلت حوامل ذراعيه فأفلت الغصن الذي يتعلق به فوق، أخذوه فأكلوه؛ ومن استمسك أنزلوه فأمهلوه إلى حين! فاقشعر العجوز "ن"، وقال: أعوذ بالله! هذه شجرة تخرج في أصل الجحيم، ولعنها الله من حكمة، فإنما يطبخونهم في الشجرة قبل الأكل، أو هم يجعلونهم كذلك؛ ليتوهموهم طيوراً فيكون لحمهم أطيب وألذ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حمائم وعصافير.

قال "م": إن كان في الوشيحة منطق فليس في هذا المنطق "باب لم"، ولا "باب كيف"، ولو كان بهم أن يأكلوهم، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة؛ فإن رؤية الرجل هذه الشجرة وهزها وعاقبتها يبعد عنه الضعف والتخلخل، ويدفعه إلى معاناة القوة، ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة وطمعاً فيها وتنشطاً لأسبابها، فيكون ساعده آخر شيء يهرم، ولا يزال في الحدة والنشاط والوثبان؛ فلا يعجز قبل يومه الطبيعي، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها إلى مجهودها، وأكروهها على أن تبذل من القوة ما يسع الجسم.

قال " ن " : فنعم إذن، ولعن الله معاني الضعف ؛ كدت والله أظن أنني لم أكن يوماً شاباً، وما أراك إلا متوحشاً تخاف أن تؤكل ، فتظل شيخاً رجلاً لا شيخاً طفلاً، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبه : مهما يبلغ فكثرت غير كثيرة .

قال المحدث : وأضجرني حوارهما ؛ إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان يتكلم ويقص ويعظ وينتقد، ولن يكون الشيخ معك في حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة ؛ فقلت لهما : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ . . .

قال محدثي : ولما قلت لهما : أيها العجوزان ، أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ نظر إلي العجوز الطريف " ن " ، وقال : يا بني ، أحسب رؤيتك إياي قد دنت بك من الآخرة . . . فتريد أن نلوذ بأخبار شبابنا ؛ لتنظر إلينا وفينا روح الدنيا .

قال الأستاذ " م " : وكيف لا تريه الآخرة وأكثرك الآن في "المجهول" ؟

قال : ويحك يا " م " ! لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا ؛ كأن الشيطان هو الذي يصلح في داخلك ما

اختل من قوانين الطبيعة ، فلا تستبين فيك السن وقد نيفت على
السبعين ، وما أحسب الشيطان في تنظيفك إلا كالذي يكنس
بيته . .

قال " م " : فأنت أيها العجوز الصالح بيت قد تركه
الشيطان وعلق عليك كلمة " الإيجار " . . فضحك " ن " ، وقال :
تالله إن الهرم لهو إعادة درس الدنيا ، وفهمها مرة أخرى فهمًا لا
خطأ فيه ؛ إذ ينظر الشيخ بالعين الطاهرة ، ويسمع بالأذن الطاهرة ،
ويلمس باليد الطاهرة . . . وتالله إن الشيطان لا معنى له إلا أنه
وقاحة الأعصاب .

قال " م " : فأنت أيها العجوز الصالح إنما أصبحت بلا
شيطان ؛ لأن الهرم قد أدب أعصابك . . .

قال العجوز الظريف : وعند من غيرنا - نحن الشيوخ - تطاع
الأوامر والنواهي الأدبية حق طاعتها ؟ عند من غير الشيوخ تقدر
مثل هذه الحكم العالية : لا تعتد على أحد . . . لا تفسد امرأة على
زوجها . . .

قال المحدث : وضحكننا جميعاً ، وكان العجوز " ن " من
الآيات في الظرف والنكتة ، فقال : تظنني يا بني في السبعين ؟ فوالله
ما أنا بمجلتي في السبعين ، والله والله .

قال " م " : لقد أهرت الشيخ ^{٤١} يا بني ؛ فإن هذا من خرفه
فلا تصدقه .

قال " ن " : والله ما خرقت وما قلت إلا حقاً ، فههنا ما
عمره خمس سنوات فقط ، وهو أسناني . .

قلت : " ورينا وريت " سنة ١٨٩٥ ؟

قال الأستاذ " م " : أنت يا بني من المجددين ، فما هواك
في القديم وما شأنك به ؟

وما كاد العجوز " ن " يسمع هذا حتى طرف بعينه ^{٤٢}
وحدد بصره إلي وقال : أئنك لأنت هو ؟ لعمرى إن في عينيك
لضجيجاً وكذباً وجدالاً واختيالاً وزعماً ودعوى وكفراً وإلحاداً ؛
ولعمرى . . .

فقطعت عليه وقلت : " لعمرك إنهم لفي سكرتهم
يعمّهون " ، لقد وقع التجديد في كل شيء إلا في الشيوخ أجساماً
والشيوخ عقولاً ؛ فهؤلاء وهؤلاء عند النهاية ، وغير مستنكر من
ضعفهم أن يدينوا بالماضي ، فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا
بضعف !

^{٤١} أي أخطأ في الرأي من تأثير الكبر .

^{٤٢} أي حرك أجفانهم .

قال العجوز: رحم الله الشيخ "ع" ؛ كان هذا يا بني رجلاً ينسخ للعلماء في زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة ، وهو رديء الخط ، فإذا ورق لأديب ، ولم يعجبه خطه فكلمه في ذلك تعلق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة ؛ منها عشرة للكتابة ، وعشرة غرامة لإهانة الكتابة . . .

نعم يا بني ، إن للماضي في قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن ، ولكن قاعدة " اثنان واثنان أربعة " ، لا تعد في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل ، والحقيقة بنفسها لا باسمها ؛ وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا في رأي المغفل .

قال الأستاذ "م" : وكيف ذلك؟

قال العجوز: زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل ، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار ، ولم تكن امرأته في دارها فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ ، وكان الحطب رطباً فدخن ولم يشتعل ، ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلبس ثوب امرأته وعاد إلى النار ، وكان الحطب قد جف فلم يكذب ينفخ حتى اشتعل وتضرم ؛ فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته . . . وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها!

قال الأستاذ "م" : إن الكلام في القديم والجديد أصبح عندنا كفنون الحرب تبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير في ذات نفسه ، وعلى ما بلغت وسائل الموت في القديم والجديد فإنها لم تستطع أن تميت أحداً مرتين .

لقد قرأت يا بني كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عندنا شيئاً ذا قيمة ؛ ما كان من هراء وتقليد فهو من عندهم ، وما كان جيداً فهو كالنفائس في ملك اللص : لها اعتباران ، إن كان أحدهما عند مقتنيها . . . فالآخر عند القاضي .

كلا أيها اللص ، لن تسمى مالكاً بهذا الأسلوب ؛ إنما هي كلمة تسخر بها من الناس ومن الحق ومن نفسك .

يقولون : العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر واستقلال الرأي ونبذ التقاليد وكسر القيود ، إلى آخره وإلى آخرها . . . فهذا كله حسن مقبول سائغ في الورق إن كان في مقالة أو قصة ، وهو سائغ كذلك حين ينحصر في حدوده التي تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض النفوس التي يمثل بها القدر فصوله الساخرة أو فصوله المبكية ، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوته الموجبة ، ترده الحياة عليهم بالقوة السالبة ؛ إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم ، وإذا كان في

الإنسانية هذا القانون الذي يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه - يهدم في الكون بصاحبه ؛ ففيها أيضاً القانون الآخر الذي يجعل الفكر الصحيح السامي حين يبني من أهله- يبني في الكون بأهله .

قال العجوز " ن " : زعموا أن أحد سلكي الكهرباء كان فيلسوفاً مجدداً، فقال للآخر : ما أراك إلا رجعيّاً ؛ إذ كنت لا تتبعني أبداً ولا تتصل بي ولا تجري في طريقي ؛ ولن تفلح أبداً إلا أن تأخذ مأخذي وتترك مذهبك إلى مذهبي . فقال له صاحبه : أيها الفيلسوف العظيم ، لو أنني اتبعتك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب في ؛ وما علمتك تشتمني في رأيك إلا بما تمدحني به في رأيي .

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياة أو العفة إلى آخرها وإلى آخره ؛ ونحن لا نرى هؤلاء المجددين عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتهما تلبست بعض العقول كما يتلبس أمثالها بعض الطباع فتزيغ بها ؛ وللحياة في لغتها العملية مترادفات كالمترادفات اللفظية : تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد ، فالمخرب والمخرف والمجدد بمعنى !

كل مجدد يريد أن يضع في كل شيء قاعدة نفسه هو ، فلو
أطعنهم لم تبق لشيء قاعدة .

قال الأستاذ " م " إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض
يجب أن تكون على سنتها وما تصلح به من الضبط والإحكام ،
والجلب لها والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة
المقدرة ، والسهولة في عملها الصعبة في تدبيرها ؛ فعلى نحو مما كانت
الحياة في بطن الأم يجب أن نعيش في بطن الكون بمحدود مرسومة
وقواعد مهياة وحيز معروف ؛ وإلا بقيت حركات هذا الإنسان
كحركات الجنين ؛ يرتكض ليخرج عن قانونه ، فإن استمر عمله
ألقي به مسخاً مشوهاً من جسد كان يعمل في تنظيمه ، أو قذف به
ميتاً من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانتته .

هذا الجسم كله يشرع للجنين ما دام فيه ، وهذا الاجتماع
كله يشرع للفرد ما دام فيه ؛ فكيف يكون أمر من أمر إذا كان الجنين
مجدداً لا يعجبه مثلاً وضع القلب ولا يرضيه عمل الدم ، ولا يريد
أن يكون مقيداً ؛ لأنه حر .

انظر إلى هذا الشرطي في هذا الشارع يضرب مقبلاً ليدبر ،
ومدبراً ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميز بها ، وهي تتكلم لغة
غير لغة الثياب ، وكأنها تقول :

أيها الناس ، إن ههنا الإنسان الذي هو قانون دائماً ،
والذي هو قوة أبداً ، والذي هو سجن حيناً ، والذي هو الموت إذا
اقتضى الحال .

أتحسب يا بني هذا الشرطي قائماً في هذا الشارع كجدران
هذه المنازل ؟ كلا يا بني ؛ إنه واقف أيضاً في الإرادة الإنسانية وفي
الحس البشري وفي العاطفة الحية ؛ فكيف لا يحويه المجددون مع أنه
في ذاته إرغام بمعنى ، وإكراه بمعنى غيره ، وقيد في حالة ، وبلاء في
حالة أخرى ؟

لكنه إرغام ليقع به التيسير ، وإكراه لتنتلق به الرغبة ، وقد
لتمجدد به الحرية ؛ وكان هو نفسه بلاء من ناحية ؛ ليكون هو نفسه
عصمة من الناحية التي تقابلها .

يا بني ، كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خلق
طيب - كل شيء من ذلك إنما هو على طريق المصالح الإنسانية
كهذا الشرطي بعينه : فإما تخريب العالم أيها المجددون ، وإما
تخريب مذهبكم . .

قال العجوز " ن " : أنبحث عما نتسلط به أم نبحث عما
يتسلط علينا ؟ وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ، أو

نكون نحن أشد منها وأقوى؟ هذه هي المسألة لا مسألة الجديد
والقديم .

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذي يعظم بنا ونعظم به ،
فسد الحس وفسدت الحياة ؛ وكل الأديان الصحيحة والأخلاق
الفاضلة إن هي إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة في آمالها
وغايتها عن الحياة نفسها في وقائعها ومعانيها .

قال المحدث : ورأيتني بين العجوزين كأني بين نابين ؛
ولم أكن مجدداً على مذهب إبليس الذي رد على الله والملائكة وظن
لحمه أن قوة المنطق تغير ما لا يتغير ؛ فسكت ، حتى إذا فرغا من
هذه الفلسفة قلت : والرحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟

قال المحدث : وتبين في العجوز " ن " أثر التعب ، فتوجع
وأخذ يئن كأن بعضه قد مات لوقته . . أو وقع فيه اختلال جديد ،
أو نالته ضربة اليوم ؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المعركة
الفاصلة بينه وبين أيامه .

ثم تأفف وتلملم وقال : إن أول ما يظهر على من شاخ
وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به .

قال الأستاذ " م " : إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة " مطبقة فيها " بعض المواد من قانون العقوبات فما خرج من المحكمة إلا في الحبس الثالث .

فضحك " ن " وقال : قد عرفنا " الحبس البسيط " و " الحبس مع الشغل " فما هو هذا الحبس الثالث ؟

قال : هو " الحبس مع المرض " . . .

قال " ن " : صدقت لعمرى ، فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا ؛ وكأن كرسي الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسي الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين . . . أتدري معنى قوله تعالى : { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ } ﴿النحل : ٧٠﴾ ولم سماه الأردل ؟

قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خلط الإنسان بعضه ببعض ، ومسه من أوله إلى آخره ، فلا هو رجل ولا شباب ولا طفل ، فهو أردأ وأردل ما في البضاعة . . .

فاستضحك الأستاذ " م " وقال : أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت في الثلاثين من عمري ، وهذا هو الذي جعلني فتى حين بلغت السبعين .

قال " ن " : كأن الحياة تصحح نفسها فيك .

قال : بل أنا كرهتها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفت من قبل أن سعة الإنفاق في الشباب هي ضائقة الإفلاس في الهرم ، وأيقنت أن للطبيعة " عدداً " لا يخطئ الحساب ، فإذا أنا اقتصدت عدت لي ، وإذا أسرفت عدت علي ؛ ولن تعطيني الدنيا بعد الشباب إلا مما في جسمي ؛ إذ لا يعطي الكون حياً أراد أن ينتهي منه ، فكنت أجعل نفسي كالشيخ الذي تقول له الملذات الكثيرة : لست لك ؛ ومن ثم كانت لذاتي كلها في قيود الشريعتين : شريعة الدين وشريعة الحياة .

قال : وعرفت أن ما يسميه الناس وهن الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عمل الإنسان في تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسرور والحزن واللذة والألم ، فكنت مع الجسم في شبابه ليكون معي بعد شبابه ، ولم أبرح أتعاهده كما يتعاهد الرجل داره : يزيد محاسنها وينفي عيوبها ، ويحفظ قوتها ويتقي ضعفها ؛

ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر في يومها القريب لغدها البعيد ، فلا ينقطع حساب آخرها وإن بعد هذا الآخر ، ولا يزال أبداً يحتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع .

قال العجوز " ن " : صدقت -والله- فما أفلح إلا من اغتنم الإمكان ؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب ؛ وهذا الجسم الإنساني كالمدينة الكبيرة فيها " مجلسها البلدي " القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ؛ ورئيس هذا المجلس الإرادة ، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كغيره من القوانين : إذا لم ينفذ من الأول لم يغن في الآخر .

قال الأستاذ " م " : وكل جهاز في الجسم هو عضو من أعضاء ذلك " المجلس البلدي " فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلي والجهاز العصبي والدورة الدموية ، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سنتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة ، أو مفسدة من زينة ، أو مطمعة في رفاهية ، أو دعوة إلى مدنية ، أو شيء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها ويضعف طبيعتها .

والقاعدة في العمر أنه إذا كان الشباب هو الطفولة الثانية في براءته وطهارته ، كانت الشيخوخة هي الشباب الثاني في قوتها

ونشاطها؛ وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحقائق إلى آخر العمر في هذا الإنسان؛ فسر الطفولة إنما هو في قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة، فلا يطغيها الغنى، ولا يكسرها الفقر، ولا تذللها الشهوة، ولا يفرعها الطمع، ولا يهولها الإخفاق، ولا يتعاضمها الضر، ولا يخيفها الموت؛ ثم لا تمل وهي الصابرة، ولا تبالغ وهي الراضية، ولا تشك وهي الموقنة، ولا تسرف وهي القانعة، ولا تتبلد وهي العاملة، ولا تجمد وهي المتجولة؛ ثم هي لا تكلف الإنسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التي يملكها كل قلب؛ ولا توجب شريعتها في المعاملة إلا قاعدة الرحمة، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر؛ ثم تتحكم بالدنيا أكثر ما تهتم لها، وتستغني فيما أكثر مما تحتاج، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن، قل أو كثر.

وبكل هذا تعمل الطفولة في حراسة الحياة الغضة واستمرارها ونموها، ولولا ذلك لما زها طفل ولا شب غلام، ولا رأت العيون بين هموم الدنيا ذلك الرواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يثبتان أن البراءة في النفس أقوى من الطبيعة.

وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدين في تهذيب الحياة واطرادها على أصولها القوية السليمة، ومتى قوي

هذا الدين في إنسان لم تكن مفسد الدنيا إلا من وراء حدوده ،
حتى كأنه في أرض وهي في أرض أخرى ، وأصبحت البراءة في
نفسه أقوى من الطبيعة .

ثم قال : والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق
أبدًا بأحسن معانيه وأكملها إلا في قلبين : قلب الطفل ؛ لأنه طفل ،
وقلب المؤمن ؛ لأنه مؤمن .

فقال العجوز " ن " : إنه لكما قلت ، ولعنة الله على هذه
الشهوات الآدمية الباطلة ، فإن الشهوة الواحدة في ألف نفس
لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادية متنازعة ؛
والطامعان في امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هي الشهوة
وهي القتل ؛ ولعنة الله على الملحدن وإلحادهم ، يزرون على
الأديان بأنها تكاليف وقيود وصناعة للحياة ، ثم لا يعلمون أن كل
ذلك لصناعة الآلة النفسية التي تستطيع أن تحرك المختلفين حركة
واحدة ، فما ابتليت الإنسانية بشيء كما ابتليت بهذا الخلاف الذي
يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجني ، ويجعل النفرة
وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة .

لقد جاء العلم بالمعجزات ، ولكن فيما بين الإنسان
والطبيعة ، وبين الإنسان ومنافعه ، وبين الإنسان وشهواته ؛ فهل

غير الدين يحىء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس ، وبين النفس وهمومها ، وبين ما هو حق وما هو واجب؟

قال المحدث : ثم نظر إليَّ العجوز " ن " وقال : صل عمك يا بني بالأحاديث الذي مضى ، فأين بلغنا آنفًا من أمر التجديد والمجددين؟ وماذا قلنا وماذا قلت؟ أما إن الحماسة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد، كل ذلك إن كان جديدًا من صاحبه فهو قديم في الدنيا؛ وليس عندنا أبدًا من جديد إلا إطلاق الحرية في استعمال كل أديب حقه في الوقاحة والجهل والغرور والمكابرة .

قال الأستاذ " م " : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ، ولكن بالباطن الذي هو فيه ، فمستشفى المجاذيب قصر من القصور في ظاهره ، ولكن المجاذيب هم حقيقته لا البناء ، وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم ، وهو في الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات ؛ وعلى هذا ما الذي يمنع الفجور المتوقع أن يسمى نفسه الأدب المكشوف؟

قال " ن " : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة . . . وأن " لا أدبية " رجل الفن هي " اللا أخلاقية العالمية "

قال الأستاذ "م" : فوقاحة الشهوة إذا استعلت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت إلى مذهبها ، كانت تجديداً ما في ذلك ريب ؛ ولكن هذا المذهب هو أقدم ما في الأرض ، إذا هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعا من البهائم منذ خلق الله البهائم . .

قال "ن" : وقل مثل ذلك في متسخط على الله وعلى الناس يخرج من كفره بين أهل الأديان أدباً جديداً ، وفي مغرور يتغفل الناس ، وفي لص آراء ، وفي مقلد تقليداً أعور - كل واحد من هؤلاء وأشباههم مبتلى بعله ، فمذهبه رسالة علة ؛ وأكثرهم لا يكون ثباته على الرأي الفاسد إلا من ثبات العلة فيه .

قال المحدث : وكنت من المجددين ، فأرْمِضْنِي ذلك وقلت للعجوزين : إن هذا نصف الصحيح ، أما النصف الآخر فهو في كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة ؛ نعم إنهم لا يستعملون حقهم في الوقاحة ، ولكن القروش تستعمل حقها . .

فضحك العجوز "ن" ، وقال : يا بني ، إن الجديد في كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى . . . فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن التسمية وحدها هي الجديدة ؛ ولو كان البرهان في حلق الحمار لصح هذا الجديد ، غير

أن التصديق والتكذيب هنا في آذان الموسيقين لا في حلق همارنا
المحترم

قال " م " : وزعموا أن رجلاً نصب فخاً لصيد العصافير ،
فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ إلى شيء جديد ، فقال : يا هذا ،
ما لك مطموراً في التراب؟ قال الفخ :

ذلك من التواضع لخلق الله ! قال : فمم كان انحناءك؟ قال
الفخ : ذلك من طول عبادتي لله ! قال : فما هذه الحبة عندك؟ قال
الفخ : أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها ! قال
العصفور : فتبيحها لي؟ قال : نعم .

فتقدم المسكين إليها ، فلما التقطها وقع الفخ في عنقه ،
فقال وهو يختنق : إن كان العباد يخنقون مثل هذا الخنق فقد خلق
إبليس جديد .

قال " ن " : فالحقيقة أن إبليس هو الذي تجدد ؛ ليصلح
لزمناً الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة
والتحول ؛ وما دام الرقي مطرداً وهذا العقل الإنساني لا يقف عند
غاية في تسخير الطبيعة ، فسيتتهي الأمر بتسخير إبليس نفسه مع
الطبيعة ؛ لاستخراج كل ما فيه من الشر .

قال "م" : ولكن العجب من إبليس هذا؛ أترأه انقلب
أوروبياً للأوربيين؟ وإلا فما باله يخرج مجددين من جبابرة العقل
والخيال، ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة؟
قال المحدث : فقلت لهما : أيها العجوزان القديمان،
سأنشر قولكما هذا ليقرأه المجددون .

قال الأستاذ "م" : وانشر يا بني أن الربيع -صاحب الإمام
الشافعي، مريوماً في أزقة مصر فنثرت على رأسه إجانة^{٤٣} مملوءة
رماداً، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه، فقيل له : ألا
تزجرهم؟ قال : من استحق النار وصولح بالرماد فليس له أن
يغضب! . . .

ثم قال محدثنا : واستولى علي العجوزان، ورأيت قولهما
يعلو قلبي، وكنت في السابعة والعشرين، وهي سن الحدة
العقلية، فما حسبتني معهما إلا ثلث عجوز . . مما أثرا علي،
وانقلبت لا أرى في المجددين إلا كل سقيم فاسد، واعتبرت كل
واحد منهم بعلته، فإذا القول ما قال الشيخان، وإذا تحت كل رأي
مريض مرض، ووراء كل اتجاه إبرة مغناطيسية طرقها إلي
الشیطان

^{٤٣} قصعة.

وفرغنا من هذا، فقلت للشيخين: لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان، أما كنتما في سنة ١٨٩٥ من الجنس البشري...؟

قال محدثنا: وكنت قد ضقت بهذه اللجاجة الفلسفية، ورأيتني مضطعنا على الشيخين معاً، فقلت العجوز "ن": حدثني "رحمك الله" بشيء من قديمكما، فأنتما اختصار لكل ما مر من الحياة يستدل به على أصله المطول إلا في الحب... وما زلتما في جد الحديث تعبثان بي منذ اليوم، فقد عدلتما بي إلى شأنكما ورأيكما في القديم والجديد، وبقي أن أميل بكما ميلة إلى سنة ١٨٩٥، وقد والله كاد ينتحر قلبي ياساً من خبر "كاترينا ومرغريت"؛ ولكأنك تخشي إذ أعلمتني خبر صاحبك هذه وهي وراء أربعين سنة ما تخافه من رجل سيفجؤك معها في الخلوة على حال من الريبة فيأخذك "متلبساً بالجريمة" كما تقولون في لغة المحاكم....

قال : فضحك العجوزان وقال " ن " : لا والله- يا بني ،
ولكني أقول ما قال ذلك الحكيم العربي ^{٤٤} لقومه وقد بلغ مائتي
سنة : " قلبي مضغة من جسدي ، ولا أظنه إلا قد نحل سائر
جسدي " ، واعلم يا بني أنه إذا ذهب الحب عن الشيخ بقي منه
الحنان يعمل مثل عمله ، فيحب العجوز مكانا أو شيئا أو معنى أي
ذلك كان ، ليعيده ذلك إلى الدنيا أو يبقيه فيها " بقدر الإمكان "
...

فضحك الأستاذ " م " وقال : ولعل ثرثرة العجوز " ن "
هي الآن معشوقة العجوز " ن " .

ثم قال : وكل شيء يرق في قلب الرجل الهرم ويحول
وجهة كأنه لا يطبق أن ينظر إلى معناه الغليظ ؛ ولا بد أن يخرج
العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا ؛ ولهذا لا يهنأ
الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر ، وقدر الأمور على ما
هو فيه لا على ما كان فيه ؛ والفرف بين جسمه الحاضر وبين جسمه
الماضي أن هذا الماضي كانت تحمل أعضاؤه ، فهو مجتمع من
أعمالها وشهواتها ، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها ؛ أما

^{٤٤} هو أكثم بن صيفي حكيم العرب ، قالها لقومه في سفرهم إلى النعمان بن المنذر كيلا
يتكلوا عليه في حيلة ولا منطق ؛ ويقال : إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة ، وفي معنى السنة
عن العرب كلام ليس هذا موضعه .

الحاضر، أما الجسم الهرم، فهو يشعر أنه يحمل أعضاء كلها ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر. . . وكان بعضها يسلم على بعض سلام الوداع يقول: تفارقني وأفارقك.

فتململ الأستاذ "م" وقال: أف لك ولما تقول! لا جرم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية؛ أليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليكون ظاهراً فقط كعمشوش العنقود^{٤٥} بعد ذهاب الحب منه، يقول: كان هنا وكان هنا؟

ألا فاعلم يا "ن" أن هذه الشيخوخة إنما هي غلبة روحانية الجسم على بشريته، فهذا طور الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها؛ غير أن لذاته بين الروح والجمال، ومسراته بين العقل والطبيعة، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة في إدراك الروح وقوتها وشدتها ونورها؛ قد قيل لبعض أهل هذا الشأن وكان في مرض موته: كيف تجد العلة؟ فقال: سلوا العلة عني كيف تجدني.

^{٤٥} هو ما يبقى من العنقود بعد أكل ما فيه من الحب.

وإنما تثقل الشيخوخة على صاحبها إذا هي انتكست فيه وكانت مراغمة بينه وبين الحياة، فيطمع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلق به ويتسخط على ذهابه وتصنع له ويتكلف أسبابه، وقد نسي أن الحياة رده طفلاً كالطفل، أكبر سعادته في التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة، وأقوى لذته أن يتفق الجمال الذي في خياله والجمال والذي في الكون، وإنه لكما قلت أنت: لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر.

وما أصدق وأحكم هذا الحديث الشريف: "إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط". فهذه في قاعدة الحياة: لا تعاملك الحياة بما تملك من نفسك، وبذلك تكون السعادة في أشياء حقيقة ممكنة موجودة، بل تكون في كل ما أمكن وكل ما وجد؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها، ومن الأسرار التي فيها، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والأخيلة المثقلة عليها.

فأطرق العجوز "ن" قليلاً ثم قال: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي} ﴿مريم: ٤﴾، ألا ما أحكم هذه الآية! فوالله إن قرأت ولا

قرأ الناس في تصوير الهرم الفاني أبدع منها ولا أدق ولا أوفى ؛ ألا تحس أن قائلها يكاد يسقط من عجب وهزال وإعياء ؛ وأنه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل ، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه فأخل به ، وأن معاني التراب قد تعلقت بهذا الجسم تعمل فيها عملها ، فأخذ يتفتت كأنما لمس القبر عظامه وهو حي ، وأنه بهذا كله أوشك أن ينكسر انكسار العظم بلغ المبرد فيه آخر طبقاته ؟

قال محدثنا : فقلت له : ترى لو أن نابغة من نوابغ التصوير في زمننا هذا تناول بفننه ذلك المعنى العجيب فكتبه صورة وألواناً ، لا أحرافاً وكلمات ، فكيف تراه كان يصنع ؟

قال : كان يصنع هكذا : يرسم منظر الشتاء في سماء تعلق سحبها كثيفاً متراكباً بعضه على بعض يخيل أن السماء تدنو من الأرض ، وقد سدت السحب الآفاق وأظلم الجو ظلامه تحت النهار المغطى ، واستطارت بينها وشائع من البرق ، ثم يترك من الشمس جانب الأفق لمعة كضوء الشمعة في فتق فن فتوق السحاب ، ثم يرسل في الصورة ريحاً ياردة هو جاء يدل عليها انحناء الشجر وتقلب النبات ، ثم يرسم رجالاً ونساء يغلي الشباب فيهم غليانه

من قوة وعافية، وحب وصباية، وتغلي فيهم أفكار أخرى . . .
وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى مرقص ؛ وهم جميعاً من المجددين .
ثم يرسم يا بني في آخرهم " على بعد منهم " عمك
العجوز " ن " ، يرسمه كما تراه منحل القوة منحني الصلب ،
مرعشاً متزلزلاً متضععاً ؛ قد زعزعته الريح ، وضربه البرد ،
وخنقته السحب ؛ وله وجه عليه ذبول الدنيا ، ينبئ أن دمه قد وضع
من جسمه في برادة ، والكون كله من حوله ومن فوقه أسباب
روماتيزم . .

ثم يصوره وقد وقف هناك ساهماً كئيباً ، رافعاً رأسه ينظر
إلى السماء .

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، ثم قال الأستاذ " م " :
لعمري إن هذه الحياة الآدمية كالآلة صاحبها مهندسها ؛ فإن
صلحت واستقامت فمن علمه بها وحياطته لها ، وإن فسدت
واختلت فمن عبثه فيها وإهماله إياها ، وليس على الطبيعة في ذلك
سبيل لائمه ؛ والشيخ الضعيف ليس في هذه الدنيا إلا الصورة
الهزلية لمفاسد شبابه وضعفه ولينه ودعته ، تظهرها للدنيا ليسخر
من يسخر ويتعظ من يتعظ .

قال " ن " : أذكلك هو يا أستاذ؟

قال الأستاذ: بل هي الصورة الجذبة من هذه الباطلة التي دأبها ألا تصرح عن حقيقتها إلا في الآخر، فتظهرها الدنيا ليجل الحقيقة من يجلها؛ وليس إلا بهذه الطريقة يعرف من خراب الصورة خراب المعنى.

قال العجوز "ن": آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها! إنهم يرونه احتراماً للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية، وما الأشيخ الهرمي إلا جنازات قبل وقتها، لا توحى إلى الناس شيئاً غير وحي الجنازة من مهابة وخشوع.

قال الأستاذ: بل هي الصورة الجذبة من هذه الباطلة التي دأبها ألا تصرح عن حقيقتها إلا في الآخر، فتظهرها الدنيا ليجل الحقيقة من يجلها؛ وليس إلا بهذه الطريقة يعرف من خراب الصورة خراب المعنى.

قال العجوز "ن": آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها! إنهم يرونه احتراماً للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية. وما الأشيخ الهرمي إلا جنازات قبل وقتها، لا توحى إلى الناس شيئاً غير وحي الجنازة من مهابة وخشوع.

قال الأستاذ: إنما أنت دائماً في حديث نفسك، ولو كنت نهراً يا مستنقع لما كان في لغتك هذه الأحرف من البعوض.

قال العجوز الظريف : إن هذا ليس من كلام الفلسفة التي
تتنازعها بيننا ، ترد علي وأرد عليك ، ولكنه كلام القانون الذي لك
وحدك أن تتكلم به أيها القاضي .

قال " م " : صرح وبيّن ؛ فما فهمنا شيئاً .

قال العجوز : هذا كلام قلته قديماً في حادثة عجيبة ، فقد
رفعت إلي ذات يوم قضية شيخ هرم كان قد سرق دجاجة ؛
وتوسمته فإذا هو من أذكى الناس ، وإذا هو يجل عن موضعه من
التهمة ، ولكن صح عندي أنه قد سرق ، وقامت البينة عليه
ووجب الحكم ؛ فقلت له : أيها الشيخ ، ما تستحي وأنت شائب أن
تكون لصاً ؟

قال : يا سيدي القاضي ، كأنك تقول لي : ما تستحي أن
تجوع ؟

فورد علي من جوابه ما حيرني ، فقلت له : وإذا جعلت
أما تستحي أن تسرق ؟ قال : يا سيدي القاضي ، كأنك تقول لي :
وإذا جعلت أما تستحي أن تأكل ؟

فكانت هذه أشد علي ، فقلت له : وإذا أكلت أما تأكل إلا
حراماً ؟

فقال : يا سيدي القاضي ، إنك إذا نظرت إلي محتاجاً لا أجد شيئاً ، لم ترني سارقاً حين وجدت شيئاً .

فأقحمني الرجل على جهله وسذاجته ، وقلت في نفسي : لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا؟ فتركت الكلام بالفلسفة وتكلمت بالقانون الذي لا يملك الرجل معه قولاً يراجعني به ، فقلت : ولكنك جئت إلى هذه المحكمة بالسرقة ، فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين .

قال محدثنا : وأرمضني هذا العجوز الثرثار وملأ صدري ، إذ ما برح يديرني وأديره عن " كاترينا ومرغريت " ، ورأيت كل شيء قد هرم فيه إلا لسانه ، فحملني الضجر والطيش على أن قلت له : وهب القضية كانت هي قضية " كاترينا " وقد رفعت إليك متهمة ، أفكنت قائلاً لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين؟

وجرت الكلمة على لساني وما ألقيت لها بالاً ولا عرفت لها خطراً؛ فاكفهر القاضي العجوز وتربد وجهه غضباً ، وقال : يا بغيض ! أحسبتي كنت قائلاً لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاضي . . . ؟

وغضب الأستاذ "م" : وقال : ويحك ! أهذا من أدبكم
الحديد الذي تأديتم به على أساتذة منهم الفجرة الذين يكذبون
الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ويسوغونكم مذاهب الحمير
والبغال في حرية الدم . ؟ أما إني لأعلم أنكم نشأتم على حرية
الرأي ، ولكن الكلمة بين اثنين لا تكون حرة كل الحرية إلا وهي
أحياناً سفیهة كل السفاهة ، كهذه القولة التي نطقت بها .

لقد كان الناس في زمننا الماضي أناساً على حدة ، وكانت
الآداب حالات عقلية ثابتة لا تتغير ولا يجوز أن تتغير ، وكان
الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كالومس ؛
تجهد أن تربي بنتاً على غير طريقتهما !

قال المحدث : فلجلجت وذهبت أعذر ، ولكن العجوز
"ن" قطع علي وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه : لقد تمت في هؤلاء
صنعة حرية الفكر ، كما تمت من قبل في ذلك الواعظ^{٤٦} المعلم
القديم الذي حدثوا عنه أنه كان يقص على الناس في المسجد كل
أربعاء فيعلمهم أمور دينهم ويعظهم ويحذرهم ويذكرهم الله
وجتته وناره ؛ قالوا : فاحتبس عليهم في بعض الأيام وطال

^{٤٦} هو أبو كعب القاص ، ذكره الجاحظ في الحيوان وقال إنه كان يقص كل أربعاء في
مسجد عتاب بالبصرة .

انتظارهم له ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا قد أصبحت مخموراً . . .

هذا القاص المخمور هو عند هؤلاء السخفاء إمام في مذهب حرية الفكر ، وفضيلته عندهم أنه صريح غير منافق . . . وكان يكون هذا قولاً في إمام المسجد لولا أنه إمام المسجد ؛ غير أن حرية الفكر تبنى دائماً في كل ما تبنى على غير الأصل ، وعندها أن المنطق الذي موضوعه ما يجب ، ليس بالمنطق الصحيح ؛ إذ لا يجب شيء ما دام مذهبها الإطلاق والحرية .

كل مفتون من هؤلاء يتوهم أن العالم لا بد أن يمر من تفكيره كما مر من إرادة الخالق ، وأنه لا بد له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمة سخيفة تجعله يحكم ، ولا بد أن يقول " كن وإن لم يكن إلا جهله ؛ ومذهبه الأخلاقي : اطلب أنت القوة للمجموع ، أما أنا فألتمس لنفسي المنفعة واللذة ! ويحسبون أنهم يحملون المجتمع ، فإنهم ليحملونه ، ولكن على طريقة البراغيث في جناح النسر .

قال " م " : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن طائفة من البراغيث اتصلت بجناح نسر عظيم واستمرأته ورتعت فيه ، فصابرها النسر زمناً ، ثم تأذى بها وأراد أن يرميها عنه ، فطفق ينفق بجناحيه يريد نفضها ، فقالت له

البراغيث : أيها النسر الأحق ! أما تعلم أننا في جناحيك لنحملك
في الجو؟ . .

أما أساتذة هذه الحرية الدينية الفكرية الأدبية ، فقد قال
الحكماء : إن بكرة من البعر كانت معلمة في مدرسة .

قال " م " : وكيف ذلك؟

قال : زعموا أن بكرة كبش كانت معلمة في مدرسة
الحصى ، فألفت لتلاميذها كتاباً أحكمته وأطالت له الفكرة ،
وبلغت فيه جهد ما تقدر عليه لتظهر عبقريتها الجبارة ؛ فكان الباب
الأكبر فيه أن الجبل خرافة من الخرافات ، لا يسوغ في العقل الحر إلا
هذا ، ولا يصح غير هذا في المنطق ؛ قالت : والبرهان على ذلك
أنهم يزعمون أن الجبل شيء عظيم ، يكون في قدر الكبش الكبير
ألف ألف مرة ؛ فإذا كان الجبل في قدر الكبش ألف ألف مرة فكيف
يمكن أن يبعره الكبش؟

قال الأستاذ " م " : هذا منطق جديد سديد لولا أنه منطق

بكرة!

قال " ن " : وكل قديم له عندهم جديد ، فكلمة " رجل "
قد تختث ، وكلمة " شاب " قد تأثت ، وكلمة " عفيفة " قد
تدنست ، وكلمة " حياء " قد تنجست ؛ والزمن الجديد ألا يعرف

الطالب في هذا العام ماذا تكون أخلاقه في العام القادم . . والحياة الجديدة أن تتقن الغش أكثر مما تتقن العمل . . والذمة الجديدة أن مال غيرك لا يسمى مالاً إلا حين يصير في يدك . . والصدق الجديد أن تكذب مائة مرة، فعسى أن يصدق الناس منها مرة . . ثم الإنسان الجديد، والحب الجديد، والمرأة الجديدة، والأدب الجديد، والدين الجديد، والأب الجديد، والابن الجديد، وما أدري وما لا أدري .

قالوا: السوبرمان، وتنطعوا في إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه، فسخرت منهم الطبيعة فلم تخرج إلا الناقص أفحش النقص، وتركهم يعملون في النظرية وعملت هي الحقيقة . قال محدثنا: ونهض العجوز "ن" وهو يقول: تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق! لو فهموا عنك لفهموا الحكمة في أنك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة . . .

قال: ولما انصرف العجوز، قلت للأستاذ "م": ولكن ما خبر "كاترينا" و "مرغريت" وسنة ١٨٩٥؟

فقال: أيها الأبله، أما أدركت بعد أن العجوزين قد سخرنا منك بأسلوب جديد . .

القلب المسكين

أقبل علي صاحبي الأديب وقال : انظر ، هذه هي ، وقد حلت بهذا البلد وما لي عهد بها منذ سنة . ومد إلي يده فنظرت إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهًا وجسمًا ، تتأود في غلالة من اللاذ^{٤٧} .

وكان شعاع الضحى في وجهها ، وكأنها القمر طالعًا من غيمة ، ويكاد صدرها يتنهد وهي صورة ، وتبدو هيئة فمها كأنها وعد بقبلة ، وفي عينها نظرة كالسكوت بعد الكلمة التي قيلت همسًا بينها وبين محبها .

فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصور وإبليس ؛ فمن هي ؟ قال : سلها ، أما تراها تكاد تثب من الورقة ؟ إنها إلا تخبرك بشيء أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسن من شاهدت وجهًا وأعينًا ، وثغراً وجيداً والذي بعد ذلك . .

قلت : ويحك ، لقد شعرت بعدي ، إن هذا شعر موزون :

^{٤٧} اللاذ: الحرير الصيني الرقيق، والغلالة: مثل القميص الذي تحت الثياب.

وأحسن من شاهدت وجهاً وأعيناً . وثغراً وجيداً والذي بعد ذلكا
قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً ؛ أأست تراه
ناظماً من فنونها على الرسم شعراً معجزاً كل شاعر؟
قلت : وهذا أيضاً شعر موزون :

أأست تراه ناظماً من فنونها . . على الرسم شعراً معجزاً كل شاعر
قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها ، يريك لهذا
الجسم روحاً رشيقة ، تلين كلين الجسم ، بل هي أرشق .
قلت : وهذا أيضاً ، والقافية التي بعد هذا البيت : وبها
شقوا . . .

فضحك صاحبنا وقال : حرك الصورة في يدك ، فإنك
ستراها وما تشك أنها ترقص .
قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهذا ليس شعراً ولا يحىء
منه وزن .

وتضاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل في
الرسم كأنه يضحك .

قال صاحب القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إنها
من العيون التي تفتن الرجل وتسحره متى نظرت إليه ، وتعذبه
وتضنيه متى غابت عنه ؛ إن في شعاعهما قدرة على وضع النور في

القلب السعيد ، كما أن في سوادهما القدرة على وضع الظلمة في القلب المهجور .

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذي تعجز كل حدائق الأرض أن تخرج وردة حمراء تشبهه .

وانظر إلى هذا الجيد تحته ذلك الصدر العاري ، فوقه ذلك الوجه المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روح الشمس ، وأما الجيد ففيه روح النجم ، وأما الصدر ففيه روح القمر الضاحي .

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها ، تلك منطقة القبلات في جغرافيا هذا الجمال . . .

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الشدين الناهدين ؛ إنه المعرض الذي اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان . . .

انظر إلى النهدين لم برزا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحديان الصدر الآخر . . . ؟!

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنة متواضعة بين فتنين متكبرتين . . . ؟

انظر إليها كلها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ،
وهذا الإغراء ؛ ألا ترى الكنز الذي يحول القلب إلى لص . . ؟
هذه مخلوقة مرتين : إحداهما من الله في العالم ، والأخرى
من حبي أنا في نفسي أنا : فكلمة " جميلة " التي تصف المرأة التامة ،
لا تصفها هي بعض الوصف ؛ ورسمها هذا الذي تراه هو حدود
لتلك الروح التي فيها قوة التسلط ، وهيئات يظهر من تلك الروح
إلا ما يظهر من الجمرة المشتعلة رسم هذه الجمرة في ورقة .
أشهد ما نظرت مرة إلى هذا الرسم ثم نظرت إليها إلا
وجدت الفرق بينها في نفسها وبينها في الصورة ، كأنه اعتذار ناطق
من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة .

قلت : اللهم غفرا ؛ ثم ماذا يا صديقي المجنون ؟
فأطرق الأديب مهموماً ، وكانت أفكاره تنفجر في دماغه
انفجاراً هنا وانفجاراً هناك ؛ ثم رفع إلى رأسه ، وقال :
هذه الغانية قد حبست أفكارى كلها في فكرة واحدة منها
هي ؛ وأغلقت أبواب نفسي ومنافذها إلى الدنيا ، وألهبت في دمي
جمرة من جهنم فيها عذاب الإحراق وليس فيها الإحراق نفسه ؛
كيلا ينتهي منها العذاب !

وبيننا حب بغير طريقة الحب ، فإن طبيعتي الروحانية
الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشرية الناقصة ، فأنا أمازجها بروحي
فأتألم لها ، وأتجنبها بجسمي فأتألم بها .

حب عقيم مهما يكن من شيء فيه لا يكن فيه شيء من
الواقع . . .

حب عجيب لا تنتفي منه آلامه ولا تكون فيه
لذاته

حب معقد لا يزال يلقي المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض
الحل الذي لا تحل المسألة إلا به . . .

حب أحرق يعشق المرأة المبدولة للناس ، ولا يراها لنفسه
إلا قديسة لا مطمع فيها . . .

حب أبله لا يزال في حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على
شفتيه قبلة من الفم الذي في الصورة . . .

حب مجنون كالذي يرى الحساء أمام مرآتها فيقول لها
أذهبي أنت وستبقي في هذه التي في المرأة . . .

قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا يا صاحبي المسكين ؟

قال : ثم هذه التي أحبها هي التي لا أريد الاستمتاع بها
ولا أطيعه ولا أجد في طبيعتي جرأة عليه ، فكأنها الذهب وكأني

الفقير الذي لا يريد أن يكون لصاً؛ يقول له شيطان المال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان الحاجة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة !

إن عذاب هذا بشيطين لا بشيطان واحد ، غير أن لذته في انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد .

قلت : اللهم عفواً ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟

فأطرق ملياً كالذي ينظر في أمر قد حيره لا يتوجه له في أمره وجه ، ثم تنهد وقال : يا طول علة قلبي ! من أين أجيء لأحلامي بغير ما تجيء الأحلام به ، وإنما هي تحت النوم ووراء العقل ، وفوق الإرادة ؟ لقد بلغ بين هواها أن كل كلمة من كلام الحب في كتاب أو رواية أو شعر أو حديث - أراها موجهة إليّ أنا . . ثم قال : انطلق بنا فتراها حتى تعلم منها علماً ، فهي في ذلك المسرح ، هي في ذلك الشر ، هي في تلك الظلمات ، هي كاللؤلؤة لا تتربى لؤلؤة إلا في أعماق بحر .

وذهبنا إلى مسرح يقوم في حديقة غناء مترامية الجهات بعيدة الأطراف ، تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مثقلة بمعاني الهجر والعشق .

وتقدمنا نسير في الغبش ، فقال صاحبنا المحب : إني لأشعر أن الظلام هنا حي كأن فيه غوامض قلب كبير ، فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه وبين الجلوس إلى فيلسوف عظيم مهموم بهم اللانهاية ، فتعال نبرز إلى ذلك النور حول المسرح لنراها وهي مقبلة ، فإن رؤيتها سيدة غير رؤيتها راقصة ، ولهذه جمال فن ولتلك فن جمال .

ولم نلبث إلا يسيراً حتى وافت ، ورأيتها تمشي مشية الخفريات كأنما تحترم أفكار الناس ، يزهوها على ذلك إحساس نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبة شعبها ، وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا في طريقها ، وكأن لذة قربها منه هي الممكن الذي لا يمكن غيره . . .

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء في الحديقة واضطربت أشجارها ، فقال : أنت ترى ؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة ! قلت : آه يا صديقي ! إن المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وجدت في جو قلب يعشقها . ونفذنا إلى المسرح ، وتحرى صاحبنا موضعاً يكون فيه منظر العين من صاحبه ويكون مستخفياً منها ، ثم رفع الستار عنها بين

اثنين يكتنفانها، وقد لبسن ثلاثهن أثواب الريفيات، وظهرن
كهيتتهن حين يجنين القطن .

وبرزت " تلك " في ثوب من الحرير الأسود، وهي بيضاء
بياض القمر حين يتم وقد شدت وسطها بمشدة من الحرير الأحمر،
فتحبكت بها وظهرت شيئين :

أعلى وأسفل ؛ ثم أَلقت على شعرها الذهبي قلنسوة
حمراء من ذلك الحرير أمالتها جانباً فحبست شيئاً منه وأظهرت
سائره، وأخذت بيديها صفاقتين^{٤٨} وأقبل الثلاث يرقصن ويغنين
نشيد الفلاحة .

لم أنظر إلى غيرها، فقد كانت صاحبها دليلين على
جمالها لا أكثر ولا أقل، وما أحسب الحرير الأحمر، كان معها أحمر
ولا الأسود كان عليها أسود، ولا لون الذهب في معصمها كان
لون الذهب ؛ كلا كلا، هذه ألوان فوق الطبيعة ؛ لأن الوجه يشرق
عليها بالجمال والحياة، وذلك الجسم يفيض لها بالخفة والطرب
وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة ؛ هذا مزيج من خمر الألوان
لا من الألوان نفسها .

^{٤٨} الصفاقات: هي التي يقال لها الساجات، تكون في أصابع الراقصة، والكلمة واردة في
كتاب الأغاني.

وقال مجنوننا: إن أجهل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يجعل لكل إنسان نوع شعوره بها، وأنا أشعر الساعة أن قلبي نصف قلب فقط، وأن نصفه الآخر في هذه وحدها؛ فما شعورك أنت؟

قلت: يا صديقي. إن الله رحيم، ومن رحمته أنه أخفى القلب وأخفى بواعثه ليظل كل إنسان مخبوءاً عن كل إنسان؛ فدعني مخبوءاً عنك!
قال: لا بد!

قلت: إن المصباح في الموضع النجس لا يبعث النور نجساً، وما أشعر إلا أن النور الذي في قلبي قد امتزج بالنور الذي في عينيها.

ثم كأنها أحست بأن إنساناً قد امتلأ بها، فأدارت وجهها وهي ترقص، فتلمحت صاحبنا، وجعلت تقطع الطرف بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله، ثم تبينت إلحاح نظره فضحكت؛ لأنها تعرفه ولا تجهله!

أما هو، أما المجنون، أما صاحب القلب المسكين!

... أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبتة وهي ترقص حين عرفته - غير ما رأيته أنا وغير ما رأى الناس : كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فم جميل يتم جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغة من هذا الفم الجميل يتم بها حديثاً قديماً كان بينهما ؛ واعترانا منها الطرب واعتراه منها الفكر ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق ، ومررت علينا شعاعاً في الضوء ووقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسم مكتوب ...

وقوي إحساس الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدل على نفسه ضروريا من الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة بفنون الرمز والإيماء ، وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة ؛ وللمرأة لحظات تكون فيها بكفرين حينما يكون أحد الفكرين ماثلاً أمامها في رجل تهواه ؛ ففي هذه الساعة تتحدث المرأة بكلام فيه صمت يشرح ويفسر ، وتضطرب بحركة فيها استرخاء يميل ويعتنق ، وتنظر بالحاذق فيها انكسار يأمر ويتوسل ؛ وكانت هي في هذه الساعة ... فغلبت - والله - على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تقطع فيه من أسف

وحسرة؛ ثم كانت له كالزهرة العبقّة: بينه وبينها جمالها وعطرها
هواؤها والحاسة التي فيه .

وجعل يستشفها من خلال أعضائها، ثم قال لي: أنظر -
ويحك!- لكان ثيابها تضمها وتلتصق بها ضم ذي الهوى لمن
يهوى .

قلت: ما هي إلا كهاتين اللتين ترقصان معها: امرأة بين
امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث .

قال: كلا، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر، تتحرك
بدلاً من أن تقرأ وترى بدلاً من أن تسمع؛ قصيدة بلا ألفاظ، ولكن
من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بجواسه وفكره
وشعوره .

قلت: والأخريان؟

قال: كلا كلا، هذا فن آخر، فالواحدة من هؤلاء
المسكينات إنما ترقص بمعدتها . . ترقص للخبز لا غير؛ أما
"تلك" فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من
جسمها؛ إنها كالطاووس يتبختر في أصباغه . في ريشه، في
خيلائه، بخثرة يضاعفها الحسن ثلاث مرات؛ ولو خلق الله
جسمين أحدهما من الجواهر أحمرها وأخضرها وأصفرها

وأزرقها، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشيتها، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملوثة لظهر فيه وحده اللون الملك بين ألوان هي رعيته الخاضعة .

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قبلة في الهواء . . فقال صاحبنا : آه ! لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسة يدها درهماً وقبلة . .

قلت : يا عدو نفسه ! هذه قبلة محررة مسددة وقد رأيتها وقعت هنا . . ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة ؛ تعشق القبلة وتخاصم الفم الذي يلقيها ، وتبني العش وتتركه فارغاً من طيره ؛ إن امرأة تحبك لابد منتهية إلى الجنون ما دامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن .

ثم بدأ فصل آخر على المسرح ، وظهر رجال ونساء وقصة ؛ وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيهاً ، وآخر يمثل شرطياً ؛ فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثياب فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحة الظاهر فقط ، ما دام الظاهر يخلع ويلبس بهذه السهولة ؛ فكم ي هذه الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت الباطن منهم - إنما يشرفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر . . وكم من أغنياء ليس

بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون . . وكم من فقهاء
ليس بينهم وبين الفجرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة . . ليست
الإنسانية بهذه السهولة التي يظنها من يظن ، وإلا ففيم كان تعب
الأنبياء وشقاء الحكماء وجهاد أهل النفوس ؟

العقدة السماوية في هذه الأرض أن الله - سبحانه وتعالى - لم
يخلق الإنسان إلا حيواناً ملطفاً تلطيفاً إنسانياً ، ثم أراه الخير والشر
وقال له : اجعل نفسك بنفسك إنساناً وجئني .

قلت : يا عدو نفسي ! فما تقول في حبك هذه الراقصة
وأنت حيوان ملطف تلطيفاً إنسانياً ؟

قال : ويحك ! وهل العقدة إلا هنا ؟ فهذه مبدولة ممكنة ،
ثم هي لي كالضرورة القاهرة ، فلا يكون حبها إلا إغراء بني لها ،
ولا تكون سهولة نيلها إلا إغراء لذلك الإغراء ؛ فأنا منها لست في
امرأة وحب ، ولكني في امتحان شديد عسر ؛ أغالب ناموساً من
نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة وأظهر قوتي على
قوة الضرورة الميسرة بأسبابها ، وهي أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً
وقهراً للنفس ، من قيل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهياة سهلة ؛ فلو
أن هذه المرأة المحبوبة كانت ممنوعة بعيدة المنال ، لما كانت لي فضيلة

في هذا الحب العنيف ، ولكنها دانية ميسرة على الشغف والهوى ؛
فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى فضيلة نفسى !

ومر الفصل الذي مثله وما نشعر منه بتمثيل ، فقد كان
كالصورة العقلية المعارضة للعقل وهو يفكر في غيرها ، وكانت
" الحقيقة " في شيء آخر غير هذا ؛ ومتى لم يتعلق الشعور بالفن لم
يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهي وحدها التي تثير
المحب في نفسه فيشعر من حسننها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجد في
معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صنعت له وحده ، وتجعل له في
الزمان زمناً قلبياً يحصر وجوده في وجودها .

وليس فن الحب شيئاً إلا استطاعة الحبيب أن يجعل
شهوات المحب شاعرة به ممتلئة منه متعلقة عليه ، كأن به وحده
ظهور جسدية هذا الجسد وروحانية هذا الروح ؛ وكل ما يتزين به
المحبوب للمحب ، فإنما هو وسائل من المبالغة لإظهار تلك المعاني
التي فيه ، كيما تكبر فيدركها المحب بدقة ، وتثور فيحسها العاشق
بعنف وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة .

والشهوات كالطبيعة الواحدة في أعصاب الإنسان ، وهي
تتبع فكره وخياله ؛ ولا تفاوت بينهما إلا بالقوة والضعف ، أو
التنبه والخمود ، أو الحدة والسكون ، غير أنها في الحب تجد لها فكراً

وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنها قد عبرت طبيعتها بسر مجهول من أسرار الألوهية ؛ ومن هنا يتأله الحبيب وهو هو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه في وهم محبه يفرض فروضاً ويشرع شريعة من حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا في الشهوة المؤمنة به وحدها .

ومن ثم لا عصمة على المحب إلا إذا وجد بين إيمانين ، أقواهما الإيمان بالحلال والحرام ؛ وبين خوفين ، أشدهما الخوف من الله ؛ وبين رغبتين ، أعظمهما الرغبة في السمو .

فإن لم يكن العاشق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى الإيمانين الحرص على مكانة المحبوب في الناس ، وأشد الخوفين الخوف من القانون . . . وأعظم الرغبتين الرغبة في نتيجة مشروعة كالزواج .

فإن لم يكن شيء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو في جراءة كفرين ، وحماسة جنونين ، وانحطاط سفالتين ؛ وبهذا لا يكون في الإنسان إلا دون ما هو في بهيمتين !

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هي على المسرح ، ظهرت هذه المرة في ثوب مركزة أوروبية تخاصر عشيقاً لها ، فيرقصان في أدب أوروبي متمدن . . . متمدن بنصف وقاحة ؛ متأدب . . .

متأدب بنصف تسفل؛ مشروع... مشروع بنصف كفر؛ هو على النصف في كل شيء، حتى يجعل العذراء نصف عذراء والزوجة نصف زوجة...!

وكان الذي يمثل دور العشيق فتاة أخرى غلامية مجممة الشعر^{٤٩} ممسوخة بين المرأة والرجل؛ فلما رآها صاحبنا قال: هذا أفضل..

وهشت الحسناء وتبسمت وأخذت في رقصها البديع، فانفصل عني الصديق، وأهملني وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد النظرة، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه ورجع وإياها كأنه في عالم من غير زمننا تقدمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة؛ وكانت جملة حاله كأنها تقول لي: إن الدنيا الآن امرأة! وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم، ونقل صاحبتة إلى رتبة حواء، ونقل المسرح إلى رتبة الجنة!

والعجب أن القمر طلع في هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف في الحديقة، فكأنه فعل هذا ليتم الحسن والحب؛ وأخذ شعاع القمر السماوي يرقص حول هذا القمر

^{٤٩} المعجمات: هي اللواتي يتخذن شعورهن جمّة "بضم الجيم" أي يقصنها، كما يفعل نساء هذه الأيام، تشبيهاً بالرجال؛ وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الإسلام عنه كراهة لهذا التشبه؛ فقص الشعر "على المودة" هو التجميم.

الأرضي ، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبنا وبين الأرض
والسما والقمري .

ما هذا الوجه لهذه المرأة؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر
تعبيراً جديداً بقسماته وملاحه الفتانة ؛ كل البياض الخاطف في
نجوم السماء يحول في أديمه المشرق ، وكل السواد الذي في عيون المها
يجتمع في عينيه ، وكل الحمرة التي في الورد هي في حمرة هاتين
الشفيتين .

ما هذا الجسم المتزن المتموج المفرغ كأنه يتدفق هنا وهنا؟
إنه جسم كامل الأنوثة ، إنه صارخ صارخ ، إنه عالم جمال كما
تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه " جهة فوق " و " جهة
تحت " ؛ لو امتدت له يد عاشقه لجعل في خمس أصابعها خمس
حواس . . .

ما هذا؟ لقد ختم الرقص بقبلة ألقاها الخليل على شفتي
الخليلة ، وكانت تركت خصرها في يديه وانفلتت تميل بأعلاها
راجعة برأسها إلى خلف ، نازلة به رويداً رويداً إلى الأرض ، هاربة
بشفتيها من الفم المطل ، وكان هذا الفم ينزل رويداً رويداً ؛ ليدرك
الهاب . . .

وقبل أن تقع القبله التفتت لفته إلى . . ثم تلقت القبله ،
أما هو ، أما مجنوننا ، أما صاحب القلب المسكين ؟ . . .

أما صاحب القلب المسكين فرمقها وهي تلتفت إليه
التفات الظبية بسواد عينيها : يجعل سوادهما الجميل في النظرة
الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول إحداها : أنت ، وتقول
الأخرى : أنا ، ثم رآها وقد كسرت أجفانها وتفتت في يدي الممثل
العشيق وأفصح منظرها ببلاغة . . بلاغة جسم المرأة المحبوبة بين
ذراعي من تحبه ؛ ثم اختلجت وصوبت وجهها ، وأهدفت
شفتيها . وتلقت القبله .

وكان به منها ما الله عليم به ، فانبعث من صدره آهة معولة
تئن أنيناً ، غير أنها كلمته بعينيها أنها تقبله هو ؛ فلا ريب قد حملت
إليه إحدى النسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم ، لمست به النفس
النفس ، والقبله هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها . .

وليس تحت الخيال شيء موجود ، ولكن الخيال المتسرح
بين الحبيين تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود ؛ إذ هو بطبيعته
مجرى أحلام من فكر إلى فكر ، ومسرح شعور يصدر ويرد بين
القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاوزة المعاني ؛ وبهذا الخيال

يكون مع القليين المتحايين روح طبيعي كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر ، ويصل السر بالسر ، ويزيد في الأشياء وينقص منها ، ويدخل في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي ؛ ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن ، ولا أمل ولا يأس ، ولا سعادة ولا شقاء ، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب بقدر قليين ؛ والذين يعرفون قبلة الشغف والهوى ، يعرفون أن العاشق يقبل بلدة أربع شفاء .

وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل فقلت لصاحب القلب المسكين : إن رويكما متزوجتان . . قال : آه ! ومدها من قلبه كأنه دنف سقيم . قلت : وماذا بعد آه ؟

قال : وماذا كان قبلها ؟ إنه الحب : فيه مثل ما في " عملية جراحية " من تنهدات الألم ولذعاته ، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب ، مبعثرة غير مجموعة ! " آه " هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الإنسانية ، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهية ، ولألم البالغ ، والمرض المدنف والحب الشديد ؛ الشديد ؛ فحينما توشك النفس أن تحتنق تنفس " بآه " !

قلت : أما رأيته مرة وقد أوشكت نفسها أن تحتنق . . . ؟

قال : لقد هجت لي داء قديماً ؛ إن لهذه الحبيبة ساعات
مغروسة في زمني غرس الشجر ، فيين الحين والحين تثمر هذه
الساعات مرها وحلوها في نفسي كما يثمر الشجر المختلف ؛ ولقد
رأيتها ذات مرة في ساعة همها ! ثم ضحك وسكت .
قلت : يا عدو نفسه ! ماذا رأيت منها؟ وكيف أراك الوجد
ما رأيت منها؟

قال : أتصدقني؟ قلت : نعم .

قال : رأيت الهم على وجه هذه الجميلة كأنه هم مؤنث
يعشقه هم مذكر ؛ فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية ، وكأن وجهها
يصنع من حزنها حزينين : أحدهما بمعنى الهم لقلبها ، والآخر
بمعنى الثورة لقلبي !

قلت : يا عدو نفسه ! هذا كلام آخر ؛ فهذه امرأة ناعمة
بضة مطوي بعضها على بعضها ، لفاء من جهة هيفاء من جهة ،
ثقيلة شيء وخفيفة شيء ، جمعت الحسن والجسم وفناً بارعاً في هذا
وفناً مفرداً في ذاك ؛ وهي جميلة كل ما تتأمل منها ، ساحرة كل ما
تتخيل فيها ، وهي مزاحة دحداحة ° وهي تطالعك وتطعمك ؛

° هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريقة "المدرجة"، وليس كذلك معناها
في اللغة، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لا تأباه.

وأنت امرؤ عاشق ورجل قوي الرجولة ؛ فالجميلة والمرأة هما لك في هذا الجسم الواحد ، إن ذهبت تفصلهما في خيالك امتزجتا في دمك ؛ ولو أمسكت آلة التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطراف اللهب الأحمر مما في نفسك منها ؛ ولعمري لو مرت عربة تدرج في الطريق ونظرت إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتسبة المكفوفة لظننتك سترى العجلة الخلفية عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهي تفر منه فرار العذراء !

فضحك وقال : لا ، لا ؛ إن نوع التصوير لإنسان هو نوع المعرفة لهذا الإنسان ، ومن كل حبيب وحبيرة تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المعنى ، والمقدمة عندي أن إبليس هنا في غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجة وضعه في إبليسته ؛ وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفن الذي أسبغه الجمال عليها ، فهي معرفتي وخيالي كالتمثال المبدع إبداعه : لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهار شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

وليست هذه المرأة هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشيء لا يكمل أبداً ، وهو هذه المعاني النسوية الجميلة التي يزيد الشيطان فيها من عشق كل عاشق ؛ إن بطن المرأة بلد ، ووجه المرأة يلد !

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال

الدميمة؟

قال : لا ، هذا وجه عاقر . .

قلت : ولكن الخطأ في فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة

نظرة عملية تريد أن تعمل ، ثم تمنعها أن تعمل ، فتأتي فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأن تغذو المعدة الجائعة برائحة الخبز فقط .

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذي يخرج الحقائق

الخيالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرت من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تثبت الحقيقة نفسها في شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول .

أتعلم كيف كانت نظرتي إلى نور القمر على هذه وإلى

حسن هذه على القمر؟ إن القمر كان ينسيني بشريتها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة ، فهي خيال وجهه ؛ وكانت هي تنسيني مادية القمر فأراه متمماً له كأنه خيال وجهها .

أتدري ما نظرة الحب؟ إن في هذا القلب الإنساني شرارة

كهربائية متى انقدحت زادت في العين ألحاظاً كشافة ، وزادت في الحواس أضواء مدركة ؛ فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعاً في الحقائق الأشياء ، فتكون له على الناس زيادة في الرؤية وزيادة في

الإدراك يعمل بها عمماً فيما يراه وما يدركه ؛ وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للعالم حالة جديدة في هذه النفس ؛ ويأتي السرور جديداً ويأتي الحزن جديداً أيضاً ؛ فألف قبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ، هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة ؛ ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوع من الحزن ليس في الآخر !

قلت : فنوع تصورك لهذه الراقصة التي تحبها ، أن إبليس هنا في غير إبليسيته !

قال : هكذا هي عندي ، وبهذا أسخر من الحقيقة الإبلسية .

قلت : أو تسخر الحقيقة الإبلسية منك ، وهو الأصح وعليه الفتوى . . . ؟

فضحك طويلاً ، وقال : سأحدثك بغريبة : أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرير الأسود ؛ وهي رقيقة البشرة ناصعة اللون ، فيكون لها من سواد الحرير بياض البياض وجمال الجمال ؛ فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقي إلى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدجى ، وقد لبس وتلبس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمة قائمة

كالرقيب بين الحبيين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينا أقلب عيني في النور والغسق وأنا في مثل الحالة التي تكون فيها الأفكار المحزنة أشد حزناً - إذ رفع لي من بعيد شبح أسود يمشي مشيته متفتراً قصير الخطو يهتز ويتبختر ؛ فتبصرته في هيئته فما شككت أنها هي ، وفتحت الجنة التي في خيالي وبرزت الحقائق الكثيرة تلمس معانيها من لذة الحب ؛ وكان الطريق خالياً ، فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراع القلب إلى الفرصة حين تمكن ؛ فلما صرت بجيث أتبين ذلك الشبح إذا هو . . إذا هو قسيس . .

فقلت : يا عجباً ! ما أظرف ما داعبك إبليس هذه المرة !
وكانه يقول لك : إيه يا صاحب الفضيلة . . .

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم في شغل ؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطان على لساني فقلت لصاحبنا : ما يمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها ، فليس بينك وبينها إلا كلمة " تعالي " أو تفضلي ؟

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عني لأراها في نفسي أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبعد لألمسها لمسات روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبي ؛ ويجب أن تدع جسمها وأدع

جسمي وهناك نلتقي رجلًا وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة. بهذا الفهم أنا أكتب ، وبهذه الطبيعة أنا أحب !
ما هو الجزء الذي يفتنني منها؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه .

وما هو هذا الكل؟ هو الذي يفسر نفسه في قلبي بهذا الحب .

وما هو هذا الحب؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس .

نعم أنا بائس ، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى في الفن : لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم ، والحبيب الذي لا تناله هو وحده القادر قدرة الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدري أين يختبئ منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدري أين يسفر جماله منه فيدعك تراه بلذة أخرى ؛ أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ، على نار مشبوبة في قلبي !

قلت : يا صديقي المسكين ! هذه مشكلة عرضت بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبي إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا " المشكلة " مقبلة علينا .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين . . . ؟

أما صاحب القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهي مقبلة تتيمننا حتى بغته ذلك ، فساوره القلق ، واعتراه ما يعترى المحب المهجور إذا فاجأه في الطريق هاجره ؛ أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهرًا لا يراه ، وصارمه مدة لا يكلمه ، فنزع نومه من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ، وبلغ به ما بلغ من السقم والضنى ، ثم بينا هو يمشي إذ باغته ذلك الحبيب منحدرًا في الطريق ؟

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيتَه على زلزلة من شدة الخفقان ، وكأنه في ضرباته متلعثم يكرر كلمة واحدة : هي هي هي . .

ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيتَه يشعر مثل شعور المحتضر أن هذه الدنيا قد نفته منها !
ولو اطلعت على دمه في عروقه لأبصرته مخذولًا يتراجع كأن الدم الآخر يطرده .

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينه أن كل شهواته في خيبة ، فيرد عليه الحب مع كل شهوة نوعًا من الذل ، فيكون بإزاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة أمام الذي هزمه مائة مرة .

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغته والتخاذل
والاضطراب والخوف إلا أن رأوه وثبت إلى رأسه هو هوت فجأة
إلى قدميه!

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبه، ولكن
من عجائب الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين
المختلفتين؛ إذ كان دائماً على حدد الإسراف ما دام حباً، فكل
شيء فيه قريب من ضده، والصدق فيه من ناحية مهياً دائماً لأن
يقابل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى، واليقين معد له الشك
بالطبيعة؛ والحب نفسه قضاء على العدل، فإنه لا يخضع لقانون
من القوانين، والحبيب مع أنه حبيب يخافه عاشقه من أجل أنه
حبيب!

وقد يصفر العاشق لمباغته اللقاء كما يصفر لمباغته الهجر،
وهذه كانت حال صاحبنا عندما رآها مقبلة عليه؛ وكان مع ذلك
يخشى إمامتها به، توقياً على نفسه من ظنون الناس؛ وأكثر ما
يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن؛ وهو رجل ذو شأن ضخم،
ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رؤي مع مثلها، وكأنها هي ألت
بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقر المتزمت؛ فعدلت عن طريقها
إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى، وما بيننا وبينها إلا

خطوات ؛ ورأيتها قد هيأت في عينيها نظرة غاضبتنا بها ، ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى !

وكانها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهفته لدورها ، ثم همت أن ترجع ، ثم عادت إليه فجعلت تكلمه وعيناها إلينا ؛ فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها : إنها نبيلة حتى في سقوطها ! ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى ، ولكن هذا الرجل لم يظهر لي وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق !

كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره ، ولا تسارقه النظر بل تغلبه عليه مغالبة ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيّل إلي أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تطارحه ويطارحها كلاماً مخبوءاً تحت هذه النظرات ، وقد نسيا ما حولهما ، وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا في بعضه لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا الاثنين فقط : هو وهي . .

وكان فمها الجميل لا يزال يساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسرد له حكاية مروية ، أو تعارض بحافظته كلاماً تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهي تتحدث وعيناها

مفكرتان شاخصتان ، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه ؛ ولكن كيف كانت عيناها؟

لقد أرادت في البدء أن تجعل قوة نظراتها كلاماً ، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنت يا أنت !
ثم بدا في عينيها فتور الظمأ ، ظمأ الحب المتكبر المتمرد ؛
لأنه حب المرأة المعشوقة ، ولأن له لذتين ، إحداهما في أن يبقى ظمأ
إلى حين . .

ثم أرسلت الأحاظ التي تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة
الجميلة في بعض حالاتها النفسية ، فتضرم في كلامها شرارة من
الروح تظهر الكلام كأنه يحرق ويحترق . .

ثم توجعت النظرات ؛ لأنها تصلها بالرجل الذي لا يشبه
الرجال ، فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل
عند هذه المرأة هو الذي لا يشبه الباقي ممن تعرفهم ، فإذا أحبها
فكأنما أحبها عذراء خفرة لم تمس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها
وطهارتها وحياتها وما لا يمكن أن تتمثله إلا في مثل حبه .

ثم ذبلت عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عيني امرأة تنظر
إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكرة ، أو عناد معنى فيها لمعنى

فيه ، أو تأكيد خاطرة تحتاج إلى التوكيد ؛ ومرة هو كقولها : لماذا؟
وتارة هو كقولها : أفهمت؟ وأحياناً ، وأحياناً هو انتهاء مقاومة .

وتمت الحكاية المروية التي كانت تلقيها للتليفون . . فكرت
راجعة إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت :
أنت يا أنت . . فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدو نفسه ! لو اختار
الشیطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة ، لما اختار إلا
عينها ، في وجهها ، في هيئتها ، في موقفها ؛ وأراك مع هذا كمنتظر
ما لا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك في حبها كالحيوان
الأليف إذا طمع في المستحيل .

قال : وما هو المستحيل الذي يطمع فيه الحيوان الأليف؟
قلت : ذلك يطمع في أن تكون له حقوق على صاحبه فوق
الألفة والمنفعة .

قال : لقد أغمضت في العبارة فين لي شيئاً من البيان .
قلت : هب كلبة تألف صاحبها وتجبه فهي له ذليلة
مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع في أن يكون لها تمام الشرف ،
فلا يقول صاحبها عنها : هذه كلبتي ، بل يقول : هذه زوجتي . .

قال: وي منك! وي منك^{٥١} لقد ضربت على رأس
المسمار كما يقولون هذا هو المستحيل الذي بيني وبينها، هذا هو
المثل. يا لفظ الحلوى! يا لفظ الحلوى! لو كررتك بلساني ألف مرة
فهل تضع في لساني طعمها.؟

قلت: خفض عليك يا صاحب القلب المسكين، فلست
أكثر من عاشق.

قال: بل أنا مع هذه أكثر من عاشق؛ لأن في العاشق راغباً
وفي أنا راهب، وفيه الجريء وفي المنكمش، ويغترف الغرفة من
الشلال المتحدر فيحسوها فيرتوي وأغترف أنا الغرفة بيدي،
وأبقيها في يدي، وأطمع أن تهدر في يدي كالشلال أنا أكثر من
عاشق؛ فإنه يعشق لينتهي من ألم الجمال، وأعشق أنا لأستمر في
هذا الألم!

هذه هذه؛ العجيب يا صديقي أن خيال الإنسان يلتقط
صوراً كثيرة من صور الجمال تجيء كما يتفق، ولكنه يلتقط صورة
واحدة بإتقان عجيب، هي صورة الحب؛ فهذه هذه.

ألم أقل لك إن إبليس هنا في غير حقيقته الإبلسية ولم
تفهم علي؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا

^{٥١} أي عجب، يتعجب من فطنته.

أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب بيدل الزمن والنفس
ويأتي بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب في غير
حقيقتها .

هذه هذه ؛ لا أطلب في غيرها امرأة أجمل منها ، فهذا
كالمستحيل ، ولكني ألتمس فيها هي امرأة أظهر منها ، وهذا
كالمستحيل أيضاً ؛ إنها أجمل جسم ، ولكن وا أسفاه ! إنها أجمل
جسم للمعاني التي يجب أن أبتعد عنها !

وسكت صاحبا ؛ إذ رفعت ستارة المسرح وظهرت هي
مرة أخرى ، ظهرت في زينة لا غاية بعدها ، تمثل العروس ليلة
جلوتها ؛ ألا ما أمرها سخرية منك أيتها المسكينة ! عروس ولكن
لمن ؟

كانت تبرق على المسرح كأنها كوكب دري نوره نور
وجمال وعواطف شعر .

وأقبلت تتمايل بجسم رخص لين مسترسل الأعطاف
يتدفق الجمال والشباب فيه من أعلاه إلى أسفله .

وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر ، فتم
الحسن بالحسن .

واقفة كالنائمة، فالجو جو الأحلام، وكان الحب يحلم،
وكان السرور يحلم!

مهتزة كال موج في الموج، هل خلقت روح البحر في جسمها
المرجرج فشيء يعلو وشيء يهبط وشيء يثور ويضطرب؟
ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة، ودقت أعضاء هذا
الجسم بألحانها المتحركة، وأحسنا كأن روح الحديثة جالسة بيننا
تنظر إليها وتتعجب. تتعجب من قوامها للغصن الحي، ومن بدنها
للزهر الحي، ومن عطرها للنسيم الحي.
أما صاحب القلب المسكين..

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى؛
وجعل ينظر إلى هذه الفتانة تمثل العروس وقد أشرق فيها رونقها
وسطعت ولمعت، فبدت له مفسرة في هذه الغلائل غلائل العرس؛
وما غلائل العرس؟

إنها تلك الثياب التي تكسو لابستها إلى ساعة فقط..
ثياب أجمل ما فيها أنها تقدم الجمال إلى الحب، فأزهى ألوانها اللون
المشرق من روح لابستها، وأسطع الأنوار عليها، النور المنبعث من
فرح قلبين.

تلك الثياب التي تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخز، وحين تلبسها مثل هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير؛ إذ تعلم أن الحرير ما تحتها.

ثم تنهد المسكين وقال: أفهمت؟

قلت: فهمت ماذا؟

قال: هذا هو انتقامها.

قلت: يا عجباً! أتريدها في ثياب راهبة مكبكة فيها كما ألقيت البضاعة في غرارة، بين سواد هو شعار الحداد على الأنوثة الهالكة، وبياض هو شعار الكفن لهذه الأنوثة؟

قال: أنت لا تعرفها؛ إن الرواية التي تمثل فيها بين الروح والجسم، هي التي احتاجت إلى هذا الفصل يقوى به المعنى؛ وكل عاشقة فعشقتها هو الرواية التي تمثل فيها، يؤلفها هذا المؤلف الذي اسمه الحب، ولا تدري هي ماذا يصنع وماذا يؤلف، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويصنع وينفع كما تنزل به الحال بعد الحال، وكما تعرض به المصادفة بعد المصادفة؛ وعليها هي أن تمثل..

قلت: فهذا؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاماً؟

قال: إن الأفكار أشياء حقيقية، ولو كشف لك الجو هذه الساعة لرأيت مسطوراً عبارات عبارات كأنه مقالة جريدة.

هذا الفصل حوار طويل في الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصبوة، ولو كتب له عنوان لكان عنوانه هكذا: ما أشهاها وما أحظاها! إن الهواء بين كل عاشقين متقاتلين يأخذ ويعطي. .

قلت: يا عدو نفسه! ما أعجب ما تدقق! لقد أدركت الآن أن المرأة تتسلح بما شاءت، لا من أجل أن تدافع، ولكن لتزيد أسلحتها في سلاح من تحبه، فتريده قوة على قهرها وإخضاعها. .
أما هذه "العروس" فكانت أفكارها لا تجد ألفاظًا تحدها فهي تظهر كيفما اتفق، رسالة إرسالًا في اللفتة والحركة والهيئة والقومة والقعدة، وهي من علمت؛ امرأة تعيش للحقائق، وبين الحقائق، ككل ذي صنعة في صنعته فكانت في تماديها خطر أي خطر على صاحب القلب المسكين، تمثل شيئًا لا أدري أهو ظاهر بخفائه أم هو خاف بظهوره؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه، فكانت الخبثة الماجنة كأنها تسكره بمسكر حقيقي، غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر.

وكانت لذهنه المتخيل كالسحابة الممتلئة بالبرق؛ تومض كل لحظة بأنوار بعد أنوار، وبين الفترة والفترة ترمي الصاعقة.

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب ؛ فلقد أيقنت حينئذ أن الحب إن هو إلا الغريزة البهيمية بعينها محاولة أن تكون شيئاً له وجود فني إلى وجوده الطبيعي ، فهو مصيبتان في واحدة ، وكل عمله أن يجعل اللذة ألد ، والألم أشد ، والقلة كثرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهاية كأنه لا نهاية . .

هذه " العروس " كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فإنها تقتحم الحدود وتغزو غزوها وتمتلك . . .
يا لسحر الحب من سحر ! كل ما في الطبيعة من جمال تظهره الطبيعة لعاشقها في إحدى صور الفهم ، أما الحبيب الجميل فهو وحده الذي يظهر لعاشقه في كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة ، ففي ساعة يكون العقل وفي ساعة يكون الجنون .

يا لسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الإنسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيد بعيد وراء فضائله وعصمته ؛ فسنحت له كما يسنح الصيد للصائد يحمل في جسمه لحمه الشهوي . . وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المعدة . . وبرزت له صريحة

كما هي ، ولما هي ؛ ومن حيث إنها هي هي ؛ وكل ذلك حين
ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة .

آه من " هي " إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب !
وآه من " هي " إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل
واحد !

إن في كل امرأة . . امرأة يقال لها " هي " باعتبار الضمير
للتأنيث فقط ، كما يعتبر في الدابة والحشرة والإدارة ونحوها من هذه
المؤنثات التي يرجع عليها هذا الضمير ؛ ولكن " هي " المفردة في
الكون كله لا توجد في النساء إلا حين يوجد لها " هو " . .

أنا أنا الذي يقص للقراء هذه القصة ، قد كابدت من شدة
الحب وإفراط الوجد ما يفعم قلبين مسكينين لا قلباً واحداً ؛
وكانت لي " هي " من إلهيات عانيت فيها الحب والألم دهرًا
طويلاً ؛ وقد ذهبت بي في هواها كل مذهب إلا مذهباً يحل حراماً ،
أو مذهباً يخل بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشيء السامي في الحب هو
ألا يخرج من العاشق محرم .

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجل الفصل بين الحب من
أجل جمال الأنثى يظهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر في

جمالها ؛ فهو في الأولى يشهد الإلهية في إبداعها السامي الجميل ، وفي الأخرى لا يرى غير البشرية حيوانيتها المتجلمة . .

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلي الذي يملأ العالم قد جعلت حنين العشق في قلب الإنسان هو أول أمثلتها العملية في تعليمه الحنين إليها إن شاء أن يتعلم ، فكما يحب إنسان بروح الشهوة يحب إنسان آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذي يسميه الفلاسفة : " تلطيف السر " ، أي جعله مستعداً للتوجه إلى النور والحق والخير ، وقد عدوا فيما يعين عليه ، الفكر الدقيق والعشق العنيف .

وكذلك تبينت مما علمني الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقل معاني الفردوس وعرضها لكل آدم وحواء يمثلان الرواية . . فإذا " قطفاً الثمرة " طردا من معاني الجنة ، وهبط بعد ذلك من أخيلة السماء إلى حقائق الأرض .

نعم هو الحب شيء واحد في كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون في جماله العمل أو قبح العمل ؛ وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة ؛ فالحب في بعضها يكون قوة وفي بعضها يكون ضعفاً ؛ وفي نفس يكون الهوى حيوانياً يراكم

الظلم على الظلمة في الحياة، وفي أخرى يكون روحانيًا يكشف
الظلام عن الحياة.

والمعجزة في هذا الإنسان الضعيف أنه مع طبيعة كل شيء
طبيعية الإحساس به، فهو مستطيع أن يجد لذة نفسه في الألم، قادر
على أن يأخذ هبة من معاني الحرمان؛ وبهذه الطبيعة يسمو من
يسمو، وهي على أتمها وأقواها في عظماء النفوس، حتى لكان
الأياء تأتي هؤلاء الظلمة سائلة: ماذا يريدون منها؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعه في نفسه بين شيئين:
الخلق الرفيع، والحكمة الناضجة؛ فإن لم يستطع فلا أقلّ من
شيئين: الحلال، والحرام.

أنا الذي يقص للقراء هذه القصة، أعرف هذا كله،
وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين: إن ظهور صاحبه
في فصل العروس هو انتقامها، حاصرت عيناها عينه، وزحفت
معانيها على معانيه، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة في معركة
حبها، وبكلمة واحدة: كأنما ليست هذه الثياب لتظهر له بلا
ثياب..

وأردت أن أعيبها بما صنعت نفسها له ، وأن أعيبه هو
بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت في غير طائل ولا جدوى ، فما كنت
إلا كالذي يعيب الورد بقوله : يا عطر الشذى ، يا أحرر الخدين !
وقد أمسك عن جوابي ، وكانت محاسنها تجعل كلماتي
شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة ، وكانت حلاوتها
تجعل أقوالي مرة ، وكانت ثياب العروس وهي تزف تريه ألفاظي
في ثياب العجوز المطلقة ؛ وكلما غاضبته مع نفسه أوقعت هي
الصلح بينه وبين نفسه .

والعجيب العجيب في هذا الحب أن فتح العينين على
الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام ؛
ليس إلا هذا ، ولا يكون أبداً إلا هذا ؛ فمهما أعطت من جدل
فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم المستثقل ؛ وكيف وله
ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك
على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً
إلا ما تعطي وما تمنع .

ثم ثم غابت " العروس " بعد أن نظرت له
وضحكت .

ضحكت بحزن . . حزن الذي يسخر من حقيقة ؛ لأنه يتألم من حقيقة غيرها ؛ وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة للخير الذي اعتدى عليه الشر فأحاله ، والإرادة التي أكرهها القدر فأخضعها ، والعفة المسكينة التي أذلّتها ضرورة الحياة ، والفضيلة المغلوبة التي حيل بينها وبين أن تكون فضيلة !
ويا ما كان أجملها ناظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك ؛ تتهد ملامح وجهها وفمها يبتسم !
كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداه على وجهها بلطف ورقة ؛ كان يسأل إنساناً : ألا تحل هذه العقدة ؟ . . .
وانقضى التمثيل وتناهض الناس .
أما صاحب القلب المسكين ؟ . .

أما صاحب القلب المسكين فقام ؛ ليخرج وقد تفارطته الهموم وتسابقت إليه فانكسر وتفتّر ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبتة باكية وبأكية من حيث لا يرى بكاءه غيرها ولا يرى بكاءها غيره !
ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تغشى الدنيا لون نفسه الحزينة ؛ إذ كانت نفسه ألقّت ظلها على كل شيء يراه ؛ وجعل يدلف ولا يمشی كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه .

إنه ليس أخفُّ وزناً من الدمع ، ولكن النفوس المتألّمة لا تحمل أثقل منه ، حتى لينثر على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناء قائم يتهدم على جسم ؛ وبعض التنهيدات على رقبتها وخفتها ، قد تشعر بها النفس في بعض همها كأنها جبل من الأحزان أخذته الرجفة فمادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلق ويتهاوى عليها .

آه حين يتغير القلب فيتغير كل شيء في رأي العين ! لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له : أنا لك ! فعاد الآن وما يقول له : " أنا لك " إلا الهم ؛ والتقوى هو والظلام والعالم الصامت !

جعل يدلف ولا يمشی كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه ؛ ومتى وقع الطائر من الجو مكسور الجناح ، انقلبت النواميس كلها معطلة فيه ، وظهر الجو نفسه مكسوراً في عين الطائر المسكين ؛ وتنفصل روحه عن السماء وأنوارها ، حتى لو غمره النور وهو ملقى في التراب لأحسه على التراب وحده لا على جسمه . .

ثم خرجنا ، فانتبه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر ، فتعذب به عذابين : أما واحد فلأنه كان ولم يدم وأما الآخر فلأنه زال ولم يعد ؛ والسرور في الحب شيء غير السرور الذي يعرفه الناس ؛ إذ هو في الأول

روح تتضاعف به الروح ، فكل ما سرك وانتهى شعرت أنه انتهى ؛
ولكن ما ينتهي من سرور العاشق المستهام يشعره أنه مات ، فله في
نفسه حزن الموت وهمّ الثكل ، وله في نفسه هم الثكل وحزن
الموت !

وينظر صاحب القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت في
الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون
أنواره .

كان وجه القمر في مثل حزن وجه العاشق المبتعد عن
حبيبته إلى أطراف الدنيا ، فكان أبيض أصفر مكمداً ، تتخيل فيه
معاني الدموع التي يمسكها التجلد أن تتساقط .

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهر تأثير القدر
المفاجئ بالنكبة .

وبدت لنا الحياة تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها ،
فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مشرقاً في نصف النهار ؛ يا
لك من ساحر أيها الحب ؛ إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً
وضوءاً ليسا في الأيام والليالي !

أما الحديقة فلبسها معنى الفراق ، وما أسرع ما ظهرت
كأنما يبست كلها لتوها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي

ساكنة، وتحولت روحها خشبية جافة، فلا نضرة فيها على النفس؛ وبدت أشجارها في الظلام، قائمة في سوادها كالنوائح يلطمن ويولولن، وتنكر فيها مشهد الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبت الصلة بين المكان ونفس الكائن.

ماذا حدث؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس، فقد تغيرت طريقة الفهم، وكان للحديقة معنى من نفسه فسلب المعنى، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض؛ وبهذا وهذا بدت في السلب والعدم والتنكر، فلم يبق إبداع في شيء مبدع، ولا جمال في منظر جميل.

أكذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلاً من معاني الفناء كهذا الفراق؟
أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق! مسكين أنت!
ومضينا فملنا إلى نديّ نجلس فيه، وأردت معاينة صاحبنا المتألم بالحب والمتألم بأنه متألم، فقلت له: ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتها نفسك!

قال : آه ! من أنا الآن؟ وما بال ذلك الخيال الذي نسق لي الدنيا في أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها؟ أتدري أن العالم كان في ثم أخذ مني فأنا الآن فضاء فضاء .

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصي لمحبه .
قال : ولذلك يعيش المحب المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظر ، وكأنه في أيام خلت ، وتراه كأنما يجيء إلى الدنيا كل يوم ويرجع .

قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف ، كالمملك يستبد ليتحقق من نفاذ آخره ، وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحياناً غير جميل في المعاملة !

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهي تطلبني وأتنكبها ، وهي مقبلة لكنها مقبلة على امتناعي ؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفر ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك .

قلت : فإن هذه هي المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان المحب مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها .

قال : كذلك هو ، فهل تعرف في البؤس والهم كئوس العاشق الذي لا يتدبر كيف يأخذ حبيبته ، ولكن كيف يتركها؟ ما

هي المسافة بيني وبينها؟ خطوة، خطوتان؟ كلا، كلا؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها، إن مسافة ما بين الحلال والحرام مترامية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية؛ وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا "نعم" بلا شرط ولا قيد؛ لأنه فاسد، فالحب الطاهر يقبل "لا" لأنه طاهر! ثم هو لا يرضى "نعم" إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشرعية وكرامة الإنسانية في المرأة والرجل. وإذا لم ينته الحب بالإثم والرذيلة، فقد أثبت أنه حب؛ وشرفه حينئذ هو سر قوته وعنصر دوامه.

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة. . إنه بهذا يود ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الحرمان الذي يسمى الشرف، وألا يكون بينهما إلا قيد غريزتها الذي ينحل من تلقاء نفسه في لحظة ما، وأن يترك لقوته وتترك هي لضعفها؛ والقوة والضعف في قانون الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصاب وتسليم.

قلت: وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان؛ فإن بينهما قوة وضعفاً من نوع آخر، فمعه الثمن وبها الحاجة، وهما في قانون الضرورة ملك وتمليك.

قال : وهذا مما يقطع في قلبي ؛ فلو أن للأمة ديناً وشرفاً لما بقي موضع الزوجة فارغاً من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن في تلك المواضع الخالية أول ما ينزلن ، فكل بغي هي في المعنى دين متروك وشرف مبتذل في الأمة .

قلت : فحدثني عنك ما هذا الوجد بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خيالاً محضاً كأنما جمعتها في حواسك فأخذتها وتركته في وقت معاً ، وحواسك هذه لا تزال كما هي ، بل هي قد زادت حدة ، فكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بعد ؟

قال : أنا في محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذي تقول هي فيه إنك لا تحبني ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخلق ؛ ولكن يفي غيابها أفقد هذا الميزان الذي يزن المقدار ويحدده ، وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المعشوق ، فاعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بإزائها ما تقاومه ، فتتخلى عنه وتحذله ؛ وفضيلته لا تجد ما تستعلن فيه ، فتتوارى وتدعه ؛ وشخصيته لا تجد ما تبرز له ، فتتخفي وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهن والنقص وحدة الشوق ؛ وهنا ينتقم الحب مما زورت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية ، فيضرب

بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لا القوة، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التي كتمت عنه؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصد وتباعده، وهي في خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القدم وعلى هذه القدم! لا إنه لا بد في الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أي الروايات من مثلها؛ ولكن ثياب المسرح هي دائماً ثياب استعارة ما دام لابسها في دوره من القصة.

ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال: آه! إن هذا القلب يغضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان.

مَنْ من الناس لا يعرف أحزانه؟ ولكن من منهم الذي يعرف أسرار أحزانه وحكماتها؟ أما إنه لو كشف السر الأفراح والأحزان عملاً في النفس من أعمال تنازع البقاء؛ فهذا الناموس يعمل في إيجاد الأصلح والأقوى، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرق، ومن ثم كانت آلام الحب قوية حتى لكأنها في الرجل والمرأة تهيم أحدهما على الآخر؛ ليستحق القلب الآخر.

آه من هذا اللواعج! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر، وبذلك يصهر المعدن الإنساني

ويصنع صنعة جديدة؛ وإلى أن ينصهر ويتصفى ويصنع، ماذا يكون للإنسان في كل شيء من حبيبه؟
يكون له في كل شيء روحه النازي.

قلت: بخ بخ! هكذا فليكن الحب؛ إنها حين تهيج في نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبداع من جسمها؛ إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة.

قال: وأقوى الألم وأشد اللوعة! يا عجباً! كأن الحياة لا تقدم في عشق المحبوب إلا عشقها هي؛ فإذا وقعت الجفوة، أو حم البين، أو اعترى اليأس - قدم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت.

إن الحزن الذي يجيء من قبل العدو يجيء معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه؛ ولكن أين ذلك في حزن مبعثه الحبيب؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب؟

قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً؛ فإذا كان غد وانسلخ النهار من الليل جئنا إليها فرأيناها في المسرح، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر، قال: أرجو..

ولم يكذ ينطق بهذه الرجية حتى مر بنا سبعة رجال يقهقهون، ثم تلاقينا وجئنا؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها

رحلت ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . من قوله : أرجو . .

ولماذا رحلت ؟ لماذا؟

وأما هو . . ؟

وأما صاحب القلب المسكين فما علم أنها قد رحلت عن ليلته حتى أظلم الظلام عليه ، كأنها إذا كانت حاضرة أضواء شيء لا يرى ، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء ؛ ورأيته واجماً كاسف البال يتنازعه في نفسه ما لا أدري ، كأن غيابها وقع في نفسه إنذار حرب .

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتاعون بها ويرتمضون منها وهي أحجار وآثار وبقايا؟ وما الذي يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة؟ يتلقاهم بالفراغ القلبي الذي لا يملؤه من الوجود كله إلا وجود شخص واحد ؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا ملياً كأنها انتهت إلى نهاية في النفس العاشقة ، فتبطل حينئذ المبادلة بين معاني الحياة وبين شعور الحي ؛ ويكون العاشق موجوداً في موضعه ولا تجده المعاني التي تمر به ، فترجع منه كالحقائق تلم بالفراغ من وعي سكران .

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما الذي يجعل فيك
تلك القدرة الساحرة؟ أهو فصلك بين زمن وزمن، أم جمعك
الماضي في لحظة؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة، أم تكبيرك الحقيقة إلى
إضعاف حقيقتها، أم تصويرك روحية الدنيا في المثال الذي تحسه
الروح، أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنية على الانقلاب،
أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن، أم رجوعك باللذة
ترى ولا تمكن، أم أنت كل ذلك؛ لأن القلب يفرغ ساعة من الدنيا
ويمتلئ بك وحدك؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب! ما هذه القوة السحرية
فيك تجتذب بها الصدر ليضمك، وتستهوئ بها الفم ليقبلك،
وتستدعي الدمع لينفر لك، وتهتاج الحنين لينبعث فيك؟ أكل ذلك
لأنك أثر الحبيب، أم لأن القلب يفرغ ساعة من الدنيا ولا يجد ما
يخفف عليه سواك؟

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم
العالم؛ وتلك هي طبيعة الألم الذي يفاجئ الإنسان من مكن
لذته وموضع سروره، فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة
نفسها، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه في قبر الماضي، يكون أماً؛
لأن فيه المضض، وكآبة؛ لأن فيه الخيبة، وذهوياً؛ لأن فيه

الحسرة؛ وتتم هذه الثلاثة الهموم بالضيق الشديد في النفس؛
لاجتماع ثلاثتها على النفس؛ فإذا المسكين مبعوت كأن الآلام
أطبقت عليه من الجهات الأربع، فقلبه منها صدوع صدوع..

وجعلت أعذل صاحبنا فلا يعتدل، وكلما حاولت أن
أثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود؛ ثم تنفس
وهو يكاد ينشق غيظاً وقال: لماذا رحلت؟ لماذا؟

قلت: أنت أذلت جمالها بهذا الأسلوب الذي ترى أنك
تعز جمالها به، وقد اشتدّت عليها وعلى نفسك، وتعنّت على
قلبك وقلبها؛ كانت ظريفة المذهب في عشقها وكنّت خشناً في
حبك، وسوغتك حقاً فرددته عليها، وتهالكت وانقبضت أنت،
ورفعت قدرك عن نفسها تحبباً وتودداً فخفضت قدرها عن نفسك
من اطراح وجفاء، واستفرغت وسعها في رضاك فتغاضبت،
ونضت عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شيء سؤالاً فلم تكن أنت
من جوابها في شيء..

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعت أن تكون البادئة،
فالتوت على صاحبها وهي عاشقة، وجاحدت وهي مقرة؛ إذ
تريد في أن تتحقق أنها محبوبة، وفي الثانية أن يقدم لها البرهان على
أنها تستحق المهاجمة، وفي الثالثة هي تريد ألا تأخذها إلا قوة قوية

فتمتحن هذه القوة، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهذا الامتناع شأن وقيمة، فتذيق صاحبها المرقبل الحلو؛ ليكبر هذا بهذا.

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدىء صاحبها، ثم ابتدأت ولم تجد الجواب منه، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب، فإن الابتداء حينئذ يكون هو النهاية، وينقلب الحب عدو الحب؛ وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها: سأتألم ولكن لن أغلب، فكان الذي وقع وأسفاه -أنها تألمت حتى جنت، ولكن لم تغلب..

قال: فما بال هذه؟ أما تراها تبتدىء كل يوم رجلاً؟

قلت: إنها تبتدىء متكسبة لا عاشقة، فإذا أحبت الحب الصحيح أرادت قيمتها فيما هو قيمتها؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنف وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة؛ فإنها لذات جديدة للمرأة التي لا تجد من يخضعها؛ وفي طبيعة كل امرأة شيء لا يجد تمامه إلا في عنف الرجل، غير أنه العنف الذي أوله رقة وآخره رقة؟

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة؛ والشيء الغريب يسمى غريباً فيكفي ذلك بياناً في تعريفه، غير أنه

إذا وقع في الحب سمي غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شيء غريب ، ثم تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون .

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ؛ وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فإحداهما بالنفس العظيمة في الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرقيق في العشاق ؛ وفي هذه من هذه شبه ؛ لوجود العظمة الروحية في كليهما غالبية على المادة ، مجردة من إنسان الطين من النور ، محركة هذه الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السمو ، ذاهبة بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل ، واضعة مبدأ التجديد في كل شيء يمر بالنفس ، منبعثة بالأفراح من مصدرها العلوي السماوي .

بيد أن في العشق أنبياء كذبة ؛ فإذا تسفل الحب في جلال ، واستعلنت البهيمية في عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجر ، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السقوط ، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأقبح . والأسوأ ، وتجدد لكل شيء في النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى - إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟

لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق ، كما يقلد النبوة الكبيرة في بعض الدجالين .

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان في الحديقة ، وكنا دخلناها ليجدد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به ؛ واستفاض كلامنا في وصف تلك العبهة^{٥٢} الفتانة التي أحلته هذا المحل وبلغت به ما بلغت وكان في رقة لا رقة بعدها ، وفي حب لا نهاية وراءه لمحـب ؛ وخيل إلى أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما !

وأفـنع ما في حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرجـه من حالة الفكر ، ويؤنس قلبه بالألفاظ ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ؛ فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها في اللغة لا في النفس ؛ وفي كل ذلك حيلة على النسيان ، وتعلل إلى ساعة ؛ وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين في هذا البلاء الذي يسمى الفراق أو الهجر .

وكان من أعجب ما عجبت له أن صديقاً مر بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يومئذ إلي : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم ؛ لا

^{٥٢} هي التي جمعت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية.

هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة ، وأحسب أن عندك رأياً فاقض
بيننا . . .

ويسأله الصديق : ما القضية؟ فيقول وهو يشير إلي :

إن هذا قد تحرق قلبه من الحب فلا يدري من أين يجيء
لقلبه برقعة . . وإنه يعشق فلانة الراقصة التي كانت في هذا
المسرح ، ويزعم لي . . أنها أجمل وأفن وأحلى من طلعت عليه
الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى في كل
ما يضيء القمر عليه ، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبداً . . .
لأن ألحاظها تذوب في الدم وتجري فيه ، وأن الشيطان لو أراد
مناجزة العفة والزهد في حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك
كل حيله وأساليبه وقدم جسمها وفنها . .

فيقول له المسؤول : وما رأيك أنت؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحباً لقد صحا . إن المشكلة في
الحب أن كل عاشق له قلبه الذي هو قلبه ، وحسبها أن مثل هذا هو
يصفها ؛ وما يدرينا من تصاريف القدر بهذه المسكينة ما عليها مما
لها ، فلعلها الجمال حكم عليه أن يعذب بقبح الناس ، ولعلها
السرور قضي عليه أن يسجن في أحزان!

وقلت له : يا صديقي المسكين ! أوكّل هذا لها في قلبك؟
فما هذا القلب الذي تحمله وتتعذب به؟

قال : إنه والله قلب طفل ، وما حبه إلا التماسه الحنان
الثاني من الحبيبة ، بعد ذلك الحنان الأول من الأم ؛ وكل كلامي في
الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق
تفكيره .

آه يا صديقي ! من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب
لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا في اثنين : من كان فيلسوفاً
عظيماً ، ومن كان مغفلاً عظيماً !

وافترقنا ؛ ثم أردت أن أتعرف خبره فلقيته من الغد ،
وكان لي في أحلامي تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن
أعجب ؛ أما أنا فلا يعني القراء شأني وقصتي .
وأما هو ؟ . . .

وأما هو فحدثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه
وفنه ، قال : انصرفت إلى داري وقد عز عليّ أن يكون هذا منها وأن
يكون هذا مني ، وهي إن غابت أو حضرت فإنها لي كالشمس
للدنيا : لا تظلم الدنيا في ناحية إلا من أنها تضيء في ناحية ؛

فظلمتها من عمل نورها ؛ وكانت ليلتي فارغة من النوم فبت
أتململ ، وجعل القلب يدق في جنبي كأنه آلة في ساعة لا قلب
إنسان ؛ وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي سكت بعد
خطبة طويلة ، وفي أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال
لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران الذي انطرح من
ثقله السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد ؛ والوجود كله يبدو
كالمختنق ؛ لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري ؛ ونظرت نظرة
في النجوم فإذا هي تتغور نجماً بعد نجم ، كأن معنى الرحيل انتشر في
الأرض والسماء إذ رحلت الحبيبة ؛ وكأن كل وجه مضيء يقول
لي كلمة : لا تنتظر !

فلما عسعس الليل رميت بنفسي فنمت والعقل يقظان ،
وصنعت الأحلام ما تصنع ، فرأيتها هي في تلك الشفوف التي
ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجب كبرياء المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو
لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء ، ثم تدل
بنفسها أن ترفع هذا الستر ، فإن لم يتجرأ هو لم تتجرأ هي ؛ وكأنها
تقول له : قد رفعته بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك . .

وكانت مصورة في الحلم تصويراً آخر ؛ فلا ينسكب من
جسمها معنى الحسن الذي أتأمله وأعقله ، ولكن معنى السكر

الذي يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لي كاللون على الورد الزاهية : تظهر فتنة وتتم فتنة .

أيتها الأحلام ، ماذا تبدعين إلا مخلوقات الدم الإنساني ،
ماذا تبدعين ؟

قلت : يا صديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قص ما رأيت ، ثم ماذا بعد الورد ولون الورد ؟

قال : إنه القلب المسكين دائماً ، إنه القلب المسكين ، لقد ضحكت لي وقالت : ها أنذا قد جئت ! وأقبلت ترأيني بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتتهد بصدرها ، وألقت يديها في يدي ، فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم تركناهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هنيهة وقد خيل إلينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا !

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت في يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقل إلى عينيها فإذا هما فاترتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلم قصير ؟
قلت : يا صديقي دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يد على يد ؟

قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط .

قلت : حسبي لكأنك شرحت لي ما بقي . .

فضحك طويلاً ، وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك

أيضاً ، وكأنني به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره . .

أفتدري ما الذي كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنت مولعاً بامتحان قوتي في الضغط بيدي على أعواد

منصوبة من الحديد ، أو على أيدي الأقوياء إذا سلمت عليهم ؛

فلما صافحتني لبثت مدة من الزمن ثم شددت على يدها قليلاً

قليلاً ، فتنبهت في هذه العادة ، فمسخت الحلم وانصرف وهمي إلى

أقبح صورة وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات الحب ؛

فإذا بإزائي وجهه ، وجه من ؟ وجه مصارع ألماني كنت أعرفه من

عشرين سنة وأضغط على يده . .

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبهت في تلك الشدة

من يدك ، ولا يزال أملك عجيئاً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع

الناس شياطين ؟

قال : والذي هو أعجب أنني رأيت في أضغاث أحلامي

كأن قلبي المسكين يخاصمني وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء

الضلوع كأنه مخلوق من الظل يرى ولا يرى إذ لا شكل له ؛ وسبني

وسببته ، وقلت له وقال لي ، وتغالظنا كأننا عدوان ؛ فهو يرى أنني أنا أمنعه لذاته ، وأرى أنه هو يمنعني ، وأنه أشفى بي على ما أشفى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرار على جنائتك ، فاذهب عني ولا تتسم باسمي فإنه لا فلان لك بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلمت أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوع مخفف من التقبيل ، فإذا هي تركته يرتفع في الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فإذا هي تركته يشتد في الدم انتهى يوماً إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول في الحب ، ولكنك مخذول ! .

وقال لي فيما قال : وأنت أيها الخائب؟ أما علمت أن أناملها الرخصة هي أناملها ، لا أعوادك من الحديد؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشدة التي أخرجت لك وجه المصارع؟ ولكنك خائب في الحب ، ولكنك خائب !

قلت : فهذه قضية بيني وبينك أيها القلب العدو ؛ لقد تركتني من الهموم كالشجرة المنخربة قد بليت وصارت فيها التخاريب ؛ فلا حياتها بالحياة ولا موتها بالموت ، وكم علقنتي بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصار ينتهي ولا فيها مطمع يتدئ ؛ ما

أنت فيّ إلا وحش أكبر لذته لطم الدم!

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتني في محكمة الجنايات ،
وكأنني شكوت قلبي إليها فهو جالس في القفص الحديدي بين
المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل في أمرهم ؛ وقد ارتفع
المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم ، وجلس النائب العام في مجلسه
يتولى إقامة الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها
غلافًا كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أول من تكلم فقال : ليس في قضية
القلب محام ، فابغوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى
تختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أوهنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه
ليس تحت هذه -وَأوَمَأَ إلى السماء- ولا فوق هذه -وَأوَمَأَ إلى
الأرض- إلا . . .

فبدر النائب العام وقال : إلا الحبيبة ؟ أ كذلك ؟ غير أنها
أستاذة في الرقص لا في القانون !

- القلب : ولكنني لا أختار غيرها محكوماً لي أو محكوماً
علي ؛ أنا أريد أن أنظر فيها وانظروا أنتم في القضية . .

- الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إيدن لها أيها
الآذن .

فنادى المحضر : الأستاذة ! الأستاذة !

وجاءت مبادرة ، ودخلت تمشي مشيتها وقد افتر ثغرها
عن النور الذي يسطع في النفس ؛ وأومضت بوجهها يمينا وشمالا ،
فصرف الناس جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛
وثارت في كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقة البشرية فانقضت طباع
الموجودين في قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانون المحكمة ،
فوقعت الضجة وعلت الأصوات واختلطت ؛ وترددت بين جدران
المكان صدى في صدى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين .

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله !
تبارك الله ! آه آه ! آه آه ! وسمع صوت يقول : اتهموني أنا أيضاً . .
فنفرت الكلمات : وأنا ، وأنا ، وأنا ! واختفت المحكمة وانبعث
المسرح بدخول فاتنته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام في
أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط ؛ لا يخشاها أحد أن
تنظر إلى ما يصنع !

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان
الله . . المحكمة المحكمة !

-النائب العام: هذا بدء لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن
تسحب عليه، نعم إن هذا الوجه الجميل أبرع محام في هذه
القضية، ونعم إن جسمها . . آه ماذا؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة
القاهرة لتدافع عن المشتبه . . عن المتهم، هذا وضع كوضع العذر
إلى جانب الذنب، وكأنكم يا حضرات المستشارين . .

فبدرت المحامية تقول في نغمة دلال وفتور: وكأنكم يا
حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً . . .
واشتد ذلك على النائب، وتبين الغضب في وجهه؛
فقال: يا حضرة الرئيس . .

-الرئيس مبتسماً: واحدة بواحدة، وأرجو ألا تكون لها
ثانية، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها الثالثة . . "ضحك"
قال صاحب القلب المسكين: وكنت بلا قلب . . فلم
ألفت للجمال، بل راعني ذكاء المحامية ونفاذها وحسن اهتدائها
إلى الحجة في أول ضرباتها، وتعجبت من ذلك أشد التعجب،
وأيقنت أن النائب العام سيقع في لسانها، لا كما يقع مثله في لسان
المحامي القدير، ولكن كما يقع زوج في لسان زوجة معشوقة
متدللة تجادله بحجج كثيرة بعضها الكلام . . وقلت في نفسي: يا
رحمة الله لا تجعلني من النساء الجميلات الفاتنات محاميات في هذه

المحاكم ، فلو ألبسوهن لحى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة ، نداء قانونياً للقبلات . .

ونهضت المحامية العجيبة فسلطت عينيها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر في هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبي المسكين . . أريد أن أتعرف الرأي القانوني في اعتبار الجريمة . أهى شخصية ، فتقصر على صاحبها ؛ أو خاصة ، فتضرر غير جانبها ، أو عامة ، فيتناولها العموم المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؛ أو هي أعم ، فيتناولها العموم المطلق للهيئة الاجتماعية ؛ ما هي جريمة قلبي ؟

-الرئيس : ما رأي النيابة ؟

النائب " ضاحكاً " : " غزالتها رايقة " كما يقول الراقصات والممثلات . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص في العام . . " ضحك " .

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبي بكر ؛ كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتغلظ له الكلام ، وهو يفرق منها ولا يخالفها ؛ فرآها يوماً وقد طابت نفسها ، فأراد أن يتتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يا فلانة قد والله - أحرق قلبي . . ولم تدعه يتم الكلمة ، فحددت

نظرها إليه وقطبت وجهها وقالت : أحرق قلبك ماذا؟ فخاف ولم
يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال ؛ حب أبي بكر الصديق
رضي الله عنه . . " ضحك " ، ورنث ضحكة المحامية فاضطربت
لها القلوب ، ووقعت في كل دم ، وفي دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم
يزد على أن يقول : أحتج من كل قلبي . .

الرئيس : لندخل في الموضوع ولتكن المرافعة مطلقة ؛ فإن
الحدود في جرائم القلب تسدل وترفع كهذه الستائر في مسرح
التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة .

- النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول
اتهامي ؛ فإن هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة .
المحامية : ولكنه قلب .

النائب : وأنا يا سيدتي لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه
كلب . " ضحك " ، وتضرج وجه المحامية وخجلت .
- الرئيس : الموضوع الموضوع .

- النائب : يا حضرات المستشارين ، إن ألم هذه الجريمة إما
أن يكون في شخص الجاني أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجاً
مثلاً ، أو صيته الأدبي ؛ فإما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم

إن القلب المسكين قرار لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم . . " ضحك " .

- المحامية : أستمح النائب عذراً إذا أنا . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه " التذاكر " . . " ضحك " وتفرج وجه النائب العام وخجل .

- الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقي ألا يكون للثالثة رابعة ؟

- النائب : يا حضرات المستشارين ، وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلب رجل متزوج ؛ ولا تغرنكم صوفية هذا القلب ، ولا يحدعنكم تألهه وزعمه السمو . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء ، على الزواج وعلى الشرف ؛ وهبوه متصوفاً متألهاً ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . وبهذا اقترف الجريمة ؛ آه ! إن هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً ، فأتموه أنتم . يا حضرات المستشارين ، إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

-المحامية : هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور! يا حضرة النائب ، من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه ، بل ألف شاهد على ليلة واحدة . .
يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء في لفظة " نائب " غير النون والباء في لفظة " نبي " .

-النائب : يا حضرات المستشارين ، لا أرى مما يخرجني في الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيرني في هذه الجريمة أن ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا ثلم الكرامة ، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . .
-المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقه في هذه القضية ؛ فلعل المحكمة تأمر لي بكأس . .
" ضحك " .

-النائب : يا حضرات المستشارين ، يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً ، بل عرباً في شكل ثياب . . امرأة لا كالنساء ، كذبها هو صدق من شفيتها ؛ لماذا؟ لأنهما حمران رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . .
المحامية : تضحك . .

- النائب " بعد أن تتمتع " : امرأة لا كالنساء ، جعلتها
الحرفة امرأة في العمل ، ورجلاً في الكسب . .
- المحامية : ولكنك لا تدري أي حمل سقطت المسكينة ،
وقد يكون في الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب : ذات
عظمة . .

- النائب : يحب راقصة أي يضعها في عقله الباطن
ويشتهيها ؛ نعم يشتهيها ، فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من
واعيته -تخرج الجريمة أو على الأقل ، فكرة الجريمة .
والصيت الأدبي يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة
لمن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة في الحب ؟ ألم يقولوا : إن
كرامة الرجل تكون تحت قدمي المرأة المعشوقة كالممسحة الخشنة
تمسح فيها نعلها !

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان
يتلبس لجسم العاشق ؛ ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب
الحيواني للإنسان هو الذي يهيئ من الحب مداخل ومخارج
للشياطين في جسمه ؛ وهل رضي صاحب القلب المسكين بجنابة
قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ؟ هل رضي عشقه
راقصة ؟ إن لم يرض الرضى الصحيح ، أو رضي بقدر ما ؛ فعلى

كليهما يقوم في نفسه مانع ؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة .

-المحامية : ولكن قدرا من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما في القانون الإنجليزي ، وقد قرر الشراح أنه ما دام الرضى غير مستلب ب كله ، فالجريمة غير واقعة ب كلها .

-النائب : جنحة كل قلب هي جناية من هذا القلب بخصوصه ، على طريقة " حسنات الأبرار سيئات المقربين " ؛ والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية ، وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحيانا سببا في تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة في هذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة .

-المحامية : قد نسيت أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء .

-النائب : إذن أطلب عقابه بجرمانه الجمال : وهذا أشق عليه من العقاب باثنتي عشرة مادة وبعشرين وثلاثين .

الرئيس : وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكم بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ، وبالسنيما فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا

حب، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والديميمات، ويمنع نشر صور الجمال في الصحف والكتب، و . . .

المحامية: قل في كلمة واحدة: يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القلب الإنساني!

وجلس النائب، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها: وأما هو؟ . .

قال صاحب القلب المسكين: ووقفت المحامية وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب، ونقلتهم في الزمن إلى مثل الساعة المصورة التي ينتظر فيها الأطفال سماع القصة العجيبة؛ ساعة فيها كل صور اللذة للقلب.

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها، فلو نطقت غياً أو رشداً فلهذا صواب ولهذا صواب، لأن أحد الصوابين منظور بالآعين.

كان صوت النائب العام كلاماً يسمع ويفهم: أما صوت المحامية الجميلة فكان يسمع ويفهم ويحس ويذاق، تلقيه هي من ناحية ما يدرك، وتلقيه النفس من ناحية ما يعشق؛ فهو متصل

بحقيقتين من معناه ومعناها، وهو كله حلاوة؛ لأنه من فمها
الحلو.

وبدأت فتناولت من أشياءها مرآة صغيرة فنظرن فيها.

- النائب العام: ما هذا يا أستاذة؟

- المحامية: إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليف عيني،

فأنا أسأل عيني قبل أن أتكلم!

- النائب: نعم يا سيدتي، ولكنني أرجو ألا تدخلني

القضية في سر المرأة وأخواتها. . إن النيابة تخشى على اتهامها إذا

تكلمت لغة الدفاع!

فضحكت المحامية ضحكة كانت أول البلاغة المؤثرة. .

- النائب: من الوقار القانون أن تكون المحامية الفتانة غير

فتانة ولا جذابة أمام المحكمة.

- المحامية: تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة؟

"ضحك".

- النائب: جمال حسناء، في ظرف غانية، في شمائل

راقصة، في حماسة عاشقة، في ذكاء محامية، في قدرة حب؛ هذا

كثير!

- المحامية: يا حضرات المستشارين ، لم تكن المرأة هفوة من طبيعة المرأة ، ولكنها الكلمة الأولى في الدفاع ، كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشي على اتهامه إذا تكحلت له لغتي .

- القضاة يتبسمون .

- النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانوني ، الوقار ، نعم الوقار ؛ فإن المحامية أمام المحكمة ، هي متكلم لا متكلمة .
- المحامية : متكلم بلحية مقدرة منع من ظهورها التعذر " ضحك " . .

كلا يا حضرة النائب ؛ إن لهذه القضية قانوناً آخر تنتزع منه شواهد وأدلة ؛ قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضاني أن أرقص لرقصت ، أو أغني لغنيت ، أو سحر الجمال لأثبتته أول شيء في النائب . .

- الرئيس : يا أستاذة !

- المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنائب في جريمتنا هو خصم القضية ، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية .

- النائب : لو حدث من هذا شيء لكان إحياء لعواطف المحكمة . . . فأنا أحتج !

- المحامية : احتج ما شئت ، ففي قضايا الحب يكون العدل عدلين ؛ إذ كان الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك .

النائب : هذه العقدة ليست عقدة في منديل يا سيدتي ، بل هي عقدة في القانون .

- المحامية : وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار يا سيدي ، بل هي قضية إخلاء قلب !

- الرئيس : الموضوع ، الموضوع !

- المحامية : يا حضرات المستشارين ، إذا انتفى القصد الجنائي وجبت البراءة .

هذا مبدأ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجودي في جريمة قلبي المسكين ؟

- النائب : أوله حب راقصة .

- المحامية : آه ! دائماً هذا الوصف ؟ هبوها في معناها غير جديرة بأن يعرفها ؛ لأنه رجل تقي ، أفليست في حسننها جديرة بأن يحبها ؛ لأنه رجل شاعر ؟ أحكموا يا حضرات القضاة ؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها رهن بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التي تدفع . . فلماذا لم ينلها وهي متعرضة له ،

وكلاهما من صاحبه على النهاية، وفي آخر أوصاف الشوق؟ أليس هذا حقيقةً بإعجابكم القانوني كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوة فكر، فما الذي يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها؟

- القضاة يتسمون .

- النائب : نسيت المحامية أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على النهاية وفي آخر أوصاف الشوق . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة .

- المحامية : آه! دائماً الراقصة ، من هي هذه المسكينة الأسيرة في أيدي الجوع والحاجة والاضطرار؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة؟ أليست هي الجائعة التي لا تجد من الفاجرين إلا لحم الميتة؟ نعم إنها زلت ، إنها سقطت ، ولكن بماذا؟ بالفقر لا غير ، فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها ، وفقر العدل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهملها! يا للرحمة لليتيمة من الأهل ، وأهلها موجودون! والمنقطعة من الناس ، والناس حولها!

تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تدعون الحياة الظالمة تعكس ما شاءت فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي ، وتقلب ما يجب إلى

ما لا يجب ، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط ، قلت له : شأنك بنفسك ، ونفستم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى ، ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاه الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد ، تخرج لكم مسببات أخرى غير فاسدة .

تأتي المرأة من أعمال الرجل لا من أعمال نفسها ، فهي تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع ظملاً آخر فيأخذها وحدها بالجريمة ، ويقال : سافلة ، وساقطة ؛ وما جاءت إلا من سافل وساقط !

لماذا أوجبت الشريعة الرجم بالحجارة على الفاسق المحصن ؟ أهى تريد القتل والتعذيب والمثلة ؟ كلا ؛ فإن القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا ، ولكنها الحكمة السامية العجيبة : إن هذا الفاسق هدم بيتاً فهو يرجم بحجارته !

ما أجلك وأسماك يا شريعة الطبيعة ! كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم .

تستسقطون المسكينة ، ولو ذكرتم آلامها لوجدتم في ألسنتكم كلمات الإصلاح والرحمة لا كلمات الذم والعار ؛ إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هذا إلا أنها تسعى إلى الرزق

بأقوى قوتها؟ نعم إن ذلك معنى الفجور ، ولكن أليس هو نفسه
معنى القوت أيها الناس؟

- الرئيس وهو يسمح عينيه : الموضوع الموضوع !

- المحامية : ما هو الفعل الوجودي في جريمة قلبي
المسكين؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثل بنفسه
للشباب في تسامي غريزته عن معناها إلى أظهر وأجل من معناها؟
لبئس القانون إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل
ديني من أعمال الفضيلة !

- النائب : ألا ينجل من شعوره بأنه يحب راقصة؟

- المحامية : ومم ينجل؟ أمن جمال شعوره أم من فن
شعوره؟ أينجل من عظمة في سمو في كمال؟ أينجل البطل من
أعمال الحرب وهي نفسها أعمال النصر والمجد؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال
صاحبته وأن أظهر شيئاً من سر فنّها الذي هو سر البيان في فنّه؟

- النائب : إنها تتماجن علينا يا حضرات المستشارين ،
فالذي يحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجة . .

- الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى
أعمال يا حضرة الأستاذة .

- المحامية: كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيات المتكلمين بها أو المصغين إليها؛ فكلمة الحب مثلاً قد تنتهي إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور، وهي بعينها تبلغ إلى فكر حاملة إلى سموه من سموها؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين؛ فالأصل في مدنية هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفة... وإكرام المرأة إكرام مغازلة... يقولون: إن رقم الواحد غير رقم العشرة، فيضعونه في حياة المرأة، فما أسرع ما يجيء "الصففر" فإذا هو العشرة بعينها!

أما الشرقيون فالأصل في مدنيته التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها، لا جرم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين: الاستبداد والعدل، والقسوة والرحمة، و...

- النائب: وامرأة البيت وامرأة الشارع...

- المحامية: وبصر القانون وعمي القانون...

- الرئيس: وحسن الأدب وسوء الأدب... الموضوع

الموضوع.

- المحامية: لا والذي شرفكم بشرف الحكم، يا حضرات المستشارين؛ ما يرى القلب المسكين في حبيته إلا تعبير الجمال، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن، وما بينه وبينها إلا

أن حقيقة الجمال تعرفت إليها فيها ، أئن أحس الشاعر سرّاً من
أسرار الطبيعة في منظر من مناظرها ، قلم أجرم وأثم؟

هذا قلب ذو أفكار ، وسيله أن يعان على ما يتحقق به من
هذا الفن ، قد تقولون : إن في الطبيعة جمالاً غير جمال المرأة فليأخذ
من الطبيعة وليعط منها ؛ ولكن ما الذي يحبي الطبيعة إلا أخذها من
القلب؟ وما هي طريقة أخذها من القلب إلا بالحب؟ وقد تقولون :
إنه يتألم ويتعذب ؛ ولكن سلوه : أهو يتألم بإدراكه الألم في
الحب ، أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار التعقيد في الخير والشر؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا في أحد الطرفين :
هم أكبر من الهم ، فرح أكثر من الفرح ؛ فإذا عشقوا تجاوزوا
موضوع الوسط الذي لا يكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا
فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة .

هذا قلب مختار من القدرة الموحية إليه ، فالتى يحبها لا
تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك الوحي ، وهما بهذا
قوتان في يد الجمال لإيداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتاهما
عظيمة . .

فإن قلم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه ، قالت
الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة .

إن خمسين وخمسين تأتي منهما مائة ، فهذا بديهي ، ولكن ليس أبين ولا أظهر ولا أوضح من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المعشوقة يأتي منهما فن .

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة إلى غرفتهم ؛ ليتداولوا الرأي فيما يحكمون به ، وأومأت لي المحامية الجميلة تدعوني إليها ، فنهضت أقوم فإذا أنا جالس وقد انتبهت من النوم .

جائزة : لمن يحسن كتابة الحكم في هذه القضية خمس نسخ من كتاب " وحي القلم " ، وترسل المقالات " باسمنا إلى طنطا " ، والموعد " إلى آخر شهر يناير هذا " والشرط رضى المحكمين ، ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبه . .

المجنون

جاء يمشي هادئاً يتخيل في مشيته ، ويرجف بين الخطوة والخطوة كأنه من كبره يشعر أن الأرض مدركة أنه يمشي فوقها . . . ولا ينقل قدمه إذا خطا حتى ينهض برأسه يحركه إلى أعلى ، فما تدري أهو يريد أن يطمئن إلى أن رأسه معه . . . أم يخيل إليه أن هذا الرأس العظيم قد وضع على جسمه في موضع راية الدولة ، فهو يهزه هز الراية . . .

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طول غرفة وعرضها ، فإذا هو زائع البصر كأنما وقع في صحراء يقلب عينه في جهاتها متحيراً متردداً ، ثم كأنما رفع له في أقصاها جبل فأخذ إلى ناحيته . . .

ورحبت به ، وأجلسته إلى جانبي ، فأخذ يستعرف إلي بذكر اسمه وجماعته وبلده ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، كأنه عنتره بني عبس ، لأرضه من طبيعتها جغرافيا ، ومن اسمه جغرافيا حدة . . . فلما رأي لا أثبتة معرفة قال : " إن بك نسياناً " .

قلت : وكثيراً ما أنسى غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكر بتاريخ .

قال: " هذه غلطة الجرائد . . . ومهما تنسى من شيء فلا تنس أنك أستاذ " نابغة القرن العشرين " ^{٥٣} .

فسرحت فيه نظري ، فإذا أنا بمجنون ظريف أمرد أهيف ، يكاد برخاوته وتفككه لا يكون رجلا ، ويكاد يبدو امرأة بجمال عينيه وفتورهما .

وتوسمت فإذا وجه ساكن منبسط الأسارير ممسوح المعاني ، ينبئ بانقطاع صاحبه مما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأسه . . .

وتأملت فإذا طفولة متلبدة قد ثبتت في هذا الوجه لتخرج من بين الرجل والطفل مجنونا لا هو طفل ولا رجل .

وتفرست فإذا آثار معركة بادية في هذه الصفحة ، قتلاها أفكار المسكين وعواطفه .

وتبينت فإذا رجل مسترخ ، متفتر البدن ، حائر النفس ، كأنه قائم لتوه من النوم فلا تزال في عينه سنة ، وكأنه يتكلم من بقايا حلم كان يراه .

^{٥٣} هذا الشاب المجنون من الأذكىء، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية، ثم خولط في عقله فتركها؛ وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه.

وخيل إلي من هذا الخمول في هذا الشاب ، أن عليه جوا
من تشاؤبه ، وأن المكان كله يتشاءب ، فتشاءبت . . .

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال : إن " نابغة القرن
العشرين " رجل مغناطسي عظيم ؛ فيها هو ذا قد ألقى عليك النوم
. . . وحسبك فخرا أن تكون أستاذة وأخاه وثقتة ، " فليس على
ظهرها اليوم أديب غيري وغيرك . . . " .

قلت في نفسي : إنا لله ، ما يعتقد الرجل أن على ظهرها
مجنونا غيره وغيري ، وكأنما ألم بذلك فقال : لست مجنوناً ؛ ولكني
كنت في بیمارستان . . .

قلت : أهو بیمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب ؟
قال : لا ؛ إن هذا الذي تسميه أنت ، هو هو مستشفى
المجاذيب ؛ أما الذي سميته أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرت عندئذ أن من المجانين قوما ظرفاء يدخلهم الفساد
في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح ، فلا يكون جنونهم
جنونا إلا من هذا الوجه ، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير
أنهم بذلك طياشون متقلبون ، إذا ازدهي لم يطقه الناس من زهوه
وكبريائه وتنطعه ، كأنه واحد الدنيا في هذ الفكرة ، وكأن بينه وبين

الله أسراراً، ويظن عند نفسه أنه أعقل الناس في أرقى طبقات عقله، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها.

ومثل هذا لا بد له من يستجيب لهذيانه كيما يحرك فيه خفته وطيشه وزهوه، وليكون عنده الشاهد على هذا الوجود الخيالي المبدع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل، فإذا هو ظفر بمن يحاسنه، أو يصانعه، أو يجاريه، حسب مذهبنا مؤمناً مصداقاً، فلا يدعه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق، ويراه كأنه في ملكه . . . فيتخذ صفياً وهو يعتقد أنه رقيق، وقد يزعمه أستاذه ليفهمه من ذلك بحساب عقله . . . أنه تلميذه.

وخشيت أن يكون " نابغة القرن العشرين " لم يسمني أستاذه إلا بحساب من هذا الحساب، فهو سيعطي الأستاذية حقها، ولكن كما هو حقها في لغة جنونه . . . فأصبح في رأيه تلميذه وصنيعته، ومحدث هذيانه، وثقته وملجأه، والمحامي من ورائه.

قلت في نفسي: إذا أنا تركته جالسا كان هذا المجلس مثابته من بعد، فلا يعرف له محلاً غيره، ويصبح كما يقال في تعبير القانون " محله المختار "، فيتطراً إلي لسبب ولغير سبب، ويقع في أوقاتي وقوع السهو لا حساب عليه، ويضيع فيه ما يضيع، فأجمعت أن أصرفه راضياً باليأس، وقد انتهت نفسه من معرفتي،

وانتهى عقله إلى الرأي أنني لا أصلح له أستاذًا، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس .

فقلت له : ظني بك أنك أستاذ نفسك ، ولا يحسن بنا بعة القرن العشرين أن يكون له في القرن العشرين أستاذًا ؛ وأراك قد فرغت للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتي ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تفي به الساعات الباقية من الوقت و . . . فقطع علي وقال : إن الوقت ليس في الساعة ؛ والدليل أنني أعطتها فيتعطل الوقت ، ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة .

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمس التي تعين منازل النهار ، فسيمر الظهر ويحين العصر و . . . قال : ويأتي غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ " نابغة القرن العشرين " ، فقد قرأت الكثير في الأدب وقرأتكم ، فما كان لي رأي إلا رأيته لك . . . ولا صحت عندي نظرية إلا رأيته قد أبديتها ، وأنا لا أعتقد أدبا في مصر إلا ما توافينا عليه معا " ولا أسلم جدلا ، ولا جدلا أسلم أن في مصر أدباء ينالون مني شيئا ، فهو أنا وأنا هو " ، ولئن لم يدعنوا " لنا بعة

القرن العشرين " فليعلمن أنهم " وقعوا مني موقع غلة على صخرة . . . هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجائر وليس معي ثمنها " .

فتهللت واستبشرت ، وقلت له : هذا قرش فهلهم فاشتر به دخائلك ، وفي رعاية الله ، ثم استويت للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكن في مجلسه . . .

وكرهت أن أغير له وما أشك أنه في هذا صحيح التمييز ؛ فما أسرع ما قال : إن " نابغة القرن العشرين " فتى قوي الإرادة ؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعات فما هو بصبور . . . وإذا لم يثبت لك هذا الأمر عن معاناة . . . فما أعطيته حقه .

فقلت في نفسي : لقد غرست الرجل من حيث أردت اقتلاعه ، وأيقنت أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحيانا فتلهمهم آيات من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت " بهلول " المجنون الذي حكوا عنه أن إبراهيم الشيباني مر به وهو يأكل خبيصاً^{٥٤} فقال له : أطعمني . قال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلي لأكله لها . . .

^{٥٤} طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن.

وقالوا: إنه مر بسوق البزازين فرأى قوما مجتمعين على باب وكان قد نقب، فنظر فيه وقال: أتعلمون من عمل هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

فقالوا: هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه، فألطفوا به لعله يخبركم. ثم قالوا: أخبرنا. قال: أنا جائع. فجاءوه بطعام سني وحلواء؛ فلما شبع قام فنظر في النقب وقال: هذا عمل اللصوص . . .

وكانت مجلة "الرسالة" في يد "نابغة القرن العشرين"، فوصل الكلام بها وقال: إنه يقرأ كل مقالاتي، وإنه وإنه، وإنها وإنها. قلت: فما استحسنت منها؟ قال: "مقالة السیما" . . . فقلت: متى كان آخر عهدك برؤية السیما؟ قال: أمس. قلت: فأنا لم أكتب مقالا عن السیما، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحول ما رأيته حلما في مقالة.

فأعجبه هذا التأويل وقال: بمثل هذا أنا "نابغة القرن العشرين"، فأقرأ مقالاتك في الغيب من قبل أن تكتبها . . . قلت: إنك تكثر أن تقول عن نفسك "نابغة القرن العشرين"، وهذا يحصر نبوغك في قرن بعينه؛ فلو قطعت الكلمة

وقلت : " نابغة القرن " ، لصح أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر ، وما قبلهما وما بعدهما .

فرايت به شدة كأنه يفكر في جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا ؛ وإن هاهنا موضع نظر ، فلو رضيت بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول : إني نابغة قرن خروف . . .

فقلت في نفسي : حماة مدت بماء °° ، وإن هذه الوسواس لا تنفك تعرفوا هذا المسكين ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار في ذهنه مجتمعته مختلطة مسترسلة كأنها ثورة من الكلام لا نظام لها ، فلاسكت عنه ولأتشاغل بما بين يدي .

وسكت وأعرضت عنه ؛ فجعل طائفه يعتريه ، وكأن السكوت قد سلط أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به في رأسه كما يصيح غلمان الطرق بالمجنون ، لا يزالون به حتى يجرده ويفقدوه البقية من صبره وعقله معا . فغضب " نابغة القرن العشرين " ونقله الغضب إلى حالة زمهرت فيها عيناه °٦ ، وكلح وجهه حتى خفت أن يثور به الجنون ، فأقبلت عليه وتعللت بسؤاله : ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة ؟

°° هذا مثل في معنى زاد الطين بلة ، والحماة إذا مدها الماء زادت واتسعت .

°٦ أي لمعت غضبا .

قال: إن له أخا يعذبه، ويوقع به ضرباً، ويعلله بالسلاسل، ويشده "بأمراس كتان إلى صم جندل"، وأنه أنزل به العذاب ما لو أنزله بججر لتألم.

قلت: فأنت في حاجة إلى راحة، ويحسن بك أن تأوي إلى مكان تتمدد فيه.

قال: إني منصرف وسأجلس في ندي كذا^{٥٧} "هذا من جهة، ومن جهة ليس معي ثمن القهوة".

قلت: فهذا قرش تدفعه ثمناً لها، فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك الندي، فالمكان ههنا كثير الضجيج والحركة. واستوفزت للقيام؛ ولكنه لم يتحلل من مجلسه.

ثم قال: أراك الآن مستبصراً أنني "نابغة القرن العشرين" بعينه.

قلت: بل بعينه اليمنى واليسرى معاً . . .

قال: لا. لا؛ إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد: عينه ونفسه وذاته. "أي أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته، فليس غيري نابغة القرن العشرين".

^{٥٧} نحن نستعمل الندي لمكان القهوة.

وكادت نفسي تخرج غيظاً ، ولكنني رأيت الحلم على مثل
هذا يجري مجرى الصدقة ؛ وقلت : إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق
لهم الإبداع الطريف إذا عللوا شيئاً ، كذلك القاص الذي كان
يقص على العامة سيرة يوسف -عليه السلام- فقال لهم فيما قال :
إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن
يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسم الذئب الذي لم يأكل
يوسف .

فقلت للمجنون : فما العلة عندك في أن العرب لم يقولوا
في التوكيد : عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله ؟

فنظر نظرة في الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخلطوا هذا
الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله
وبعيره وشاته ودراهمه . " هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي
أجرة السيارة إلى بلدي وهي قرشان " .

قلت : هذه هي أجرة السيارة وصحبتك السلامة ،
ونهضت واقفاً ؛ ولكنه لم يتحرك .

ثم قال : إنك لم تعرف بعد " أني أقول الشعر في الغزل
والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنني في الخطابة قس بن ساعدة

أو أكثم بن صيفي، وأناي صخر لا ينفجر . . . يابس لا ينعصر،
لست كالحجاج بل كعمر " .

قلت : هذا شيء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين
كلها، فقد آمنت أنك نابغة القرن العشرين في الأدب والشعر
والخطابة والترسل .

قال : والفلسفة؟

قلت : والفلسفة وكل معقول ومنقول ؛ وقد انتهينا على
ذلك .

قال : ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً " كما حسبتني
الجرائد التي زعمت أن اختفائي في بیمارستان كان لجنوني
الفكري أو لذكائي الطبيعي، وهو الأصح . . . فبين لهذه الجرائد
أني خرجت، وأناي سأطبع الأدب بطابع جديد " .

قلت : ولكني لست مراسل جرائد . قال : " فاجعلني
رسالة وراسلها عني أو أكتب لك أنا ما ترسله، وما جئتك إلا
لهذا؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة، وهذه الجرائد تعرفني
كلها، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية؛ فضلا عن أناي
كاتب فذ، وخطيب فذ، وشاعر فذ، وهذا قليل من كثير، فهل
أعول عليك في صلتني بالجرائد أو لا؟ " .

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك ، وقد بلوتهم وبلوا منك ،
فلست في حاجة إلي عندهم .

قال : إنهم يخشون بأسى ، وقد حسبوني مجنوناً استهوته
الشياطين ؛ وما علموا أن شيطان الشعر هو الذي استهواني ، كما
أن شيطان الحب هو الذي استهواك . . . هذا من جهة ، ومن جهة
ليس معي ثمن الغداء ، ولا أكلفك شيئاً . . . " .

قلت : فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب ، وهم الآن
يتغذون ويوشك إذا أبطأت أن توافقهم وقد استنفدوا الطعام ،
وأنت لا تجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة .

قال : صدقت ؛ يوشك أن أوافقهم وقد فرغوا من
طعامهم وغسلوا الآنية . فلأبق هذا للعشاء وسأطوي إلى الليل .

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ،
وأجرة السيارة إلى بلدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة
واسمه " طاق البصل " ^{٥٨} يغني بقيراط ولا يسكت إلا بدائق . هذا
من جهة ، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف .

فشق ذلك عليه وقام مغضباً وتنفست بعده الصعداء
الطويلة . . . وفتحت النافذة واستقبلت الهواء النقي وأخذت في

^{٥٨} هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث.

رياضة التنفس العميق، ثم زاغت عيني إلى الباب؛ فإذا " نابغة القرن العشرين " مقبل مع نابغة قرن آخر . . .

رأيت المجنونين يدخلان معا، فكأنا سدا الباب وسوياه بالبناء وتركا الغرفة حائطا مصمتا لا باب فيه، مما اعتراني من الضيق والخرج، وقلت في نفسي: إنه لا مذهب للعقل بين هذين إلا أن يعين كلاهما على صاحبه، فأرى أن أدعهما وأكون أنا أصرفهما؛ ويا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقليين يجتمعان على ابتكاره؛ غير أنني خشيت أن أكون أنا المجنون بينهما، ثم لا آمن أن يشب أحدهما بالآخر إذا خطرت به الخطرة من شيطانه، فرأيت أن يكون لي ظهير عليهما، إن لم يحق به العون فلا أقل من أن يطول به الصبر . . . وكان إلى قريب مني الصديق " ا. ش " ^{٥٩} فأرسلت في طلبه .

أما هذا المجنون الثاني الذي جاء به " نابغة القرن العشرين " فقد رأيته من قبل، وهو كالكتاب الذي خلطت صحفه بعضها في بعض فتداخلت وفسد ترتيبها، وانقلب بذلك العلم الذي كان فيها جهلا وتخليطا، يشب الكلام بعد كل صفحة إلى

^{٥٩} أمين حافظ شرف.

صفحة غريبة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها .

وهو طالب أزهرى كان أكبر همه أن يصير حافظا كالحفاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهر كتابا بعد كتاب ومتنا بعد متن ؛ وكانت له أذن واعية ، فكل ما أفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر ، نزل منها كالنقر على آلة كاتبة ، فينطبع في ذهنه انطباع الكتابة : لا تمحى ولا تنسى .

ثم التاث هذه اللوثة وهو يحفظ متنا في فقه الشافعي " رضي الله عنه " ، فغبر سنين يتحفظه ، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما أثبت منه الشيء بعد الشيء ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا يزال هذا دأبه لا يمل ولا يجد لهذا العناء معنى ، ولا يزال مقبلا على الكتاب يجمعه ، ثم لا يزال الكتاب يتبدد في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلّى في داره للحفظ ، وأجمع ألا يدع هذا المتن أو يحفظه ، كأن فيه الموضع الذي فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مساك ؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه في البحر ، لينزح البحر . . .

وجاء " ا. ش " فقلت له ، وأومأت إلى المجنون الأول :
هذا نابغة القرن العشرين .

قال : وهل انتهى القرن العشرون فيعرف من نابغته ؟
فقلت : للمجنون : أجبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرن
الواحد والعشرون ؟ قال : لا .

قال : فإن هذا الذي إلى جانبي نابغة القرن الواحد
والعشرين . . . فكما جاز أن يكون هو نابغة قرن لم يبدأ ، جاز أن
أكون أنا نابغة قرن لم ينته .

قلت : ولكنك زدت المشكلة تعقيدا من حيث توهمت
حلها ؛ فكيف يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟
فنظر نظرة في الفضاء ، وهو كلما أراد شيئا عسيراً نظر إلى
اللاشيء .

ثم قال : هذه الأمور لا تشبه إلا على غير العاقل . . .
وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدمه في النبوغ
بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة ؟
قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسن : أدركنا قوما لو رأيتموهم
لقلتم : مجانين . ولو أدركوكم لقالوا : شياطين .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذي .

قال الثاني : لقد صدق فهو أستاذي ، ولكنه حين ينسى لا يذكره غيري . . .

قلت : لا غرو " فمما حفظناه " عن الزهري : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعاقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويح لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للفضل ، مع جنونه وخبله ، أذكرني وهو منذ كذا وكذا سنة يحفظ متنا واحدا لا يمسه عقله إلا كما يمسه الماء الغرابيل ؟ صدق - والله - من قال : عدو عاقل خير ، خير ، خير ، فقال الثاني : خير من صديق جاهل ، ها أنا ذا قد ذكرت من نسيان ، وها أنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكنني لم أرد أن أقول هذا ، بل أريد أن أولف كلاما آخر . . . عدو عاقل خير ، خير ، خير ، خير من مجنون جاهل . . .

ورأيت أن في التقاء مجنونين شيئا طريفا غير جنونهما ، وصح عندي أن المجنون الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورهما فن ظريف من التمثيل ، إذا وجدا من

يصر فهما في الحديث ، ويستخرج ما عندهما ، ويستكشف منهما قصتهما العقلية . . .

ولم أكن أعرف أن " نابغة القرن العشرين " من المجانين الذين لهم أذن في غير الأذن ، وعين في غير العين ، وأنف بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتا وأشباحا وروائح من ذات نفسها لا من الوجود ، وتدر كها بالتوهم لا بالحاسة ، فتخلق هو اجسهم خلقا بعد خلق ، وتخطر الكلمة من الكلام في ذهن أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم في دماغه أو يمشي أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعل أفعالا أخرى .

وبينا أنا أدير الرأي في إخراج فصل تمثيلي من الحوار بين هذين المجنونين ، إذ قال " نابغة القرن العشرين " : صه ، إن جرس " التلفون " يدق .

قال " ا . ش " : لا أسمع صوتا ، وليس ههنا " تلفون " .
فاغتاز المجنون الآخر وقال : إنك تتقحم على النوابغ ولست من قدرهم ، وما عملك إلا أن تنكر ؛ والإنكار ، ويليك ، أيسر شيء على المجانين وأشباه المجانين ، والعامة وأشباه العامة ؛ وقد أنكرت نبوغه آنفا ، وأراك الآن تنكر " تلفونه " . . .

قال " ا. ش " : وأين " التلفون " وهذه هي الغرفة بأعيننا؟
فضحك " نابغة القرن العشرين " وقال : صه -ويحك- لقد خلطت
علي ؛ إن الجرس يدق مرة أخرى ، وأنا لا أريد أن أكلمها حتى
يطول انتظارها ، وحتى تدق ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد
دقت الثالثة وذهب رنينها في صوتك ولغطك . . .

قال المجنون الآخر : هي صاحبتة التي يهواها وتهواه ؛
وقد استهامها وتيمها وحيرها وخبلها ، حتى لا صبر لها عنه ؛
فوضعت له تلفونا في رأسه . . .

قال " النابغة " : وهذا التلفون لا يسمعي صوتها فقط ،
بل هو ينشقني عطرها أيضاً . وقد تكلمني فيه الملائكة أحياناً ، وأنا
ساخط على هذه الحبيبة فإنها غيور تخشى سطواتها على اللائي
تغار منهن ، ولولا ذلك لكلمتني في هذا التلفون إحدى الحور العين
...

قلنا : أو تغار منها الحور العين؟

قال المجنون الثاني : بل الأمر فوق ذلك ، فإن الحور العين
يشتمنها ويلعنها ؛ " فمما حفظناه " هذا الحديث : " لا تؤذي امرأة
زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذه قاتلك
الله ؛ فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا " .

قال " نابغة القرن العشرين " : ويلي على المجنون إنه يريد أن يخلو له موضعي فهو يتمنى هلاكي وانتقالي وشيكا في هذه الدنيا . وهو يقول بغير علم لأنه أحمق ليس له عقدة من العقل ، فيزعم أنها تؤذيني ، ولو هي آذنتني لغضبت قبل ذلك ، ولو غضبت لرفعت التلفون . صه إن الجرس يدق .

قال ا. ش : إن للنوايع لشأنا عجبا ، ففي مديرية الشرقية رجل نابغة ماتت زوجته وتركت له غلاما ، فتزوج أخرى وهو يعيش في دار أبيه . فلما كان عيد الأضحى سأل أباه مالا يتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ القرآن ، فذكر إبراهيم " عليه السلام " ورؤياه في المنام أنه يذبح ابنه ، فخيّل إليه أن هذا باب إلى النبوة ، وأن الله قد أوحى إليه ، فأخذ الغلام في صبيحة العيد وهم بذبجه ، ولولا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه . . .

قال " نابغة القرن العشرين " : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدته . وقد رأيته في البيمارستان في حين كنت أنا في المستشفى . . . فكان يزعم أنه اتّمر في ذبح غلامه بإرادة الله . ولو كانت إرادة الله لنفذت بالذبح ، ولو كان الأمر وحيا لنزل عليه من السماء كبش يذبجه . . . وهكذا أنا في المنطق " نابغة القرن العشرين " .

ثم إنه أشار إلى المجنون الثاني وقال : وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة كاملة .

قلت : ولكنك ذكرت هذا من قبل فلم عدت فيه الآن؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لي أنه يتمنى هلاكي ليكون هو نابغة القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن ؛ أنه لو عاش خمسا وستين سنة " يحفظ المتن " لما بلغ مبلغني من العلم . هذا رجل نصفه ميت جنونا موتا حقيقيا ، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المعنوي .

قال ا . ش : حسبه أن يقلدك تقليد العامي لإمامه في الصلاة وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك .

قال المجنون الثاني " مما حفظناه " : لو صور العقل لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار . . . ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلي ، فقد وقف منذ أيام يصلي بالشعر . . . ولما رأيته ناسيا فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت إلي وهو راكم فسبني وشتمني وصرخ في وقال : ما شأنك بي ؟ هل أنا أصلي لك أنت؟

فغضب " النابغة " وقال : والله إن تحسبونني إلا مجنونا فتريدون أن يقلدني هذا الأحمق الذي ليس له رأي يمسه . ولولا

ذلك لما اعتقدتم أن تقليدي من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين .

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك؟

فضحك وقال : لا أعدكم من الأذكاء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك؟ قال ا . ش : هذا لم يعرف مثله فكيف نعرفه؟ ولم يتوهمه أحد ، فكيف نتوهمه؟

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتها ؛ وهذا نصف الصواب ؛ وما دمت أستاذي ، فلو أننا اختلفنا في رأي لكان خلافاً لي صواباً لأنه منك ، وكان خلافاً لك صواباً لأنه مني ؛ فأنت " غير مخطئ " وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة " غير " أظل أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر " نابغة القرن العشرين " في الرؤيا ، ولكني رأيته في المرأة عند الحلاق . . . ورأيتَه يقلدني في كل شيء حتى في الإشارة والقومة والقعدة ولكنني صرخت فيه وسببته ففتح فمه ، ثم خافني ولم يتكلم . . .

وأوماً إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة .

قال ا. ش : لقد قلتها مرتين كلتاها بمعنى واحد ، فما

معناك في هذه الثالثة؟

قال : هذا الغريز عم أنني لا أعرف كيف أصلي ، ويستدل
لذلك بأنني صليت بالشعر وأنني شتمته وأنا راعع ؛ ولو كان عاقلًا
لعلم أن شتمي إياه وأنا راعع ثواب له . . . ولو كان نابغة لعلم أن
الشعر كان في مدح دولة النحاس باشا وأولي النهى .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو في
مدح دولة النحاس باشا .

قال : لم أصل به ، ولكن خطر لي وأنا أصلي أنني نسيت
القصيدة فأردت أن أتحقق أنني لم أنسها . . . فإذا أنا نابغة القرن
العشرين في الحفظ ، وهي ستة أبيات . لا كهذا المعتوه الذي صبر
على المتن صبر الغريب على الغربة الطويلة ، ومع ذلك لم يحفظه .

قال ا. ش : فأمل علينا هذا الشعر . فأملى عليه ٦٠ :

يا حليف السهد قل لي . . . أين من في الدهر خال
إن تكن تهوى غزالا . . . أكحل العينين مال
أنا أهواها ولكن . . . لا سبيل إلى الوصال
منذ ولت قلت مهلا . . . منذ غابت في خيال

٦٠ هذا شعره بحروفه كما أملاه.

أنا مجنون بليلي . . . ليل يا ليلي تعال

قلنا : ولكن ليس هذا مدحاً ، فضحك وقال : أردت أن

تعرفوا أنني أقول في الغزل ، أما المديح فهو :

شغف الورى بمناصب وأماني . . . وشغفت يا نحاس بالأوطان

حسبوا الحياة تفاخرا وتنعما . . . وحسبتها لله والأوطان

ثم أرتج عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة

أبيات ، وقد نسيت أربعة ، ولست أريد أن أذكرك .

فقال " النابغة " : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن

أصلي . . . ونظر إلى اللاشيء في الفضاء ، ثم قال . والبيت

الآخر :

أبتغي في المدح غير أولي النهى . . . أو صادق^{٦١} أو شوقي أو

مطران ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ،

انظر إلى فوق . فنظر ، ثم قال : انظر إلى تحت . فنظر ثم سكت .

قال ا . ش : وبعد؟ قال : وبعد فإن الناس ينظرون إما إلى

فوق وإما إلى تحت . . .

وكان الضجر قد نال مني ، فرجوت ا . ش . أن يلبث

معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقاني في الندي وانصرفت

^{٦١} فسر "صادق" بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين.

قال ا. ش وهو ينبئني : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن "الرافعي" رجل عسوف ظالم ، لأنني أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في "الرسالة" . . . وأجمع نفسي لها ، وأجهد في بيانها ، وأذيب عقلي فيها ، وهو مستريح وادع ، وليس إلا أن ينتحلها ويضع توقيعها عليها ، ويبعث بها إلى المجلة ، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ، ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين . . .

قال ا. ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبض فيها الذهب ؟ قال : إن هناك أسراراً أنا محصنها وكاتمها ، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فإنها أسرار . . . قال له : فدع "الرافعي" واكتب لي أنا هذه المقالات ، وأنا أعطيك في كل مقالة ذهبين لا قرشين .

قال : هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي ، لأن "نابغة القرن العشرين" لا يجوز أن يدعي كلامه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا خطأ من قدر نابغة القرن العشرين ، وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار .

قلت : ثم جاء المجنونان في العشية إلى الندي .

وكنّا في الندي ثلاثة: أنا و.ا. ش، وس. ع^{٦٢}؛ وقد
هيأت تدبيرا توافقنا عليه لتحريك هذين المجنونين، وتدوين ما
يجيء منهما. فلما أقبلّا تحفينا بهما وألطفناهما، وقمنا ثلاثتنا
ببسطهما وإكرامهما، حتى حسبا أن في كلمة "مجنون" معنى كلمة
أمير أو أميرة... ورأيت في عيني "نابغة القرن العشرين" -وهو
أعين أنجل^{٦٣}- ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه إلا أنه يعتقد أن له
نفسا أنثى أعشقها أنا... فكان مسددا فكه اللسان، تستملح له
النادرة، وتستظرف منه الحركة.

ولما تمكن منه الغرور، واحتاج الجنون كما يحتاج الجمال
إلى كبريائه إذ حاطته الأعين، أدار بصره في المكان، ثم قال: أف
لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندي في ضوضائه ورعاعه
وغوغائه. إن هؤلاء إلا أخلاط وأوشاب وحثالة. هذا الجالس
هناك. هذا الواقف هنالك. هذا المستوفز. هذان المتقابلان. هؤلاء
المتجمعون. هذا كله خيال حقيقة في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

^{٦٢} س ع هو سعيد العريان.

^{٦٣} أي واسع العين أنجله

هذا التصايح المنكر . هذا الضرب بجسارة النرد . هذه الزحمة التي انغمسنا فيها . هذا المكان الهائج من حولنا ، هذا كله خيال حقيقة في رأسي . هي ، هي ، هي .

فانزعج المجنون الآخر ، ووقع في تهاويل خياله ، ونظر إلينا تدور عيناه ، وتوجس شراً ، ثم زاعغ بصره إلى الباب ، واستوفز وجمع نفسه للقيام ؛ فلما رأى صاحبه ما نزل به ، قهقهه وأمعن في الضحك وقال : إنما خوفته الصبيان والضرب ليثبت لكم أنه مجنون فحرد الآخر واغتاظ وجعل يتمتم بينه وبين نفسه .

قال " النابغة " : ما كلام تظن به طنين الذبابة أيها الخبيث ؟ قال : " مما حفظناه " : أن من علامات الأحمق أنه إذا استنطق تجلف ، وإذا بكى خار ، وإذا ضحك نهق . كما فعلت أنت الساعة ، تقول : هاء ، هوء ، هيء . . .

فتغير وجه " النابغة " ، ونظر إليه نظرة منكرة ، وهم أن يقتحم عليه ، وقال : أيها المجنون ، لماذا تضطرنني إلى أن أجيبك جواب مجنون . . . لا نجوت إن نجوت مني !

فأسرع ا . ش ، وأمسك به ؛ واعترض من دونه س . ع ، وقال له : أنت بدأته والبادئ أظلم .

قال : ولكن ويجهـ كيف قال هذا؟ كيف لم يقل إلا هذا؟
كيف لم يجد إلا هذا يقوله؟ أنا بعة القرن العشرين أحمق ، وقد
أوحده الله في القرن العشرين؟ لهممت واللهـ أن أكسر الذي فيه
عيناه ؛ فما يقول إلا أنني أحمق القرن العشرين . . .

قلت : إن كان هذا هو الذي أغضبك منه ؛ ففي الحديث
الشريف : " ليس من أحد إلا وفيه حمقة ، فبها يعيش " . والحياة
نفسها حماقة منظمة تنظيما عاقلا ؛ وما يقبل الإنسان على شيء من
لذاتها إلا هو مقبل على شيء من حماقاته ، وأمتع اللذة ما طاش فيه
العقل وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحمق في طبيعة الإنسان لما
احتمل طبيعة الحياة ، أليس يخيل إليك أن أكثرك غائب عن الدنيا
وأقلك حاضر فيها ، وأن يقظتك الحقيقية إنما هي في الحلم وما يشبه
الحلم ، كأنك خلقت في كوكب وهبطت منه إلى كوكبنا هذا ، فما
فيك للأرض ولا فيها لك إلا القليل يلتئم بعضه ببعضه ، وأكثر كما
متنافر أو متناقض أو متراجع ؟

قال : بلى .

قلت : فهذا القليل هو الحمقة التي بها تعيش ، وهو
أرضية الأرض فيك ؛ أما سماوية السماء فبعيدة لا تحملها طبيعة
الأرض ؛ ولهذا يعيش أهل الحقيقة عيش المجانين في رأي المغرورين

الذي غرتهم الحياة الفانية ، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوا عملا من الأعمال السامية انتهى إلى الحمقى معكوسا أو محولا أو معدولا به ؛ ولعل هذا أصبح تفسير للحديث الشريف : " أكثر أهل الجنة البله " .

قال المجنون الآخر : " مما حفظناه " : أكثر أهل الجنة البله .
فقال " النابغة " : المصيبة فيك أنك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلم أنك من بلهاء البيمارستان لا من بله الجنة . . .

قلت : ثم إن الموت لا بد آت على الناس جميعا ، فيسلبهم كل ما نالوه من الدنيا ، ويلحق من نال بمن لم ينل ؛ فمن ذا الذي يسر بأن ينال ما لا يبقى له ، إلا أن يكون سروره من حماقته ؟ ومن ذا الذي يحزن على أن يفوته ما لا يبقى له ، إلا أن يكون حزنه حماقة أخرى ؟ وأي شيء في الحب بعد أن ينقضي الحب إلا أنه كان حماقة ضربت في الحواس كلها ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن ؛ ثم فاضت على الزمن حتى خبلت العاشق تخبيلا لذيذا تصغر فيه الأشياء وتكبر ، ويجعل الواقع في النفس غير الواقع في دنياها ؟ يشبه كل عاشق حبيبته بالقمر ، فهب القمر سمع هذا وفهمه وعناه أن يحيب عنه ، فماذا عساه يقول إلا أن يعجب من هذا الحمق في هذا التشبيه ؟

فهذا " النابغة " وسكن غضبه وقال : صدقت ، ولهذا أنا
لا أشبه حبيتي بالقمر .

قلت : فماذا تشبهها؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبه أنت حبيبتك .
قلت : وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر .

قال : فماذا تشبهها؟ قلت : حتى أعلم بماذا تشبه أنت

قال : هذا لا يرضى منك وأنت أستاذ " نابغة القرن
العشرين " ، ولك حبايب كثيرات عدد كتبك ، وقد أعجبتني منهن
تلك التي في " أوراق الورد " ، وأظنك أحببتها في شهر مايو من سنة
... من سنة ...

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ ها أنا ذا قد نبهتك .

قال : يا ويلك ! إن " أوراق الورد " ظهرت من بضع
سنين ، إنما أنت من بلهاء البيمارستان لا من بله أوراق الورد ...
ماذا كنت أقول؟

قال ا. ش : كنت تقول : هذا لا يرضى منك ولك حبايب
كثيرات .

قال : نعم ، لأنك إذا شبهت واحدة منهن بالقمر ، انتهى
القمر وفرغ التشبه فيظل الأخريات بلا قمر ... ثم إن كلمة القمر

لا تعجبني ، فلونها أدكن مغبر^{٦٤} يضرب أحيانا إلى السواد . . .
فإذا عشقت زنجية فهنا محل التشبيه بالقمر . . . أما البيض
الرعايب فتشبيههن بالقمر من فساد الذوق .

قال س . ع : ولالألفاظ ألوان عندك؟

قال : لو كنت نابغة لأبصرت في داخلك أخيلة من الجنة ؛
ألم يقل أستاذنا أنفا عن " نابغة القرن العشرين " : إنه هبط من
كوكب إلى كوكب؟ ففي كوكبنا الأول يكون لنا سمع ملون ؛
وحس ملون نسمع قرع الطبل أزرق ، ونفخ البوق أحمر ، ورنين
النغم الحلو أخضر^{٦٥} ، والوجود كله صور ملونة ، سواء منه ما
يرى وما يحس ، وما هو مستخف وما هو ظاهر .

ثم أوماً إلى المجنون الآخر وقال : واسم هذا الأبله كلفظ
الحبر ، لا أسمعه إلا أسود .

وسكت " النابغة " وسكتنا ؛ فقال له س . ع : مال لك لا
تتكلم؟ قال : لأنني أريد السكوت . قال : فلماذا تريد السكوت؟
قال : لأنني لا أريد أن أتكلم .

^{٦٤} الدكنة: لون بين الحمرة والسواد.

^{٦٥} هذا واقع وليس من الخيال؛ فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة؛
وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من
المؤثرات فهو يصبغها.

وتحرك في نفسه الغيظ من المجنون الآخر، فرمى بعينه
الفضاء ينظر اللاشيء وقال: إذا أصبح كل النساء ذوات لحى
أصبح هذا عاقلا . . . فدق الآخر برجله دقات معدودة؛ فثار
"النابعة" وقال: من هذا يشتمني؟

قال: س. ع: لم يشتمك أحد، هذا خفق رجل على
الأرض.

قال: بل شتمني هذا الخبيث، وسمعي لا يكذبني أبداً،
وأنا رجل ظنون، أسوء الظن بكل أحد، وعلامة الحازم "العاقل"
سوء ظنه بالناس. فهبه كما قلت قد خفق بنعله، أو خبط برجله؛
فهو ما يعني من ذلك، وأنا أسمع ما يعنيه، لقد طفح الشعر على
قلبي فلا بد لي من هجائه، ولا بد لي أن أذبحه ولو بالكلام، فإني
إذا هجوته رأيت دمه في كلماتي، وأريد أن أجعله كالعنز التي
كانت عندنا وذبحناها.

ثم انتزع قلم س. ع، وقال: هذه هي السكين. ولكن
أسألك يا أستاذي أن تذبحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه، فقد
عزب عني الشعر . . . إن خفقة رجل على الأرض تستطير
الأرانب فرعاً؛ فينفرن إلى أجحارهن ويتهاربن، وما كانت أبيات
الشعر في ذهني إلا أرانب.

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفا ثيبا مثلي ، كان دقيق
الحس ؛ ومن كان فدما غبيا مثل هذا ، كان بليد الحس غليظا
كثيفاً ؛ فإذا أنا استشعرت البرد رأيتني قد سافرت إلى القطب
الشمالي ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر بردا سافر إلى عباءته أو
لحافه . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا ، ولا يدري ما طحهاها .

قلت : هذا منك أظرف من نادرة أبي الحارث . قال : وما
نادرة أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتي
بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفه قبلهما ، والرشيد
ملك عظيم ، لا يأكل أكل الجائع ، وإنما هو التشعيث من هنا
وهناك ؛ فكان رغيفه لا يزال باقيا ؛ فصاح أبو الحارث فجأة : يا
غلام ، فرسي . ففزع الرشيد وقال : ويلك ما لك ؟ قال : أريد أن
أركب إلى هذا الرغيف الذي بين يديك . . .

قال " النابغة " : ولكن فرقا بين أبي الحارث وبين " نابغة
القرن العشرين " ، فإن من العجائب أنني ربما نظرت إلى الرجل وهو
يأكل فأجد الشبع ، حتى كأنه يأكل ببطني لا ببطنه ، ولكن من
العجائب أن هذا لا يتفق لي أبدا حين أكون جائعا . . .

أما هذا المجنون الذي أماننا ، فربما أبصر الحمار على ظهره الحمل ، فيشعر كأن الحمل على ظهره هو لا على ظهر الحمار .

قال الآخر : " مما حفظناه " أنه سرق لأعرابي حمار ، فقيل له أسرق حمارك؟ قال : نعم ، وأحمد الله . فقيل له : على ماذا تحمده؟ قال : على أنني لم أكن عليه حين سرق . . . فأنا إذا رأيت حماراً مثقل الظهر ، حمدت الله على أن الحمل لم يكن علي ، لا كما يقول هذا . ثم دق برجله دقات . . .

فاستشاط " النابغة " وقال : أسمعتم كيف يقول إني مجنون ، ثم لا يكتفي بهذا بل يقول إني حمار على ظهره الحمل؟ قلت : ينبغي أن تتكافأ ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فإن من تواضع " النوابغ " أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فإذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له ، فإذا دخلتهم الرقة صار خيال الحمل حملاً على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك : حكى الجاحظ عن ثمامة قال : كان " نابغة " يأتي ساقية لنا سحراً ؛ فلا يزال يمشي مع دابته ذاهباً وراجعاً في شدة الحر أيام الحر ، وفي

البرد أيام البرد، فإذا أمسى توضأ وقال : اللهم اجعل لنا من هذا
الهم فرجا ومخرجا، فكان كذلك إلى أن مات !

قال المجنون الآخر : " مما حفظناه " : ثمرة الدنيا السرور،
ولا سرور للعقلاء، فلو لم يكن هذا أعقل العقلاء لما محق سروره
في الدنيا هذا المحق إلى أن مات غما، رحمه الله !
قال : س . ع : فاعف الآن عن صاحبك ولا تذبحه
بالهجاء .

قال : لقد ذكرتني من نسيان، وهذا المجنون يرى نسياني
من مرض عقلي، وكان الوجه - لو تهدي إلى الحقيقة - أن يراه
شدوذا في العقل، أي نبوغا عظيما كنبوغ ذلك الفيلسوف الذي
أراد أن يتثبت في كم من الزمن تسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعة
وبيده الأخرى بيضة، ثم نسي نسيان النبوغ، فألقى الساعة في الماء
على النار، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هي
الساعة. ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونا كما يزعمني، فإن
المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها .

وأنا فليس تهيجني شيء ما تهيجني كلمات ثلاث : أن
يقال لي : مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغب في صحبتي
فليتجنب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر . . .

قال ا. ش : فإذا قيل لك مثلاً . مثلاً . أي على التمثيل :
مغفل .

فحك رأسه قليلاً وقال : لا ، هذه ليست من قدري .
قلت : فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق ،
كذلك القرن الذي قطع فرد البقرة فرسا؟
قال : وكيف كان ذلك؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشتررون خيلاً ،
فخرج معهم فجاء بعجل يقوده ؛ ف قيل له : ما هذا؟ قال : فرس
اشتريته . قالوا : يا مائق هذه بقرة ، أما ترى قرنيها؟
فرجع إلى منزله ففقطع قرنيها ، ثم قادها إليهم وقال لهم :
قد أعدتها فرسا كما تريدون .

قال " النابغة " : هذا غير بعيد ، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز
وكسرنا قرنيها أعدناها كلبة سوداء ، فتقذرتها وعفت لحمها ولم
أطعم منها .

ثم أوماً إلى الآخر وقال : هذا لا يدري ما طحاها ، وهو
مثل العنز : تحسب قرنيها للقتال والنطاح ومنهما تمسك للذبح ؛
فقل في هذا يا أستاذ " نابغة القرن العشرين " .

قلت للآخر : أيرضيك أن أقول في المعنى لا فيك أنت؟
قال : نعم . فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة :
قل لعنز ناطحها . . . لقتال سلحها
ما لها قد طرحاها . . . في يدين ذبحاها؟
شيمة مني نحها . . . عقل غر فلحها
ليس يدري ما طحها . . . بل يرى شمس ضحها
حجرا مثل رحاها . . . ويرى الليل محها
ظلما طالت لحها

وسر " النابغة " وازدهى ، وجعل يقول : طالت لحها ،
طالت لحها ، وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر
فمجيء ساعي " البريد المستعجل " إلى الندي ، وفي يده رسالة
عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان ، بندي كذا .
وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛
فتناولت أعناق الناس ، ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى " نابغة القرن
العشرين " وقد مد يده يتناول الرسالة وكأنه ملك من القدماء
أسقط له كتاب بالفتح العظيم ويضم دولة إلى دولته .

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضها ونحن في
دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون وقال له : هذا عجيب يا أخي ،

كيف هذا؟ إن هذا لا يصدق؛ إنك لم تلقها في صندوق البريد إلا منذ ساعة . . .

ضاق "نابغة القرن العشرين" بحرق المجنون الآخر؛ ورآه داهية دواه، كلما تعاقل أو تحاذق لم يأت له ذلك إلا بأن يكشف عن جنونه هو؛ فلا يبرح يجرعه الغيظ مرة بعد مرة، ولا يزال كأنه يسبه في عقله، فأراد أن يحتال لصرفه عن المجلس، فدفع إليه الرسالة التي جاء بها "البريد المستعجل" وقال له: خذ هذه فاذهب فألقها في دار البريد، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى، ثم تذهب الثانية فتلقها، ويعود فيجيء بها، وتكون أنت تذهب ويكون هو يجيء، فنضحك منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجيء ذاك؟ فغمزه "النابغة" بعينه أن اسكت؛ فتغافل س. ع، وقال: كم تريد أن يجيء الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين؟ قال المجنون الآخر: هذا هو الرأي، فلست قائما حتى أعرف كم مرة أذهب؛ فإن الساعي لا يجيء إلا راكبا، وأنا لا أذهب إلا راجلا، وإن لي رجلي إنسان لا رجلي دابة . . .

قال " النابغة " : سبحان الله؟ بقليل من الجنون يخرج من الإنسان مجنون كامل مستلب العقل . بيد أنه لا يأتي النابغة إلا من كثير وكثير ، ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تعددها وتفرقها وصعوبة اجتماعها لإنسان واحد " ك نابغة القرن العشرين " ، فهو الذي توافت إليه كل هذه الأسباب ، وتوازنت فيه كل تلك الخلال . إنه ليس الشأن في العلم ولا في التعليم ؛ ولكنما الشأن في الموهبة التي تبدع الابتكار ، كموهبة " نابغة القرن العشرين " ، فيها تجيء أعماله منسجمة دالة بنفسها على نفسها ؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها ، متلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها . . .

هذا س . ع ، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم ، مدرسة الأدب والعربية ، والمنطق والتحدلق ، وبلاغة اللسان وصحة النظر ؛ وهو يعرف أن الكتاب يلقي في البريد وعليه طابع واحد ، فيصل إلى غايته بهذا الطابع ، ثم يرى بعيني رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المعنونة باسم " نابغة القرن العشرين " ، فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إلي أنا أربع مرات .

فطرب المجنون الآخر ، واهتز في مجلسه ، وصفق بيديه ،
وقال : " مما حفظناه " هذا الحديث : " يحاسب الله الناس على قدر
عقولهم " . فلا تؤاخذ س . ع ، فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم :
" فيها قولان " ، وفيها ثلاثة أقوال ، وفيها أربعة أوجه ، ولكنها لا
تعلمهم فيها أربعة طوابع . . .

ثم التفت إلى س . ع ، وقال له : لا عليك ، فأنا صاحبه
وخليطه ، وحامل علمه وراوية أدبه ، وأكبر دعائه وثقاته ، وما
علمت هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة .

قال ا . ش : فإذا كان هذا ، فإن لقائل أن يقول : لماذا لم
يضع على كتابه عشرة من الطوابع ، فيجيء به الساعي عشر
مرات .

قال " النابغة " : وهذا أيضا؟

" وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصحبن " ؛
إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط ، ولكنها في يد المجنون
للضوء ولإحراق أصابعه ، كم الساعة الآن؟
قلنا : هي التاسعة .

قال : ومتى ينصرف أهل هذا الندي؟

قلنا : لتمام الثانية عشرة .

قال : فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة ، فهي أربع مرات إلى أن ينفض المجتمعون هنا ، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قوم عرفوا " نابغة القرن العشرين " ، وجاء قوم غيرهم فيعرفونه ، وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحدا ؛ فلا تكون فائدة من مجيئه .

فصفق المجنون الآخر وقال : هذا وأبيك هو التهدي إلى وجه الرأي وسداده ، وهذا هو الكلام الرصين الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا . . . " ومما حفظناه " هذا الحديث : " لا مال أعود من العقل " . فأربعة طوابع ، لأربع مرات ، في أربع ساعات ؛ وما عدا هذا فإسراف وتبذير ؛ ولا مال أعود من العقل . ورضي " النابغة " عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضعفة إن فيك لبقية تعقل بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسها في ثوبه . قلنا : ولكن ألا تفضها لنعرف ما فيها ؟

فضحك وقال : أئن جاريتكم في باب المطاوعة والنادرة ، وجاريت هذا الأبله في باب جنونه وحمقه تحسبون أن الأمر على ذلك ، وأن الرسالة فارغة إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين ، كما قال سعد باشا : " جورج الخامس يفاوض جورج الخامس " ؟ لحق - والله - أن العقل

الكبير الذي يأبى الصغائر، هو الذي تأتي منه الصغائر أحيانا
لتثبت أنه عقل كبير، وهكذا تسخر الحقيقة من كبار العقول
" كناعغة القرن العشرين " . . .

فغضب المجنون الآخر وهم أن يتكلم، فقال له
" الناعغة " : أنت كاذب فيما ستقوله .

قلنا : ولكنه لم يقل شيئا بعد، فكما يجوز أن يكون كاذبا
يجوز أن يكون صادقا .

قال : وسيخطئ في رأيه الذي يبديه .

قلنا : ولم يد شيئا من رأيه .

قال : ولا يعرف الحقيقة التي سيتكلم عنها .

قلنا : ويحك، أدخلت في عقل الرجل أم تعلم الغيب؟

قال : لا هذا ولا ذاك، ولكنه قياس منطقي يتوهم

اطراده . إنه سيقول : إني مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه . . . قال " الناعغة " : تبالك، لقد

رأيت الكلمة في لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة . ويحك يا

مرقعان^{٦٦}، ألا تعرف أن لك دماغا مخروقا تسقط منه أفكارك قبل

^{٦٦} المرقعان والمرقع: الأحمق الذي يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له.

أن تتكلم بها ، ولولا أنه مخروق لحفظت المتن ! إن كل تخطئة لي منك هي اعتراف لي منك بصواب .

فنظر الآخر إليه نظرة كان تفسيرها في حواجبه ، إذ مط حواجبه ^{٦٧} ورقصها . فقال " النابغة " : ونظراته خبيثة ملححة الطعم ، مزعوقة كماء البحر المر أخذ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعي ملح ، أكاد أتهوع من هذه النظرة فأقيء .

الآن فهمت معنى قولهم : " ملححة في عين الحسود " . فإن الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يفلح ، هاتوا كأسا من معتقة الخمر ، ثم لينظر فيها الخبيث هذه النظرة ، فإن الخمر لا بد مستحيلة " شربة ملح إنجليزي " . . . هذا الأبله ثقيل الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع . . . أهذا الذي لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا : هو لي ، إلا الفقر والجنون والخرافة ، يكذب ما في الرسالة التي جاء بها البريد المستعجل ، ولا يصدق أنها رسالة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذهاب العقل هو كالجبان المنقطع في وحشة القفر ، في ظلام الليل : إذا توجس حركة ضعيفة انقلبت في وهمه قصة جريمة

^{٦٧} هما حاجبان. ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا، وهو كثير في العربية.

ماؤها الرعب وفيها القتل والذبح ؛ ولهذا يخشى ما في الرسالة التي جاءت من صديقي صاحب السمو . هاؤم اقرءوا الرسالة .

وفضضنا الغلاف ، فإذا ورقتان مهمورتان بتوقيع أمير معروف ، إحداهما صك بألف جنيه تدفع "لنابغة القرن العشرين" ، والثانية أمر بالقبض على المجنون الآخر . . . وإرساله إلى المارستان . . .

وذهبت أصلح بينهما صلحا فقلت : إن في الحديث الشريف : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ مر به رجل ، فقال بعض القوم : هذا مجنون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا مصاب ؛ إنما المجنون المقيم على معصية الله " . فقال صاحب المتن : " مما حفظناه " إنما المجنون المقيم على معصية الله .

قلت : وليس فيكما مقيم على معصية الله . قال المجنون : " مما حفظناه " : وليس فيكما مقيم على معصية الله .

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي . . . قال "النابغة" : أنبأتكم أن هذا الأبله يضل في داره كما يضل الأعرابي في الصحراء ؛ وإن الأسطول الإنجليزي لو استقر في

ساقية يدور فيها ثور ، لكان ذلك أقرب إلى التصديق من استقرار العقل في رأس هذا الأبله؟

فاحتدم الآخر وهم أن يقول : " مما حفظناه " ، ولكنني أسكته وقلت " للنابعة " : إنك دائما في ذروة العالم ، فلا غرو أن ترى المحيط الأعظم ساقية . " والنوابغ " هم في أنفسهم نوابغ ، ولكنهم في رأي الناس مرضى بمرض الصعود الخيالي إلى ذروة العالم . ومن هذا يكون المجانين هم المرضى بمرض النزول الحقيقي إلى حضيض الآدمية ؛ فهناك يعملون فتكون أفكارهم من أعمالهم ، ثم تكون عقولهم من أفكارهم ، فيكون هذا هو الجنون في عقولهم ، وذلك معنى الحديث : " إنما المجنون المقيم على معصية الله " .

قال " النابعة " : لعمرى إن هذا هو الحق ؛ فنبوغ العقل مرض من أمراض السمو فيه ؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذي يتخيله في فكره ، والعاشق مجنون بكون آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوف مجنون بالكون الذي يدأب في معرفته ؛ ونابعة القرن العشرين مجنون . . . لا . لا . قد نسينا . ش ، فهو مجنون ، وس . ع فهو مجنون .

وكل الناس مجنون بليلى . . . وليلى لا تقر لهم بذاك

ومن حق ليلي ألا تقر لهم، إذ هي لا تقر إلا لنا بغي القرن العشرين وحده؛ وما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال! أما في الكون الحقيقي فهي أنثى كإناث البهائم ليس غير. وأعقل الرجال من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم. فالحمار لا يعرف الحمارة إلا أنها حمارة، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون "أوراق الورد" . . . وإناث البهائم أمات^{٦٨} لا غير، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباء؛ فهذه الذكورة طفيلية في الدنيا، والطفيلي لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها، فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب. ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضرباً من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة، وهو قول الطفيلي: قد شبت وقد رويت . . . ويحكم، أين أول الكلام؟ قلنا: أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال!

قال: نعم هذا هو. إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفساني إلا سحر الذهب؛ فلو مسخت المرأة الجميلة شيئاً من

^{٦٨} يقال في غير العاقل: أمات، وفي العاقل: أمهات.

الأشياء لكنت سبيكة ذهبية تلمع ؛ ولهذا يوجد الذهب للصوص
في الدنيا ، وتوجد المرأة الجميلة لصوصا آخرين ، فيجب أن يصاب
الذهب وأن تصاب المرأة .

قلت : ولكن أليس من المال فضة ، وهي توجد للصوص
كالذهب ؟

قال : نعم ، وفي النساء كذلك فضة ، وفيهن النحاس ؛
ولو أنت ألقيت ريالاً في الطريق لأحدثت معركة يختصم فيها
رجلان ، ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى ، ولو كنت قرشا
لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر . . .
ولكن "فورد" الغني الأمريكي العظيم الذي يجمع يده
على أربعمئة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ و "نابغة القرن
العشرين" الذي يملك "ليلي" ، لا يتكلم عن غيرها من قروش
النساء . . .

قلت : فإني أحسبك أعلمتني أن اسمها فاطمة لا ليلي .
قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكل الناس مجنون
بفاطمة ، وفاطم لا تقرر لهم ؟ قلت : لا .

قال : إذن فهي "ليلي" ليستقيم الشعر . . . أما حين
أقول : أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ، فهي فاطمة ليصح الوزن .

قلت : يشبهه -والله- ألا يكون اسمها ليلي ولا فاطمة ؛ وإنما هي تسمى حسب الوزن والبحر ، فاسمها فعولن أو مفاعلتن .
ثم قلنا له : فما رأيك في الحب ، فإنه ليقال : إنك أعشق الناس وأغزل الناس ؟

قال : إن ذلك ليقال " وهو الأصح " ، ثم أطرق يفكر .
وبدا عليه أنه مدهوش ذاهب العقل ، كأنه من قلبه على مسافة أبعد من المسافة التي بينه وبين عقله . وخيل إلي أن النساء قد حشرن جميعا في رأسه ، ومرت كل واحدة تعرض مفاتها وغزلها ، وتلائم هذيانه بهذيان من جمالها ، فهو يرى ويسمع ويعرض ويتخير . ثم اضطرب كالذي يحاول أن يمسك بشيء أفلت منه ؛ فلم ينبهه إلا قول المجنون الآخر : " مما حفظناه " أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت : إنه داء وجنون .

قال : اسكت يا ويلك لقد أطفأت الأنوار بكلمتك المجنونة . كان في رأسي مرقص عظيم تسطع الأنوار فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادنة ، فجئت بالداء والجنون -قبحك الله- فأخرجتني عنهن إليك . أحسب أنك لو انتحرت لصلح العالم أو صلحت أنا على الأقل . . . فإذا أردت أن تشنق نفسك فأنا آتيك بالحبل الذي

كنت مقيدا فيه أي الحبلى الذي عندي فى الدار . . . على أن رأسك
الفارغ مشنوق فىك وأنت لا تدري .

قال الآخر : ما أنت منذ اليوم إلا فى شنقي وتعذيبى أو فى
شنق عقلى " على الأصح " . " ومما حفظناه " قول الأحنف بن
قيس : إني لأجالس الأحمق ساعة فأبتين ذلك فى " عقلى " .

فلم يرعنا إلا قيام المجنون مسلحا بجذائه فى يده . . . وهو
حذاء عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة ؛ فحلنا بينهما وأثبتناه فى
مكانه . وقلنا : هذا رجل قد غلب على عقله فلا يدري ما يقول ؛
فإذا هو دل على أنه مجنون ، أفلا تدل أنت على أنك عاقل ؟ ما
سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك فى الحب ؛ وما نشك
أنك قد أطلت التفكير ليكون الجواب دقيقا ، فإنك " نابغة القرن
العشرين " ، فانظر أن يكون الجواب كذلك .

قال : نعم إن العاقل إذا ورد عليه السؤال أطال الفكر فى
الجواب ، فاكتب يا فلان " س . ع " :

" جلس نابغة القرن العشرين مجلس الإملاء مرتجلا فقال :
قصة الحب هى قصة آدم ، خلق الله المرأة من ضلعه . فأول علامات
الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التى أحبها كسرت له ضلعا
. . . وكل قديم فى الحب هو قديم بمعنى غير معقول ، وكل جديد

فيه هو جديد بمعنى غير مفهوم ؛ فغير المعقول وغير المفهوم هو الحب .

والجمرة الحمراء إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصدق من بقاء الحب حيا بمعناه الأول إذا انطفأ أو برد .
والعاشق مجنون . وجنونه مجنون أيضاً ، فهو كالذي يرى الجمرة منطفئة ، ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء ، ثم يعن في خياله فيراها وردة من الورد . . . وإذا سأله أن يصف الجمال الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنون الجنون ، كالذي يرى قمر السماء أنه قد تفتت وتناثر ووقع في الروضة ، فكان نثاره هو الياسمين الأبيض الجميل الذكي . . .

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله ؛ ولكن العاشق المخبول لا ينظر من يهواه إلا بقية من هذا وبقية من ذلك ، فلا يخلص مع حبيبه إلى جنون ولا عقل .

" والمجهول " إذا أراد أن يظهر في دماغ بشري لم يسعه إلا أحد رأسين : رأس المجنون ورأس العاشق . . .

ولا صعوبة في الحكم على شيء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة . أما أوصاف الشعراء والكتاب للجمال والحب فهي كلها تقليد قد توسعوا فيه ؛ والأصل أن ثوراً أحب

بقرة فكان يقول لها : يا نجمة القطب التي نزلت من السماء لتدور في الساقية كما درات في الفلك .

قال " النابغة " : هذا رأيي في حب العاشقين ؛ أما حبي أنا " نابغة القرن العشرين " فيجمعه قولك : فل ، ورد ، زهر . . .
قلنا ما هذه الألغاز؟ وهل للحب متن كقولهم : حروف القلقلة يجمعها قولك " قطب جد " ، وحروف الزيادة يجمعها قولك " سألتومنيها " ؟

فتضحك " النابغة " ، وقال : تكاثرت الظباء على خراش ، فلكيلا ننسى . . . إن كل حرف هو بدء اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلي ، والواو ورودة ، والراء رباب ، والبدال دلال ، والزاي زكية ، والهاء هند ، والراء رباب . . .
قلنا : رباب قد مضت في " ورد " .

قال : كنا تهاجرنا مدة ثم اصطلحنا بعد هند . . .
قلت : هكذا " النوابع " فإن رجلا أديبا كانت كنيته " أبا العباس " فلما " نبغ " صيرها " أبا العير " ^{٦٩} وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخا يعرف منها عمره . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفا حتى مات وهي هكذا :

^{٦٩} العير : الحمار وتكنى بعض الحمقى "أبو البقر" قياسًا على "أبو العير".

أبو العير طرد طيل طليري بك بك بك . . .

إن " نابغة القرن العشرين " استخفه الطرب لذكر صواحبه
وجميلاته من فاطمة إلى رباب ؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذب
صدق نفسه ، فإن قوة الضبط في عقله إما معدومة وإما مختلة ؛ وكل
وجه تخيل منه خيالا فهو وجه من وجوه العلم عنده ، إذ كان عالمه
أكثره في داخله لا في العالم ، فإذا توهم أو أحس أو شعر ، فإنما
يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ؛ فليس يحتمل
عقله إلا فكرة واحدة تمضي

منفردة بنفسها مستقلة بمعناها كأنها قدر غالب على جميع
أفكاره الأخرى ، فلا شأن لها بالواقع ، ولا شأن للواقع بها ، وإنما
هي تحقق معناها كما تخطر له ، لا كما تتمثل فيما حوله .

فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغه المتدجي بالغيوم
العقلية ، لا تزال تعرض له الغيمة بعد الغيمة من اختلال بعض
المراكز العصبية فيه ، وفساد أعمالها بهذا الاختلال ، وقيام الطبيعة
فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلب الكلمة من الكلام ، وإنها لحادثة تامة في
عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمان ومكان وبدء ونهاية ، لا

يخامره فيها الشك، ولا يعترىها التكذيب؛ وكيف وهي قائمة في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيام الحقيقة في الأبصار والأسماع؟
ولخواس المجنون جهتان في العمل، لأنها بين كونين؛ أحدهما الكون الخرب الذي في دماغه؛ وفي هذا يقول " نابغة القرن العشرين " : إن في داخل عينيه منظاراً يرى به الأشياء في غير حقائقها، أي في حقائقها . . .

وحدثنا الدكتور محمد الرافي قال : إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة ك نابغة القرن العشرين، ذكرت أمامه قيصرية روسيا وخبر مقتلها، فأحفظه هذا وأرмضه وقال يا ويحهم! كذبوا عليها وعلي، فسأله الدكتور : وكيف ذلك؟

قال : كان من خبر القيصرية أنها رأنتني فأحبنتني، وعلمت من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبها أنني أنا رجلها لا القيصر؛ فما زالت بعدها تناكد القيصر وتلتوي عليه ولا تصلح له في شيء حتى يئس منها فطلقها، فحملت كنوزها وجلاها ولجأت إلى حبيبها، ثم تبعتها نفس القيصر ولم يطق العيش بعدها فانتحر . . . ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز، فأخفاها هو في مكان حريز لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنه هو لا يصل إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام . . . كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرها؛

ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ . . . فقد يزل مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على " عقله " . . . فيذهب إليه ؛ فعسى أن يراه من ينم بذلك ، فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه .

قال : وإن القيصرة هي تحتاط أيضا مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقروها وحده ، وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوما فتطيش طيش المرأة ، فتزوره في هذا المارستان . . . فقد تقتل إذا رآها الشيوعيون .

قال الدكتور : وهاك " نابغة " آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامت به وأنها مبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة ، وقد تناهت فيه حتى أنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هوى في امرأة أخرى . وخبلته هذه الفكرة ، فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف ؛ ثم توهم ذات يوم أن واشيا قد أعلمها أن النساء افتنن به ؛ فطار صوابها ، فهي آتية إليه في المارستان لتوبخه وتشفي غيظها منه ، ثم تنتحر أمام عينيه . . . وأدار " النابغة " الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخنها بالغيب . . . فلم يهتد إلى مقنع تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن . . . ففعل وجب خصيته بيده ليقدمهما برهانا أنه لها وحدها . . .

قلنا : وطرب " نابغة القرن العشرين " لذكر صواحيبه
وجميلاته ، فجعل يترنم بهذا الشعر :
قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم . . . ما لذة العيش إلا للمجانين
فقال المجنون الآخر : " مما حفظناه " : ما لذة " الخبز " إلا
للمجانين . . .

فضحك " النابغة " وقال : ما أسخفك من أحق . إذا كان
هذا هو المعنى فقل : ما لذة " الكعك " . ألم أقل لكم إن هذا الأبله
لو تهجأ كلمة خبز قال : إنها ل . ح . م . ولو تهجأ كلمة لحم
لقال : ف . و . ل .

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضب الطفل ونزقه
وحماقته ، وفيه كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه ؛ غير أنه ليس
فيه عقل الطفل . . . وهو من الضعف ، وشدة الحاجة إلى العناية في
حياطته وسياسته والبر به كطفل صغير بحيث يحيل إلي أحيانا أنني
أمه .

قلنا : وتنسى في هذه الحالة أنك رجل ؟
قال : وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان ، وهو شرعا جهة
ملزمة للحكم بالجنون فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف

العقل ؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني ؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام .

قلت : لا ، النسيان لا يكون منك نسيانا بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من توابث الأفكار النابغة وتزاحمها في تواردها على العقل ، فإذا توابثت وتزاحمت كان أمرها إلى أن ينسى بعضها بعضا ، فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ حق نبوغه ، فيجيء كالمنقطع مما قبله ؛ فيحسب ذلك نسيانا وما هو به . وقد تصطلح الأفكار في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسرورا محبورا يرقص طربا . . . فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معا على اختلاف معانيها وتناقضها ؛ فيحسب ذلك ضربا من الزهول عند من يجهل العلة " النبوغية " ؛ وعذره جهل هذه العلة ، وهي في دلالة العقل ليست نسيانا ولا ذهولا .

قال : فأعلمني كيف نسيان المجانين ، فقد خفي على أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم ، ولست أدري كيف يفوتهم ما استندني لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم ؟ قلت : لا يكون النسيان تهمة بالجنون إلا في أحوال ثلاث ، جاءت بكلها الرواية الصحيحة المحفوظة :

فأما الأولى : فما يروى عن رجل كان سريرا غنيا وعمر حتى أدركه الخرف ؛ فجاءه كاتبه يوما يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت ، فدفع إلى غلام له دنانير يشتري بها كفنا ، ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر ، ثم قال للغلام آخر ؛ امض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادعه يغسلها . قال الكاتب : فاستحييت منه وقلت : يا سيدي ابعث خلف فلانة وهي جارة لنا تغسلها . قال : يا فلان : ما تدع عقلك في حزن ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذن بذلك . قال : لا والله- ما يغسلها إلا فلان .

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال : يا سيدي كيف يغسل رجل امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة ؟ والله لقد أنسيت . . .

وأما الحالة الثانية : فما يروى عن رجل كان نائما في ليلة باردة فخرجت يده من الفراش فبردت ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحس بردها فأيقظته ، فانتبه فزعا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضت عليه ،

أدركوني لثلا تكون في يده حديدة يضربني بها ، فجاءوا بالسراج
فوجدوه قابضا بيده على يده وقد نسي أنها يده . . .

وأما الثالثة : فهي رواية عن رجل قد ورث نصف دار ،
ففكر طويلا كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى إلى الوسيلة ؛
فذهب إلى رجل وقال له : أريد أن أبيعك حصتي من الدار
وأشتري بثمانها النصف الباقي لتصير الدار كلها لي .

قال " النابغة " : لعمرى إن هذا لهو الجنون ، وما يذكر مع
هؤلاء مجنون المتن ولا " غيره " .

فقال الآخر : تالله لولا أن " نابغة القرن العشرين " يرفع
نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يذهل " العقول " .

ثم نظر فإذا النابغة يتحفز له . . . فأسرع يقول : " مما
حفظناه " : كن حذرا كأنك غر ، وكن ذاكرا كأنك ناس . فهذا هو
نسيان نابغة القرن العشرين ، نسيان حكماء لا نسيان مجانين .

قال " النابغة " : ولكن قد فسد قول الشاعر : ما لذة
العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيت مع الجنون لذة .

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين
بالمرض ، وإنما يريد العشاق المجانين بالجمال ؛ وجنون العاشق في

هذا الباب كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهي عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظمة ، فليست كغيرها من العيوب .

قال : فيجب أن أصنع بيتا آخر يفسر ذلك الشعر ليستقيم لي التمثل به ، ثم فكر وهمهم ، ثم كتب في ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أول ، وسأئتمن س . ع . على شعري ودفع إليه الورقة :

فنظرت وقلت : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم . . . ما لذة العيش إلا للمجانين العقل إن حكم العشاق أثقل من . . . فقر تحكم في رزق المساكين ونشر س . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم . . . ما لذة العيش إلا للمجانين إن العيوب عن المجنون دافعة . . . بأنه نابغ في القرن العشرين وضحكنا جميعا ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من أئتمن المجنون على سر وقال له اكتمه فكأنما قال له : انشره

ثم قال : وددت -والله- أن يكون س . ع . هذا " نابغة " ، ولكنني سأجعله نابغة ، فقد صار له علي حق الصديق وهو حق لا أضيعه ولا أخل به . فإذا احتجت يا س . ع . إلى خطاب رنان تلقيه في حفل عظيم ، أو قصيدة تمدهح بها وزير المعارف ، فالجأ إلي فإني

ملجأ لك . ومتى انتحلت شعري كنت عند الناس المتنبي أو
البحري . أو ابن الرومي ، فإن هؤلاء القدامى لم ينفعهم إلا أنني
لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ إنني لم أكن فيهم
قلنا فما حكمك عليهم في الأدب؟

قال : إذا حكمت عليهم فقد جعلت نفسي بينهم ، فمن
الطبيعي ألا يعجبني منهم أحد . إن " نابغة القرن العشرين " لا
يقول لمعنى هذا أحسن ، فإنه هو فوق الأحسن ، ولا يقول عن
نابغة هذا أشهر ، فإنه هو فوق الأشهر .

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم
الذي لا يقول في حسن هذا أحسن لأنه فوق الشهوة ، ولا في نعيم
هذا أطيب لأنه فوق الطمع ، ولا في مال هذا أكثر لأنه فوق
الحرص . وأحسبك لو كنت ترعى غنما لكنت الحقيق في عصرنا
بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين
الذئب والغنم .

قال : وكيف ذلك؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال
في نفسه : يا رب ! من زوجتي في الجنة؟ فأري في منامه ثلاث ليال
أنها جارية سوداء في أرض كذا ، فجاء تلك الأرض فسأل عن

الجارية، فقال له رجل : ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي فأعتقتها؟ قال : وماذا رأيتم من جنونها؟ قال : كانت تصوم النهار فإذا أعطيناها فطورها تصدقت به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها .

قال : فأين هي ؟ قال ترى غنما للقوم في الصحراء .
فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها ، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلها على المرعى وذئب يسوقها . فملا فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم .
قال " النابغة " : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب .

قلت : وأي عجيب في هذا؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثعبان والعصفور ، وكل آكل ومأكول من الأحياء ، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفا واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت روح الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان فوقع الذئب منها في دائرة مغناطيسية ، فسلب وحشيته ورجع مسخراً لفكرة الصلاح

والخير إذ تجانست فيه الحياة بما حولها ، وانسجم النوع والنوع في حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسي هو ومن ينومه في إرادة واحدة وفكرة واحدة .

قال " النابغة " : فإذا دخل الذئب مسجداً يرتج بالمصلين ، أترأه يصف أربعته ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة ، فيخرجون بها من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مسببها ، ومما في القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه ، كما يتصل فكر اللص بيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطفيلي بمعدته . فاسمها عندهم الصلاة ، وحقيقتها عند الله كما ترى .

قال " النابغة " : ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : " مما حفظناه " رتع الذئب في الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عدم فهم . . . إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلّى فيه سر الحياة ، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته أشواقه الكونية ، واتصاله بنفحات القوة الأزلية المسخرة للوجود كله . فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتج فيها وغمرته الروحانية الغالبة ، فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلّى السلام عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرة أمرها بابتلاع كل شيء مع كل شيء ، واجتماع المتنافرين في حالة معروفة لا في حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولكنه في روح النوم ، وشلت فيه الذئبية الطبيعية ، فإذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أنسى استعمالها ؛ وبقيت حركته الحيوانية ، ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذئب الذي هو في الذئب ، وبقي الحيوان حياً ككل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة جسم الأكل بجسم الأكلة ، بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله .

قال " النابغة " : أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن ، وبدون كتبه ألبته . . . وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفر على الإملاء بكل " مواهبه العقلية " ؛ ولما أن فكر النابغة أعطي النظر حقه وجمع في عقله الفذ جزالة الرأي إلى قوة التفنن والابتكار ، قال مرتجلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه ، هي بالنص والحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين .

" حاشية " وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

فامتعض الآخر وقال " مما حفظناه " :

وبات يقدح طول الليل فكرته . . . وفسر الماء بعد الجهد

بالماء

فقال " النابغة " : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت نفطويه

أو سيبويه لما كنت عندي إلا جحشويه أو بغلويه . . .

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقا نزها جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه ، واندفعت في سوائه " تميلات " الأفكار خاطفة كالبرق . فلما تكلمت أنت انتهينا من

سخافتك إلى طريق حجري تقعقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة .

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردت والله مساءتك ولو أردتها لقلت : وفسر الماء بعد الجهد بالسبر تو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح .
قال " النابغة " : ولكنه تفسير مفرط السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول : إني مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالذي حكاه الجاحظ قال : سمعت رجلا يقول لآخر : ضربنا الساعة زنديقا . قال الآخر : وأي شيء الزنديقا؟ قال الذي يقطع المزيقا . قال : وكيف علمت أنه يقطع المزيقا؟ قال : رأيته يأكل التين بالخل . . .

تتمة :

وطال المجلس بنا وبالمجنونين ، والكلام على أنحائه يندفع من وجه إلى وجه ، ويمر في معنى إلى معنى ؛ فأردت أن أبلغ به إلى الغاية التي جمعت من أجلها بين هذين المجنونين ، بعد ما انطلقنا في القول وانفتح القفل الموضوع على عقل كل منهما .

وكان قد مر في الندي بائع روايات مترجمة " بوليسية وغرامية ولصوصية ! " يحمل الرجل منها مزبلة أخلاق أوروبية كاملة لينفضها في نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا ، فقلت " لنابعة القرن العشرين " : أتقرأ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرة واحدة ثم لم أعاد ، إذ جعلتني الرواية رواية مثلها .

قلنا : هذا أعجب ما مر بنا منذ اليوم ، فكيف صرت رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابع ، إذ ليس لكم حسهم المرهف ، ولا طبعهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرهم المتعلقة بما فوق الطبيعة .

قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من " لنابعة " إلا وهو بين عالين على طرف مما هنا وطرف مما هناك ، فهو خراج ولاج بين العالمين ؛ وله نفس مركبة تركيبها على نواميس معروفة وأخرى

مجهولة؛ فهي تأخذ من الظاهر والباطن معا، ويحصرها المكان مرة ويفلتها مرة، وتكون أحيانا في زمان الأرض، وأحيانا في زمن الكواكب من القمر فصاعداً . . . ولكن . . .

فقطع علي وقال: أضف إلى ذلك أن هذه العقول التي تحصر من يسمونهم العقلاء في الزمان والمكان، لا توجد أهلها إلا الهموم والأحزان، والمطامع السافلة، والأفعال الدنيئة، فإنهم يعيشون فوق التراب.

قلت: نعم، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطراب أن تكون معاني التراب فوقهم وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمرا ترايبا في كل معانيه ولكن . . . قال: وزد على ذلك أنهم مقيدون بقييد المجانين، غير أن حبالهم وسلاسلهم عقلية غير منظورة؛ وبتغليلهم تغليل المجانين يسمون أنفسهم عقلاء، وأعقلهم أثقلهم قيودا، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلت: نعم، أما العقلاء بحقيقة العقل، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم، إذ كانوا في حال كحال المنطلق من المقيد، وفي موضع كموضع المعافى من المبتلى ولكن

...

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادة ، إذ ليس لهم العقل الضاحك الساخر العاثر الذي خص به النوابغ وكان الأوحاد فيه " نابغة القرن العشرين " .

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها ، أما " النوابغ " فقد لا يملكونها ، ولكن لا يفوتهم الشعور بها أبداً فيحييهم الفرح من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام لهم العقل الضاحك الساخر العاثر الذي دأبه أبداً أن ينسى ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادة صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبه . ولكن . . .

قال : والذي هو أهم من كل ما سبق ؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العاثر أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ويجنبه أن يخسر شيئاً من نفسه ؛ فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين في المائة .

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه ، إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله ، وتنقلب له الدنيا كأنها أم تضاحك ابنها وتلاعبه ولكن . . .

قال : ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الإنسانية إلا شذوذا في أفرادها من جبابرة العقول " ك نابغة القرن العشرين " .

قلت : نعم " ولكن " كيف صار " نابغة القرن العشرين " رواية حين قرأ الرواية؟

قال : هذه نكتة النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغة مثلنا يتلقى في نفسه وحي الأثير وإشارات الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن " نابغة القرن العشرين " سيقراً روايته ، فكان يتحرى معاني غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعاً آخر لا تكون فيه حبيبة خائنة ، ولا لص عارم ، ولا قاتل سفاح ، ولا سجن مظلم ، ولا محكمة تقول حيث وحيث . . .

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة في الورق ، ولص بين الحروف المطبعية وقاتل لا يقتل إلا كلاماً ، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض؟

قال : هذه نكتة النبوغ ، فما استوعبت القصة حتى غمرتني أشخاصها ، وأقحمت منها على هول هائل ، فخانتني الخائنة لعنها الله . . ولولا خوف السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قتلة ، ومثلت بها أقبح تمثيل . ويح الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل العملاق المشبوح العظام المقتول العضل ؟ ولكني

لست عملاقاً ولا مبنياً بناء الحائط ، ثم كان مجنوناً بشهواته جنون
الفيل الهائج ، وكنت في شهواتي عاقلاً عقل الإنسان ، ثم كان غنياً
غنى الجهال ، وكنت فقيراً فقر العلماء . والنساء ؛ قبح الله النساء .
إنهن زينة تطلب زينة مثلها وإن المرأة لتمنح وجهها للقرد يقبله إذا
كان الذهب يتساقط من قبلاته . أما من كان مثلي ، أمواله الشباب
والجمال والعقل والنبوغ ، فهو مفلس عندهن إفلاس القرد في
الغابة ، فهو عندهن قرد لهذه المشابهة .

قلت : هذا ليس عجيباً فإن اللغويين يجرون على الشيء
اسم ما يقاربه في المعنى .

قال المجنون الآخر : " مما حفظناه " : أن اللغويين يجرون
على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى . . .

فتردد وجه " النابغة " غضباً وقال : أبي يلعب هذا
المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسمونني قرداً ، فهاتوا القواميس
كلها وارجعوا إلى مادة " قرد " ومادة " نابغة " . . . سوءاً عليك
أيها الصبي المتمر . . . ألا فدعوني أؤدبه أدب الصبيان فإن اللطمة
القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة تلمسه الحقيقة التي يكابر
فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق . . .

قال ا. ش: أنت قلت: لا هو. على أنك لست قرداً أبداً
إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة، قد نضع البرذعة على
ظهر الأمير وتجعله حمارها، فيعجب الأمير أن يكون حمارها.
ولست قرداً مع قراد إلى جانب عنز وكلب.

قال: الآن علمت السبب، فإن الخائنة كانت متخيلة
مؤلفة كتب وروايات، والمرأة التي تؤلف الكتب، غير بعيد أن
تؤلف الرجل أيضاً، وتجعله قصة هو فيها قرد . . . وهذا إن كانت
جميلة كامرأة الرواية. أما إن كانت دميمة مجموعة من المتناقضات،
أو عجوزاً مجموعة من السنين؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد
عند النصارى . . . يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة.
هذه وهذه كلتاها تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد . . . لا
يشتعل، فضلاً عن أن يستعر، فضلاً عن أن يحترق.

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين: فإما
جميلة، فوجهها وثيقة بأن لها ديونا على الرجال؛ وإما غير جميلة،
فوجهها "مخالصة" من كل الديون . . .

قلنا: هذا في الخائنة. فيكيف سرقك اللص ولست غنيا؟
قال: هذه هي نكتة النبوغ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف
تفسيرها، وليس في جهلها مضرة على أحد، وجهل لا يضر هو

علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحث في بعض أعمال " النابغة " هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل ، أي بالعقل النابغ الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس .

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها . . .

قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أولفها أنا تألفت هي لي . فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعا انتبهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى . وفي ضوء النهار أجد الناس عقلاء ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين . فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضرب من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا استقام لها أمر .

يصرع الناس في الليل صرعة المجانين يغمضون أعينهم ولا يرون شيئا . أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحا هزليا يضج بالضحك من الإنسان الأحمق الذي يقطع سراة نهاره ، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والأذان والأناف . . . أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنيك زئيره ، ادعيت

الدعوى العريضة، وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده، وصاح هاتوا الجبل لأقيده لا يفلت .

قلت : فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلا من الرواية .

قال : أيما أحب إليكم ، أن أكتب أو أمثل ؟
قلنا : بل التمثيل أحب إلينا . فنظر إلى المجنون الآخر وقال : وإن المجنون في طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالا بعد حال ، كينبوع الماء يسح الدفعة بعد الدفعة ، فهنا المسرح ، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون . . .

أنت يا س . ع . عم هذا المجنون . فإذا قال لك يا عم . قل له : أنا لست عمك ولكني أخو أبيك . . . لننظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فإنه فرق عقلي دقيق تمتحن به العقول . . .
تعال أيها المريض فإني أرجو أن يكون شفاؤك على يدي ، وفي يدي هذه لمسة من لمسات المسيح ، لأن " نابغة القرن العشرين " هو الآن طبيب القرن العشرين . . .

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كل ما يحتاج إليه،
وتحروا مسرته دائماً، فإن إدخال بعض السرور إلى نفس المجنون
هو إدخال بعض العقل إلى رأسه.

متى أنكرت يا س. ع عقل ابن أخيك وما كان السبب؟
وكيف غلب على عقله؟ وهل ا. ش هو خاله أو أخو أمه؟
لطف الله لك أيها المسكين. قل لي: أتذكر أمس؟ أتذكر
غداً؟ إن الأمس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين؛ ومن
الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم
الزمن في العقلاء، وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناس كالعقلاء،
غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم في الضحك
 والمرح والطرب، وهذا حسبهم من النعمة عليهم.

قل لي أيها المجنون: أتخس أن الدنيا تصنع لك نفسك، أم
نفسك هي تصنع لك الدنيا؟ إن هذه مسألة يحلها كل مجنون على
طريقته الخاصة به، فما هي طريقتك في حلها؟

ما لك لا تحيب أيها الأبله؟ "هذا من جهة ومن جهة"
أعطوه قرشا لينطلق لسانه، وآتوا الطبيب أجره وافيا وهو لا يقل
عن قرشين . . .

ثم مال " النابغة " على مجنون المتن وساره بشيء . فقلنا ما أمر المال بسر ؛ هذا قرش للمريض وهذان قرشان للطبيب . فقال المجنون : " مما حفظناه " كفى بالسلامة داء .

قال " الطبيب " : هذا مريض بنوع من الجنون اسمه " مما حفظناه " وهو جنون النسيان الذي يضع في مكان العقل كلمة ثابتة لا يتذكر المجنون إلا بها ؛ ومن أعراضه جنون الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه ، وقد يترامى إلى جنون اللمس ، فلو لمستة بإصبعك توهمها عقربا فخاف من الإصبع تلمسه خوفه من العقرب تلدغه ، ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق في فحصها ، فليس هذا من مجانين العبقرية التي انحرفت عن طريقها أو شذت في قوتها ؛ ولا هو ممن يتجان ويتحامق التماسا للرزق والعيش كما قال بعضهم : حماقة تعولني خير من عقل أعوله .

فقال المجنون : " مما حفظناه " حماقة تعولني . . .

فضحك " النابغة " وقال : هو كما بينت لكم مصاب بجنون " مما حفظناه " وهو أقل الجنون وأهونه ، وعلاجه البسط والسرور والقرش ، والضرب أحيانا . . . فإذا ثابر عليه الداء تحول إلى جنون " مما ضربناه " . . . فيعتدي المصاب على كل من يراه أو

يوقع به ضربا، وعلاجه حينئذ القميص المرقوم^{٧٠}؛ فإذا فدحت العلة انقلب المرض إلى جنون "مما قتلناه". وعلاجه يومئذ السلاسل والأغلال.

والحق أقول لكم إن آخر ما انتهت إليه فلسفة الطب في القرن العشرين أن الناس جميعا مجانين ولكن بعضهم أوفر قسطا من بعض. كأن سلب العقل هو أيضا حظوظ كحظوظ موهبة العقل. وأهل المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفلك.

ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق في فحصها؛ وعندي في الدار عاطوس إذا أشمته هذا المجنون عطس به عطسة قوية فخرج جنونه من أنفه . . . قل لي أيها المسكين: أتحاف إذا سرت وحدك في ميدان واسع كأن الميدان سيلتف عليك؟ أتضطرب إذا مشيت في مضيق كأن المكان سينطبق عليك؟ وإذا كنت في عربة القطار فهل يحيل إليك أن البيمارستان قد جره القطار وانطلق به هاربا؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تنتحر؟

أرني هذا القرش الذي في يدك. فمد إليه المجنون يده بالقرش.

^{٧٠} القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذي يسمى اليوم "النمرة" وقد كان هذا معروفا في التمدن الإسلامي.

قال " النابغة " : انظر الآن هل تحدثك نفسك أن تغصبني
هذا القرش أو تسرقه مني؟ قال : نعم .

قال " النابغة " : إذن يجب أن أحرزه في جيبى . . . وأسرع
فأخفاه في جيبه .

فصاح الآخر وشغب ، وقال : سلبنى ونهبنى . قلنا لا
ينبغي أن يتصل بينكما

شر في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفي الفلسفة عند
" النابغة " إباحة السرقة والغصب؟

قال : فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون
وتلميذه أرسطو .

قل لي ويحك يا أرسطو . أعلمت أن في المجانين أغنياء
يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجة
إليه . فما علة ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون؟

أعجزت عن الجواب؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب
بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته
من الدرهم وحده ، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل
بالشراء بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيجيئه
بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا . فهذا جنون باللذة

لا بالسرقة ، وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتنعة على عاشقها .

والجوع إذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمح على أنفسهم ، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . . فباضطراب جاعوا وباضطراب مثله أكلوا ، والسارق هنا هو الغني الذي منعهم الإحسان والمعونة .

فالدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو ، لو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعا . وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائما على أن ترى في الآخرين عيوباً مثلها .

كل حمار فهو يريد أن يملأ جوفه تبناً وفولاً وشعيراً ، غير أنني لم أر حمراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل ؛ فإذا وجد حمار هذه همته وهذا عمله فاسمه إنسان لا حمار .

يا أرسطو إن معضلة العضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضة قائمة في نفس حمار أو ثابتة في ذهنه الحماري . . . ومثل هذا أن يحاول حمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو

في قلبه ، فلا حل لمشاكل العالم أبداً ما دام كل إنسان مع غيره كحمار مع إنسان .

والمعضلات النفسية من عمل الشياطين ، فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لتحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الإنسانية ؛ ولكن الله تعالى - منعها ، وأرسل للإنسان ملائكة أخرى إن شاء هذا الإنسان عملت ، وإن شاء عجزت ؛ وهي فضائل الأديان المنزلة . فإذا منحها الإنسان إرادته وقوته ، فعملت عملها كان الإنسان هو الملك بل فوق الملك ، وإذا أضعفها ومحققها كان الإنسان هو الشيطان وأسفل من الشيطان .

يا أرسطو : " هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفقت على الظهور وستختفي . والعالم عندي ضعف ركب وقوة ركبت . والعالم عندي لا شيء . والعالم بين بين . والعالم قسمان : منهم الفلاح الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية . والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه . والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب . والأدب ضربان : أدب نفساني وأدب مكتسب ، وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخص مات بلا موت ، ويحيا بلا حياة " .

أتريد يا أرسطو أن تعرف سر تركيب العالم؟ الأمر يسير
غير عسير، فإن سر تركيبه كسر تركيب القرش الذي في يدك،
فدعني أظهرك على هذه الحقيقة ومد يدك بالقرش لأبين لك سر
التركيب فيه.

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القرش في جيبه. فقال
"النابعة": هذا سياسي داهية خبيث. والرواية الآن رواية سياسي
القرن العشرين.

ليس في حقيقة السياسة إلا الرذل من أفعال السياسيين.
والألفاظ السياسية التي تحمل أكثر من معنى هي التي لا تحمل
معنى. فليحذر الشرق من كل لفظ سياسي يحتمل معنيين، أو
معنى ونصف معنى، أو معنى وشبه معنى؛ فإن قالوا لنا: "أحمر"
قلنا لهم: اكتبوه بهذا اللفظ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم: ارسموا إلى
جانبه معناه باللون الأحمر لتشهد الطبيعة نفسها على أن معناه أحمر
لا غير... وعلى هذه الطريقة يجب أن تكتب المعاهدات السياسية
بين أوروبا والشرق...

إنهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولون:
أكلتم وشبعتم... ولقد رأيت "مظاهرات" كثيرة ولا كالمظاهرة
التي أتمناها؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين في مظاهرة...

وهذا الأبله الذي أماننا ليس وطنيا ولا فيه ذرة من الوطنية؛ فإن كان وطنيا أو زعم أنه وطني، فليخرج القرش الذي في جيبه . . . ليكون فألا حسنا لخروج جيش الاحتلال من مصر . . .

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه .

فقال " النابغة " : الرواية الآن رواية الشرطي واللص .
وبحق من القانون يكون للشرطي أن يفتش هذا اللص ليخرج القرش من جيبه . . .

غير أن المجنون امتنع . فقال " النابغة " : كل ذلك لا يجدي مع هذا الحبث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة ، ويجب أن ينكب الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصفي القرش .

بيد أننا منعناه أن ينكب " البرامكة " فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلا في المجنون وصعد فيه عينه و صوب فلم ير إلا ما يذكر بأنه رجل ، فتهدى إلى رأي عجيب .
فوقع على قدميه وتوهمه امرأة في حذائها . . . وجعل يناجي الحذاء بهذه المناجاة :

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن
الحب غير سخيّف ؛ فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيّفة ،
عليها جلال الحب ؛ وللحذاء في قدميك يا حبيبتي جمال الصندوق
المملوء ذهباً في نظر البخيل ، وكل شيء منك أنت فيه سر جمالك
أنت . والحذاء في قدميك ليس حذاء ، ولكنه بعض حدود جسمك
الجميل ، فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى
الحذاء .

إن جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب ؛ في كل
موضع منه روح الماء كله ؛ وحيثما وقعت القبلّة من جسمك كان
فيها روح شفّتيك الورديتين ، هذه قبلّة على قدميك يا حبيبتي ؛
وهذه قبلّة على ساقك ؛ وهذه قبلّة على ثوبك ، وهذه قبلّة على
جيبك . . .

وكادت يد " النابغة " تخرج بالقرش ، فعضه المجنون في
كتفه عضّة وحشية ، فجأه الخوف منها فطار صوابه ؛ فصرخ
صرخة عظيمة دوى لها المكان وترددت كصر صرّة البازي في الجو ،
ثم اعتراه الطيف ، وأطبق عليه الجنون فاختلط وتخبّط .
" والرواية الآن ؟ " . . . رواية عربية الإسعاف . . .

المشكلة

قالت لي صاحبة "الجمال البائس" فيما قالت: إن المرأة الجميلة تخاطب في الرجل الواحد ثلاثة: الرجل، وشيطانه، وحيوانه. فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نكن معه، وأما الحيوان فله في أيدينا مقادة من الغباوة، ومقادة من الغريزة، إذا شمس في واحدة أصحب في الأخرى وانقاد؛ ولكن المشكلة هي الرجل تكون فيه رجولة.

نعم، إن المشكلة التي أعضلت على الفساد هي في الرجل القوي الرجولة يعرف حقيقة وجوده وشرف منزلته؛ ولهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يكون بين الوقت والوقت في اليوم خارجاً من صلاة.

وإنما الرجولة في خلال ثلاث: عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه؛ وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجره العظيم، والثالثة: قدرته على العمل والقبول إلى النهاية.

ولن تقوم هذه الخلال إلا بثلاث أخرى: الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة؛ وجعل ما يحبه الإنسان وما يكرهه موافقاً لما

أدرك من هذه الغاية؛ والثالثة: القدرة على استخراج معاني الألم فيما أحب وكره على السواء.

فالرجولة على ذلك هي إفراغ النفس في أسلوب قوي جزل من الحياة، متساوق في نمط الاجتماع، بليغ بمعاني الدين، مصقول بجمال الإنسانية، مسترسل ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية.

ولهذه الحكمة أسقطت الأديان من فضائلها مبدأ إرضاء النفس في هواها، فلا معاملة به مع الله في إثم أو شر؛ وأسقطه الناس من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض، فلا يقوم به إلا الغش والمكر والخديعة، وكل خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية، فإنما ينزع إلى ذلك إرضاء لنفسه وإشاراً لها وموافقة لمحبتها وتوفية لحظها؛ وعمله هذا الذي يلبسه الوصف الاجتماعي الساقط ويسميه باسمه في اللغة، كالرجل الذي يرضي نفسه أن يسرق ليغتني، فإذا أعطى نفسه رضاها فهو اللص؛ وكالتاجر في إرضاء طمعه هو الغاش، وكالجندي في إرضاء جبنه هو الخائن، وكالشاب في إرضاء رذيلته هو الفاسق، وهلم جراً وهلم جرجرة.

وأما بعد ، فالقصة في هذه الفلسفة قصة رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نوم ليله وهدوء نهاره حتى كَسَفَتْ باله وفرّقت رأيه ، وكابد فيها الموت الذي ليس بالموت ، وعاش بالحياة التي ليست بالحياة .

قال : فقدتُ أُمِّي وأنا غلام أحوج ما يكون القلب إلى الأم ، فخشي علي أبي أن أستكين لذلة فقدها فيكون في نشأتي الذل والضراعة ، وكبر عليه أن أحس فقدها إحساس الطفل تموت أمه فيحمل في ضياعها مثل حزنها لو ضاع هو منها ؛ فعلمني هذا الأب الشفيق أن الرجل إذا فقد أمه كان شأنه غير شأن الصبي ؛ لأن له قوة وكبرياء ؛ وألقى في روعي أنني رجل مثله ، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلي الآن .

وكان من بعدها إذا دعاني قال : أيها الرجل ، وإذا أعطاني شيئاً قال : خذ يا رجل ، وإذا سألني عن شأني قال : كيف الرجل ؟ وقل يوم يمر إلا أسمعنيها مراراً ، حتى توهمت أن معي رجلاً في عقلي خلخته هذه الكلمة . وتنام الرجل بشيئين : اللحية في وجهه ، والزوجة في داره ، فتجيء الزوجة بعد أن تظهر اللحية لتكون

كلتاهما قوة له ، أو وقاراً ، أو جمالاً ، أو تكون كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين في الوجه والحياة .

أما اللحية لي أنا أيها الرجل الصغير ، فليس في يد أبي ولا في حيلته أن يجيء بها ، ولكن الأخرى في يده وحيلته ؛ فجاءني ذات نهار وقال لي : أيها الرجل ! إن فلانة مسماة عليك ^{٧١} منذ اليوم ، فهي امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها .

وفلانة هذه طفلة من ذوات القربى ، فأفرحني ذلك وأبهجني ؛ وقلت للرجل الذي في عقلي : أصبحت زوجاً أيها الرجل .

وكان هذا الرجل الجاثم في عقلي هو غروري يومئذ وكبريائي ، فكنت أقع في الخطأ بعد الخطأ وآتي الحماقة بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غروري ذو لحية طويلة .

ونشأتُ على ذلك : صُلب الرأي معتداً بنفسي ، إذا هممت مضيت ، وإذا مضيت لا ألوي ، وما هو إلا أن يخطر لي الخاطر فأركب رأسي فيه ، ولأن تُكسرَ لي يد أو رجل أهون علي من أن يكسر لي رأي أو حكم ؛ وأكسبني ذلك خيالاً أكذب خيال وأبعده ، يخلط علي الدنيا خلطاً فيدعني كالذي ينظر في الساعة

^{٧١} هذا هو التعبير العربي الصحيح لقولهم قبل العقد : "مخطوبة لفلان".

وهي اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد ، فيطالعها اثني عشر شهراً للسنة .

وترامت حريتي بهذا الخيال فجاوزت حدودها المعقولة ، وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد ، كذبت علي الفكرة والطبيعة .

ولست جميل الطلعة إذا طالعت وجهي ، ولكني مع ذلك معتقد أن الخطأ في المرأة ، إذ هي لا تظهر الرجل الوضيء الجميل الذي في عقلي ، ولست نابغة ، ولكن الرجل الذي في عقلي رجل عبقرى ؛ وهذا الذي في عقلي رجل متزوج ؛ فيجب علي أنا الطفل أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد في المدارس العليا .

وذهبتُ بكل ذلك أرى فلانة زوجتي ، فأغلقت الباب في وجهي واختبأتُ مني ، فقلت في نفسي : أيها الرجل ، إن هذا نشوز وعصيان ، لا طاعة وحب . وساءني ذلك وغمني وكبر علي ، فأضمرت لها الغدر ، فثبتت بذلك في ذهني صورة " الباب المغلق " ، وكأنه طلاق بيننا لا باب .

قال : ثم شب الرجل فكان بطبيعة ما في نفسه كالزوج الذي يترقب زوجته الغائبة غيبة طويلة : كل أيامه ظمأً على ظمأً ، وكل يوم يمر به هو زيادة سنة في عمر شيطانه . وكان قد انتهى إلى

مدرسته العالية، وأصبح رجل كتب وعلوم وفكر وخيال؛
فعرضت له فتاة كاللواتي يعرضن للطلبة في المدارس العليا، ما
منهن على صاحبها إلا كالحية في امتحان. بيد أن "الرجل" لم
يعرف من هذه الفتاة إلا أوائل المرأة، ولم يكد يستشرف لأواخرها
حتى سُميت على غيره، فخطبت، فزُفت؛ زُفت بعد نصف زوج
إلى زوج.

وعرف الرجل من الفلسفة التي درسها أنه يجب أن يكون
حرّاً بأكثر مما يستطيع، وبأكثر من هذا الأكثر، فقالها بملء فيه،
وقال للحرية: أنا لك وأنت لي.

قالها للحرية، فما أسرع ما ردّت عليه الحرية بفتاة
أخرى.

نقول نحن: وكان قد مضى على "الباب المغلق" تسع
سنوات، فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعة أبواب
مغلقة؛ ولكنها مع ذلك مسماة له، يقول أهله وأهلها: "فلان
وفلانة". وليس "الباب المغلق" عندهم إلا الحياء والصيانة،
وليست الفتاة من ورائه إلا العفاف المنتظر؛ وليس الفتى إلا ابن
الأب الذي سمى الفتاة له وحبسها على اسمه؛ وليست القربى إلا
شريعة واجبة الحق، نافذة الحكم.

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغ من حرية المرء في هذا العصر فالشرف مقيد .

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغي أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معاني الفاحشة . وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هي لبناء الأسرة ، فإن بلغ وجهها الغاية من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجه ذو سلطة وحقوق " رسمية " في الاحترام ؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ، ولا تقوم إلا على ذلك .

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرة المخلصة الحب لزوجها ، إنما هي معاملة بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه في كرامة أو مهانة ، وضع نفسه عند الله في مثل هذا الموضع .

وعند أهل العقل والرأي ، أن كل زوجة فاضلة ، هي جميلة جمال الحق ؛ فإن لم توجب الحب ، وجبت لها المودة والرحمة . وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هي إنسانيته ومروءته ؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة .

أما عند الشيطان " لعنه الله " فشروط الزوجة الكاملة ما
تشرطه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب !

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهي
جمالاً ، وكما يشتهي فكري علماً ، كنت أنا المتزوج وحدي وبقي
فكري عزباً . وقد عرفت التي تصلح لي بجمالها وفكرها معاً ،
وتبوأت في قلبي وأقمت في قلبها ؛ ثم داخلت أهلها ، فخلطوني
بأنفسهم ، وقالوا : شاب وعزب ، ومتعلم وسري ، فلم يكن
لدارهم " باب مغلق " ، حتى لو شئت أن أصل إلى كريمتهم في
حرام وصلت ، ولكني رجل يحمل أمانة الرجولة .

أما الفتاة فلست أدري والله أفيها جاذبية نجم ، أم جاذبية
امرأة؟ وهل هي أنثى في جمالها ، أو هي الجمال السماوي أتى ينقح
الفنون الأرضية لأهل الفن؟

إذا التقينا قالت لي بعينيها : هنا أنا ذي قد أرخيت لك
الزمام ، فهل تستطيع فراراً مني؟ ونلتصق فتقول لي بجسمها :
أليست الدنيا كلها هنا ، فهل في المكان مكان إلا هنا؟ ونفترق
فتحصر لي الزمن كله في كلمة حين نقول : غداً نلتقي .

كلامها كلام متأدب ، ولكنه في الوقت نفسه طريقة من
الخلاعة ، تلفتك إلى فمها الحلو؛ والحركة على جسمها حركة

مستحية ، ولكنها في الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسم في التمثال العاري .

إنها والله- قد جعلت شيطاني هو عقلي ؛ أما هذا العقل الذي ينصح ويعظ ويقول : هذا خير وهذا شر ، فهو الشيطان الذي يجب أن أتبرأ منه .

قال : وألم الأب بقصة فتاه ، ويحسبها نزوة من الشباب يحمدها الزواج ، فيقول في نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن ، فتكون كل امرأة غير الأخرى في الخيال والوهم والمزاج الشعري ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوين في حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنساني ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة ، ويقرر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبصر ، فلا ينظر النظرة الخيالية التي لا تقنع بامرأة واحدة ، بل لا تزال تلتمس محاسن الجنس ومفاته ، وهي النظرة التي لا يقوم بها إلا بناء الشعر دون بناء الأسرة ، ولا تصلح عليها المرأة تلد أولاداً لزوجها ، بل المرأة تلد المعاني لشاعرها .

ثم احتاط في رأيه ، فقدر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحوراً ، ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل ملتات ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ، ويحارب أهله وربّه من أجل امرأة ،

بيد أنه قال : إنه هو والده ، وهو رباه وأنشأه في بيت فيه الدين والخلق والشهامة والنجدة ، وإن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهتره ، حين تجمع كل معاني الفساد والإباحة والاستهتار في كلمة " الحرية " . وقال : إن البيئة في العهد الذي كان من أخلاقه الشرف والدين والمروءة والغيرة على العرض ، لم يكن فيها شيء من هذا ؛ ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ؛ إذ النسل هو امتداد تاريخ الأب والابن معاً ، والأب أعرف بدينه وأجدر أن يكون مبرراً من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحسب والكمال ، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق في باب من أبواب الأخلاق ، بل محله في باب الشهوات وحدها .

ثم جزم الأب أن الولد الذي يجيء من عاشقين ، حري أن يرث في أعصابه جنون اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ؛ ولهذا وقف الشرع في سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة في أولها ؛ ولهذا يكثر الضعف العصبي في هذه المدينة الأوروبية وينتشر بها الفساد ، فلا يأتي جيل إلا وهو أشد ميلاً إلى الفساد من الجيل الذي أعقبه .

ولم يكذب ينتهي الأب إلى حيث انتهى الرأي به ، حتى
أسرع إلى " الباب المغلق " يهيم للزفاف ويتعجل لابنه المطيع نكبة
ستجبي في احتفال عظيم .

قال الشاب : وجن جنوني ؛ وقد كان أبي من احترامني
بالموضع الذي لا يلقي منه ، فلجأت إلى عمي أستدفع به النكبة ،
وأأيد بمكانه عند أبي ؛ وبشته حزني وأفضيت إليه بشأني ، وقلت
له فيما قلت : افعلوا كل شيء إلا شيئاً ينتهي بي إلى تلك الفتاة ، أو
ينتهي بها إلي ؛ وما أنكر أنها من ذوات القربى ، وأن في احتمالي
إياها واجباً ورجولة ، وفي سري لها ثواباً ومروءة ، وخاصة في هذا
الزمن الكاسد الذي بلغت فيه العذارى سن الجدات . ولكن القلب
العاشق كافر بالواجب والرجولة ، والثواب والمروءة ، وبالألم
والأب ؛ فهو يملك النعمة ويريد أن يملك التنعم بها ؛ وكل من
اعترضه دونها كان عنده كاللص .

قال : قبح الله حباً يجعل أباك في قلبك لصاً أو كاللص .

قلت : ولكنني حر أختار من أشاء لنفسي .

قال : إن كنت حراً كما تزعم ، فهل تستطيع أن تختار غير

التي أحببتها؟ ألا تكون حراً إلا فينا نحن وفي هدم أسرتنا؟

قلت : ولكنني متعلم ، فلا أريد الزواج إلا بمن . . .

فقطع علي وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو حُذِيّاً ، لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضعون للحب وللمرأة هذا الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطان أن يقضي في قلوبهم كل أوقات فراغه .

أما العاملون في الدين ، والمغامرون في الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ، والطامعون في الكمال الإنساني ، فهؤلاء جميعاً في شغل عن تربية أوهامهم ، وعن البكاء للمرأة والبكاء على المرأة ؛ ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛ وغرضهم منها أجل وأسمى ؛ وقد قال نبينا -صلى الله عليه وسلم- : " اتقوا الله في النساء " أي : انظروا إليهن من جانب تقوى الله ؛ فإن المرأة تقدم من رجلها على قلب فيه الحب والكراهة وما بينهما ، ولا تدري أي ذلك هو حظها ؛ ولو أن كل من أحب امرأة نبذ زوجة ، لخربت الدنيا ولفسد الرجال والنساء جميعاً . وهذه يا بني أوهام وقتها وعمل أسبابها ، وسيمضي الوقت وتتغير الأسباب ، وربما كان الناضج اليوم هو المتعفن غداً ، وربما كان الفج هو الناضج بعد؟

وَهَبْكَ لَا تَحِبْ ذَاتَ رَحْمِكَ ثُمَّ أَكْرَمْتَهَا وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهَا
وَسْتَرْتَهَا ، أَفِيكُونُ عِنْدَكَ أَجْمَلُ مِنْ شَعُورِهَا أَنْكَ ذُو الْفَضْلِ عَلَيْهَا؟
وَهَلْ أَكْرَمَ الْكَرَمُ عِنْدَ النَّفْسِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا الشَّعُورُ فِي نَفْسِ

أخرى؟ إن هذا يا بني إن لم يكن حبا فيه الشهوة، فهو حب إنساني فيه المجد .

ووقعت المشكلة وزُفت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة؟ .

لما فرغت من مقالات " المجنون " وأرسلت الأخيرة منها، قلت في نفسي : هذا الآخر هو الآخر من المجنون وجنونه، ومن الفكر في تخليطه ونوادره ؛ غير أنه عاد إلي أخلاطاً وأضغاثاً فكأنني رأيته في النوم يقول لي : اكتب مقالاً في السياسة . قلت : ما لي وللسياسة وأنا " موظف " في الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاق الموظفين، لما عرفوا من نقد أو غَمِيزَة ليكْتُمْنَه ولا يبينونه؟! فقال : هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلح عذراً، والمخرج سهل والتدبير يسير والحل ممكن . قلت : فما هو؟

قال : اكتب ما شئت في سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعك في آخر المقال هكذا : " مصطفى صادق الرافعي ؛ غير موظف بالحكومة " .

فهذه طريقة من طرق المجانين في حل المشاكل المعقدة، لا يكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذر الإمكان، وهي

بعينها طريقة ذلك الطائر الأبله الذي يرى الصائد فيُغمض عينه ويلوي عنقه ويخبأ رأسه في جناحه ؛ ظناً عند نفسه أنه إذا لم ير الصائد لم يره الصائد ، وإذا توهم أنه اختفى تحقق أنه اختفى ؛ وما عمله ذاك إلا كقوله للصياد : إني غير موجود هنا . . . على قياس " غير موظف " .

وقد كنت استفتيت القراء في " المشكلة " ، وكيف يتقي صاحبها على نفسه ، وكيف تصنع صاحبها ؛ فتلقيتُ كتباً كثيرة أهدت إلي عقولاً مختلفة ؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقي إلي منها كتاب مجنون " نابغة " ك نابغة القرن العشرين ، بعث به من القاهرة ، وسمى نفسه فيه " المصلح المنتظر " وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كُتبتُ وكما تُقرأ ؛ فإن نشر هذا النص كما هو ، يكون أيضاً نصاً على ذلك العقل كيف هو ؟

قال : " إن هذا الكون تعبت فيه آراء المصلحين ، وكتب الأنبياء زهاء قرون عديدة ، ودائماً نرى الطبيعة تنتصر . ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه ، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته ، إلا الإنسان . ولقد تفنن المشرعون في أسماء : العادات والتقاليد والحمية والشرف والعرض ، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة ، فما بالكم بسلطان الروح ؟

ورأيي لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه
الجحيم " كذا " إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها
ويتمتع بالحب الواحد المقدر له ، ما دام قلبه اصطفاها وروحه
تهواها ؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأي داعٍ من دواعي الانفصال
" كذا " .

وهذا ليس مجرد رأي مجرب ، وإنما هو رأي أكبر عقل
أنجبه الطبيعة حتى الآن ! وستنصر على جميع من يقفون أمامه ،
والدليل أن هذا المقال سيشار إليه في مجلة " الرسالة " وهذا الرأي
سيعمل به ، وصاحب هذا الرأي سيخلد في الدنيا ، وسيضع
الأسس والقوانين التي تصلح لبني الإنسان مع سمو الروح بعد أن
أفسدت أخلاقه عبادة المال .

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون ،
وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه . وإلى الملتقى في
ميدان الجهاد " .

" المصلح المنتظر " انتهى .

وهذا الكتاب يحل " المشكلة " على طريقة " غير موظف "
فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فإذا هو غير متزوج ، وإذا هو يتقلب
فيما شاء ؛ وتسأل الكاتب ثم ماذا؟ فيقول لك : ثم الجحيم .

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه ؛ لأننا قرأناه على وجهين ، فقد نبهتنا عبارة " أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن " إلى أن في الكلام إشارة من قوة خفية في الغيب ، فقرأناه على وحي هذه الإشارة وهديتها ، فإذا ترجمة لغة الغيب فيه :

" ويحك يا صاحب المشكلة ، إذا أردت أن تكون مجنوناً أو كافراً بالله وبالأخرة فهذا هو الرأي . كن حيواناً تنتصر فيه الطبيعة والسلام! " .

تلك إحدى عجائب المقادير في أول كتاب ألقي إلي ؛ أما العجبية الثانية فإن آخر كتاب تلقيته كان من صاحبة المشكلة نفسها ؛ وهو كتاب آية في الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس في أسرارها ، يمور مَوْر الضباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يحجب جمالاً ليظهر منه جمالاً آخر ؛ وكأنه يعرض بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصور ، ويأتي بكلام يُقرأ بالعين قراءة وبالفكر قراءة غيرها ؛ ولفظها سهل ، قريب قريب ، حتى كأن وجهها هو يحدثك لا لفظها ؛ ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلب سليم مُقْفَل على خواطره وأحزانه ، مسترسل إلى الإيمان بما كُتِب عليه استرساله إلى الإيمان بما كُتِب له ، فما به غرور ولا كبرياء ولا حقد ولا غضب ، ولا يكرُّه ما هو فيه .

ومن نكد الدنيا أن مثل هذا القلب لا يُخلق بفضائله إلا ليعاقب على فضائله ؛ فغلظة الناس عقاب لرقته ، وغدرهم نكاية لوفائه ، وتهوُّرهم رد على أناته ، وحمقهم تكدير لسكونه ، وكذبهم تكذيب للصدق فيه .

وما أرى هذا القلب مأخوذاً بحب ذلك الشاب ولا مستهماً به لذاته ، وإنما هو يتعلق صوراً عقلية جميلة كان من عجائب الاتفاق أن عرضتُ له في هذا الشباب أول ما عرضت على مقدار ما ؛ وسيكون من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزول هذا الحب زوال الواحد إذا وُجدت العشرة ، وزوال العشرة إذا وجدت المائة ، وزوال المائة إذا وجد الألف .

وبعد هذا كله ، فصاحبة المشكلة في كتابها كأنما تكتب في نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع : " فلان غير موظف بالحكومة " وهي فيما كتبت كالنهر الذي يتحدَّر بين شاطئيه ، مدعيّاً أنه هارب من الشاطئين مع أنه بينهما يجري : تحب صاحبها وتلقاه ؛ ثم هي عند نفسها غير جانية عليه ولا على زوجته . فليت شعري عنها ، ما عسى أن تكون الجناية بعد زواج الرجل غير هذا الحب وهذا اللقاء ؟ !

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال
له : هبنا نقدر على محاباتك في ألا تقول : إنك ظالم ؛ هل تقدر
أنت على ألا تعلم أنك ظالم؟

ورأيها في " المشكلة " أن ليس من أحد يستطيع حلها إلا
صاحبها ، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين : فإما أن
تكون ضحية أبيها وأبيه - تعني زوجته - ضحيته هو أيضاً ،
ويستهدف لما يناله من أهله وأهلها ، فيكون البلاء عن يمينه
وشماله ، ويكابد من نفسه ومنهم ما إن أقله ليذهب براحته
وينغص عليه الحب والعيش ، " قالت " : وإما أن يضحي بقلبه
وعقله وببي .

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحداً لا يستطيع حل
المشكلة إلا صاحبها ، غير مستطيع حلها إلا بجناية يذهب فيها
نعيمه ، أو مجنون يذهب فيه عقله . فإن حلّها بعد ذلك فهو أحد
اثنين : إما أحمق أو مجنون ما منهما بد .

ولسان الغيب ناطق في كلامها بأن أحسن حل للمشكلة
هو أن تبقى بلا حلّ ، فإن بعض الشر أهون من بعض .

والعجيبة الثالثة أن " نابغة القرن العشرين " جاء زائراً بعد
أن قرأ مقالات " المجنون " ، فرأى بين يدي هذه الكتب التي تلقيتها

وأنا أعرضها وأنظر فيها لأتخير منها ، فسأل فخبّرته الخبر ؛ فقال :
إن صاحب هذه المشكلة مجنون ، لو امتحنوه في الجغرافيا وقالوا له :
ما هي أشهر صناعة في باريس ؟ لأجابهم : أشهر ما تعرف به
باريس أنها تصنع " البودرة " لوجه حبيبتى .

قلت : كيف يتردد هذا المجنون عاقلًا ؟ وما علاجه عندك ؟
قال : وجهه في طلب " ا. ش " ^{٧٢} ليحيى ، فلما جاء قال
له : اكتب : جلس " نابغة القرن العشرين " مجلسه للإفتاء في حل
المشكلة فأفتى مرتجلًا :

" إن منطق الأشياء وعقلية الأشياء صريحان في أن مشكلة
الحب التي يعسر حلها ويتعذر مجاز العقل فيها ، ليست هي مشكلة
هذا العاشق أكرهوه على الزواج بامرأة يحملها القلب أو لا
يحملها ، وإنما هي مشكلة إمبراطور الحبشة يريدون إرغامه أن
يتزوج إيطاليا ، ويذهبون يزفونها إليه بالدبابات والرشاشات
والغازات السامة " .

" ولو لم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغًا من العقل
الذي يعمل عمل العقل ، إذن لكانت مجاري عقله مطردة في رأسه ،
فانحلت مشكلته بأسباب تأتي من ذات نفسها أو ذات نفسه ؛ غير

^{٧٢} هو الأديب أمين حافظ شرف

أن في رأسه عقل بطنه لا عقل الرأس ، كذلك الشرُّ البخيل الذي طبخ قدرًا وقعد هو وامرأته يأكلان ، فقال : ما أطيب هذه القدر لولا الزحام . قالت امرأته : أي زحام ههنا ، إنما أنا وأنت ؟ ! قال : كنت أحب أن أكون أنا والقدر فقط .

" فعقل النِّهم في رأس هذا كعقل الشهوة في رأس ذاك ؛ كلاهما فاسد التقدير لا يعمل أعمال العقول السليمة ؛ ويريد أحدهما أن تبطل الزوجة من أجل رطل من اللحم ، ويريد الآخر مثل ذلك في رطل من الحب .

وإذا فسد العقل هذا الفساد ابتلى صاحبه بالمشاكل الصبانية المضحكة : لا تكون من شيء كبير ، ولا يكون منها شيء كبير ؛ وهي عند صاحبها لو وُزنت كانت قناطر من التعقيد ؛ ولو كيلت بلغت أَرادب من الحيرة ؛ ولو قيسَت امتدت إلى فراسخ من الغموض .

هاتان المرأتان : " الحبيبة والزوجة " ، إما إن تكونا جميعاً امرأتين ، فالمعنى واحد فلا مشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين ، فالمعنى كذلك واحد فلا مشكلة ؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قردة أو هرّدة ، وههنا المشكلة . " حاشية : الهردة من أوضاع نابغة

القرن العشرين في اللغة، ومعناها: الأنثى ليست من إناث الأناسي ولا البهائم".

فإن زعم العاشق أن زوجته قردة فهو كاذب، وإن زعم أنها الهردة فهو أكذب؛ والمشكلة هنا مشكلة كل المجانين، ففي مخه موضع أفرط عليه الشعور فأفسده، وأوقع بفساده الخطأ في الرأي، وابتلاه من هذا الخطأ بالعمى عن الحقيقة، وجعل زوجته المسكينة هي معرض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد؛ ولا عيب فيها؛ لأنها من زوجها كالحقيقة التي يتخبط فيها المجنون مدة جنونه، فتكون مجلّى هذيانه ومعرض حماقاته، وهي الحقيقة غير أنه هو المجنون.

فإن كانت هذه الحقيقة مسألة حسابية استمر المجنون مدة جنونه يقول للناس: خمسون وخمسون ثلاثة عشر، ولا يصدق أبداً أنها مائة كاملة؛ وإن كانت مسألة علمية قضى المجنون أيامه يشعل التراب ليجعله باروداً ينفجر ويتفرقع ولا يدخل في عقله أبداً أن هذا تراب منطفئ بالطبيعة؛ وإن كانت مسألة قلبية استمر المجنون يزعم أن زوجته قردة أو هردة، ولا يشعر أبداً أنها امرأة.

فإن صح أن هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يُربط في المارستان، ثم يجيء أهله كل يوم بزوجه فيسألونه: أهذه امرأة أم

قردة أم هردة؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة، ويعرفها امرأته، فيقال له حينئذ: إن كنت رجلاً فتخلق بأخلاق الرجال. أما إن كان الرجل عاقلاً مميّزاً صحيح التفكير ولكنه مريض مرض الحب، فلا يرى "النابعة" أشفى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطب بهذه الأشفية واحداً بعد واحد حتى يذهب سقامه بواحد منها أو بها كلها:

الدواء الأول: أن يجمع فكره قبل نومه فيحصره في زوجته، ثم لا يزال يقول: زوجتي، زوجتي، حتى ينام. فإن لم يذهب ما به في أيام قليلة فالدواء الثاني.

الدواء الثاني: أن يتجرع شربة من زيت الخروع كل أسبوع، ويتوهم كل مرة أنه يتجرعها من يد حبيبته، فإن لم يشفه هذا فالدواء الثالث.

الدواء الثالث: أن يذهب فيبيت ليلة في المقابر، ثم ينظر نظره في أي المرأتين يريد أن يلقي الله بها وبرضاها عنه وبثوابه فيها؛ وأيتهما هي موضع ذلك عند الله تعالى، فإن لم يبصر رشده بعد هذا فالدواء الرابع.

الدواء الرابع : أن يخرج في " مظاهرة " فإذا فُكَّت له عين
أو كُسرت له يد أو رجل ، ثم لم تحل حبيته المشكلة بنفسها ،
فالدواء الخامس .

الدواء الخامس : أن يصنع صنيع المبتلى بالحشيش
والكوكايين ، فيذهب فيسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده
فينسى هذا الترف العقلي ؛ ثم ليعرف من أعمال السجن جد الحياة
وهزلها ، فإن لم ينزع عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس .

الدواء السادس : أنه كلما تحرك دمه وشاعت فيه حرارة
الحب ، لا يذهب إلى من يحبها ، ولا يتوخى ناحيتها ، بل يذهب من
فوره إلى حَجَّامٍ يحجمه ؛ ليطفىء عنه الدم بإخراج الدم ؛ وهذه هي
الطريقة التي يصلح بها مجانين العشاق ، ولو تبدلوا بها من الانتحار
لعاشوا هم وانتحر الحب .

قال " نابغة القرن العشرين " : " فإن بطلت هذه الأشفية
السته ، وبقي الرجل جَمُوحًا لا يُرد عن هواه فلم يبق إلا الدواء
السابع .

الدواء السابع : أن يُضرب صاحب المشكلة خمسين قناة
يُصك بها^{٧٣} واقعة منه حيث تقع من رأسه وصدره وظهره
وأطرافه ، حتى ينهشم عظمه ، وينقصف صلبه ، وينشدخ رأسه ،
ويتفري جلده ؛ ثم تطلّى جراحه وكسوره بالأطلية والمراهم ،
وتوضع له الأضمدة والعصائب ويترك حتى يبرأ على ذلك :
أعرج متخلّجاً مبعثر الخلق مكسور الأعلى والأسفل ، فإن
في ذلك شفاءه التام من داء الحب إن شاء الله " .

قلنا : فإن لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلة الحب ؟
قال : فإن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن .

الدواء الثامن : أن يعاد علاجه بالدواء السابع .

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها
متوافقون على مثل الرأي الواحد ، من وجوب إمساك الزوجة
والإقبال عليها ، وإرسال " تلك " والانصراف عنها ، وأن يكون
للرجل في ذلك عزم لا يتقلقل ومضاء لا ينثني ، وأن يصبر للنفرة
حتى يستأنس منها فإنها ستتحول ، ويجعل الأنأة بإزاء الضجر فإنها

^{٧٣}القناة: هي العصا الغليظة التي يقال لها "الشومة". والصك خاص في ضرب الرأس،
ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة في هذا العلاج، فقد جاز استعمال الصك
في الجسم كله كما رأيت.

تُصلحه ، والمروءة بإزاء الكره فإنها تحمله ، وليترك الأيام تعمل عملها فإنه الآن يعترض هذا العمل ويعطله ، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدل ؛ ولا يُستقل القليل تكون الأيام معه ، ولا يُستكثر الكثير تكون الأيام عليه .

والعديد الأكبر ممن كتبوا إلي ، يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيان الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول ، ويحاسبونه به ، ويقيمون منه الحجة عليه ، ويقولون له : أنت اعترفت وأنا أنكرت ، وأنت رددت على نفسك ، وأنت نصبت الميزان ، فكيف لا تقبل الوزن به؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن ، وأن ذلك أسلوب من القول أدرناه ونحلناه ذلك الشاب ؛ ليكون فيه الاعتراض وجوابه ، والخطأ والرد عليه ؛ ولنُظهر به الرجل كالأبله في حيرته ومشكلته ؛ تنفيراً لغيره عن مثل موقفه ، ثم لنحرك به العلل الباطنة في نفسه هو ، فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً ، حتى إذا قرأ قصة نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل ، وتكلم ما خفي عليه فيما ظهر له ، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق ، وعرف كيف يخلص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاج الماء والخمر . وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدة منحلّة في

لسان صاحبها ، وبقي أن يُدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي .

وكثير من الكتاب لم يزدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ، ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً ، وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة ، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجُنَّ بجنونين :

أحدهما في الداخل من عقله ، والثاني في الخارج منه ؛ فأصبح لا يبالى الإثم والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الخطوة والسرور عند الأخرى ؛ فتعدى طوره مع المرأتين جميعاً ، وظلم الزوجة بأن استلب حقها فيه ، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية .

وقد تمنى أحد القراء من فلسطين أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب ، ويضعه موضع صاحب المشكلة ؛ ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرفه على ما يشاء ، ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب .

وهذا رأي حَصيف جيد ، فإن العاشق الذي يتلعب الحب به ويصدّه عن زوجته ، لا يكون رجلاً صحيح الرجولة ، بل هو أسخف الأمثلة في الأزواج ، بل هو مجرم أخلاقي ينصب لزوجه

من نفسه مثال العاهر الفاسق ؛ ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدري أو لا يدري ؛ بل هو غبي ؛ إذ لا يعرف أن انفراد زوجته وتراجعها إلى نفسها الحزينة ينشئ في نفسها الحنين إلى رجل آخر ؛ بل هو مغفل ، إذ لا يدرك أن شريعة السن بالسن والعين بالعين ، هي بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل .

والمرأة التي تجد من زوجها الكراهية لا تعرفها أنها الكراهة إلا أول أول ؛ ثم تنظر فإذا الكراهة هي احتقارها وإهانتها في أخص خصائصها النسوية ، ثم تنظر فإذا هي إثارة كبريائها وتحديها ، ثم تنظر فإذا هي دَفْع غريزتها أن تعمل على إثبات أنها جديرة بالحب ، وأنها قادرة على النعمة والمجازاة ؛ ثم تنظر فإذا برهان كل ذلك لا يجيء من عقل ولا منطق ولا فضيلة ، وإنما يأتي من رجل . . . رجل يحقق لها هي أن زوجها مغفل ، وأنها جديرة بالحب .

وكان هذا المعنى هو الذي أشارت إليه الأديبة " ف . ز " وإن كانت لم تبسطه ، فقد قالت : " إن صاحب هذه المشكلة غبي ، ولا يكون إلا رجلاً مريض النفس مريض الخلق ، وما رأيت مثله رجلاً أبعد من الرجل ، ومثل هذا هو نفسه مشكلة ، فكيف تحل مشكلته ؟ إنه من ناحية زوجته مغفل ، لا وصف له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن ، والخيانة أول أوصافه عندها .

وهذا الزوج يسمم الآن أخلاق زوجته ويفسد طباعها،
وينشئ لها قصة في أولها غباوته وإثمه، وسيركها تتم الرواية فلا
يعلم إلا الله ما يكون آخرها. ويمثل هذا الرجل أصبح المتعلمات
يعتقدن أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً، هم كاذبون في ادعاء
الحب، فليس منهم إلا الغواية؛ أو هم محبون يكذب الأمل بهم
على النساء، فليس منهم إلا الخيبة.

قالت: "وخير ما تفعله صاحبة المشكلة أن تصنع ما
صنعه أخرى لها مثل قصتها، فهذه حين علمت بزواج صاحبها
قذفت به من طريق آمالها إلى الطريق الذي جاء منه، وأنزلته من
درجة أنه كل الناس إلى منزلة أنه ككل الناس، ونبهت حزمها
وعزيمتها وكبرياءها، فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن يكون
سبباً لشقاء أو حسرة أو هم، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب
الذي تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجها، فإذا مشت فيه امرأة
إلى غير زواج، انحرف بها من هنا، واعوج لها من هنا، فلم ينته بها
في الغاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غباره، وما غبار هذا الطريق
إلا سواد وجه المرأة".

وقد جهد الرجل بصاحبه أن تتخذه صديقاً، فأبت أن
تقبل منه برهان خيبتها، وأظهرت له جفوة فيها احتقار، وأعلمته

أن نكث العهد لا يخرج منه عهده ، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمها وروحها ومعناها ، فإما أن تكون حينئذ أسقط ما في الحب ، أو أكذب ما في الصداقة .

ثم قالت الأدبية : " وهي كانت تحبه ، بل كانت مستهامة به ، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب ، لا تريد في الحبيب رجلاً هو رجل الحيلة عليها فتخدع به ، ولا رجل العار فتُسب به ؛ وفي طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التمكن ؛ وهذا القلب الطاهر إذا فقد الحب لم يفقد الطمأنينة ، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس ؛ لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال ، والصبر للمجاهدة " .

قالت : " فعلى صاحبة المشكلة التي عرفت كيف تحب وتجل ، أن تعرف الآن كيف تحتقر وتزدري " . وللأدبية " ف . ع " رأي جَزَل مسدد ؛ قالت : " إنها هي قد كانت يوماً بالموضع الذي فيه صاحبة المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنفت أن تكون لصة قلوب ، وقالت في نفسها : إذا لم يُقدَّر لي ، فإن الله هو الذي أراد ، وإنني أستحي من الله أن أحاربه في هذه الزوجة المسكينة ! ولئن كنت قادرة على الفوز ، إن انتصاري عليها عند حبيبي هو انتصارها علي عند ربي ، فلا أخسر هذا الحب لأرباح الله برأس مال غزير خسرتة

من أجله ، لأبْقِ على أخلاق الرجل ليقبى رجلاً لامرأته ، فما يسرني أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب ، ولا معنى لحب سيكون فيه اللؤم بل سيكون ألام اللؤم .

قالت : وعلمتُ أن الله " تعالى " قد جعلني أنا السعادة والشقاء في هذا الوضع ليرى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتي أو حمقي ، وصح عندي أن حسن المداخلة في هذه المشكلة هو الحل الحقيقي للمشكلة .

قالت : " فتغيرت لصاحبي تغيراً صناعياً ، وكانت نيتي له هي أكبر أعواني عليه ، فما لبث هذا الانقلاب أن صار طبيعياً بعد قليل ، وكنت أستمد من قلب امرأته إذا اختانني الضعف أو نالني الجزع ، فأشعر أن لي قوة قلبيين . وزدتُ على ذلك النصح لصاحبي نصحاً ميسراً قائماً على الإقناع وإثارة النخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وترفقت في التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزة الوفاء لا تكون بالخيانة وبينت له أنه إذا طلق زوجته من أجلي فما يصنع أكثر من أن يقيم البرهان على أنه لا يصلح لي زوجاً ؛ ثم دلتته برفق على أن خير ما يصنع وخير ما هو صانع لإرضائي أن يقلدني في الإيثار وكرم النفس ، ويحتذيني في الخير والفضيلة ، وأن

يعتقد أن دموع المظلومين هي في أعينهم دموع ، ولكنها في يد الله صواعق يضرب بها الظالم .

قالت : " وبهذا وبعد هذا انقلب حبه لي إكباراً وإعظماً ، وسما فوق أن يكون حباً كالحب ؛ وصار يجذني في ذات نفسه وفي ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءاً أو حاول أن يغض منها في نفسه . واعتاد أن يكرمها فأكرمها ، وصلحت له نيته فاتصل بينهما السبب ، وكبرت هذه النية الطيبة فصارت وداً ، وكبر هذا الود فعاد حباً ، وقامت حياتهما على الأساس الذي وضعته أنا بيدي ، أنا بيدي .

أما أنا " .

وكتب فاضل من حلوان : " إن له صديقاً ابتلي بمثل هذه المشكلة فركب رأسه ، فما رده شيء عن الزواج بحبيته ، وزُف إليها كأنه ملك يدخل إلى قصر خياله ؛ وكان أهله يعذلونه ويلومونه ويخلصون له النصح ويجتهدون في أمره جهدهم ، إذ يرون بأعينهم ما لا يرى بعينه ، فكان النصح ينتهي إليه فيظنه غشاً وتلبساً ، وكان اللوم يبلغه فيراه ظلماً وتحاملاً ، وكان قلبه يترجم له كل كلمة في حبيته بمعنى منها هي لا من الحقائق ، إذ غلبت على عقله فيها يعقل ، وذهبت بقلبه فيها يحس ، واستبدت بإرادته فلها

ينقاد؛ وعادت خواطره وأفكاره تدور عليها كالحواشي على العبارة المغلقة في كتاب؛ واستقرت له فيها قوة من الحب، وأمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كن "

ثم مضت الليلة بعد الليلة، وجاء اليوم بعد اليوم، والموج يأخذ من الساحل الذرة بعد الذرة والساحل لا يشعر، إلى أن تصرمت أشهر قليلة، فلم تلبث الطبيعة التي ألفت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والملكة، وقصة التاج والعرش، وحديث الدنيا وملك الدنيا، لم تلبث أن انتقلت على فجأة، فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهكم، وكشفت عن غرضها الخفي وحلت العقدة الروائية.

قال: " ففرغ قلب المرأة من الحب، وظمئ إلى السكر والنشوة مرة أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة، وبرد قلب الرجل، وكان الشيطان الذي يتسعر فيه ناراً شيطاناً خبيثاً، فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض " .

وجدت الحياة وهزل الشيطان، فاستحمق الرجل نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة، واستجهلت المرأة عقلها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً، وأنكرها إنكاراً أوله اللالة،

وأنكرته إنكاراً آخر أوله التبرم؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذي مضى!

"وضربت الحياة ضربة أو ضربتين، فإذا أبنية الخيال كلها هدم هدم، وإذا الطبيعة مؤلفة الرواية، قد ختمت روايتها وقوضت المسرح، وإذا الأحلام مفسرة بالعكس: فالحب تأويله البغض، واللذة تفسيرها الألم، و"البودرة" معناها الجير. وتغير كل ما بينهما إلا الشيطان الذي بينهما، فهو الذي زوج، وهو بعينه الذي طلق".

وكتب أديب من بغداد يقول: "إنه كان في هذا الموضع القلق موضع صاحب المشكلة، وإن ذات قرباه التي سميت عليه كانت ملففة له في حُجُب عدة لا في حجاب واحد، وقد وُصفت له باللغة، وفي اللغة: ما أحسن وما أجمل وما أظرف، وكأنها ظبي يتلفت، وكأنها غصن يميل، وكأن سنة وجهها البدر!".

قال: "وشُبَّهَتْ له بكل أدوات التشبيه، وجاءوا في أوصافها بمذاهب الاستعارة والمجاز، فأخذها قصيدة قبل أن يأخذها امرأة، وكان لم ير منها شيئاً، وكانت لغة ذوي قرابته وقرابتها كلغة التجارة في ألسنة حُذَّاق السماسرة، ما بهم إلا تنفيق السلعة، ثم يُخلون بين المشتري وحظه".

قال: فرسخ كلامهم في قلبي، فعقدت عليها، ثم أعرست بها، ونظرت فإذا هي ليست في الكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما، ثم تعرفت فإذا هي تكبرني بخمس عشرة سنة. ورأيت اتضاع حالها عندي فأشفقت عليها، وبتُّ الليلة الأولى مقبلاً على نفسي وأوامرها وأناجيها، وأنظر في أي موضع رأي أنا؛ وتأملت القصة، فإذا امرأة بين رحمة الله ورحمتي، فقلت: إن أنا نزعتم رحمتي عنها ليوشكن الله أن ينزع رحمته عني، وما بيني وبينه إلا أعمالي؛ وقلت: يا نفسي، {إِنَّهَا إِنْ تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} ﴿لَقَمَان: ١٦﴾. وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات، فلاجعل هذه المرأة حسنتي عنده، وما علي من عمر سيمضي وتبقى منه هذه الحسنة خالدة مخلدة.

إنها كانت حاجة النفس إلى المتاع فانقلبت حاجة إلى الثواب، وكانت شهوة فرجعت حكمة، وكنت أريد أن أبلغ ما أحب فساأبلغ ما يجب. ثم قلت: اللهم إن هذه امرأة تنتظرها السنة الناس إما بالخير إذا أمسكتها، وإما بالشر إذا طلقته، وقد احتمت بي؛ اللهم ساكفها كل هذا لوجهك الكريم!

قال : ورأيتني أكون ألام الناس لو أني كشفتها للناس
وقلت : انظروا، فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أترضاًها،
وجعلت أمازحها وألاينها في القول، وعدلت عن حظ نفسي إلى
حظ نفسها، واستظهرت بقوله تعالى : { فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } واعتقدت الآية الكريمة أصح اعتقاد
وأتمه، وقلت : اللهم اجعلها من نفسيرها .

قال : فلم تمض أشهر حتى ظهر الحمل عليها، فألقى الله
في نفسي من الفرح ما لا تعدله الدنيا بحذافيرها، وأحسست لها
الحب الذي لا يقال فيه : جميل ولا قبيح ؛ لأنه من ناحية النفس
الجديدة التي في نفسها " الطفل " . وجعلت أرى لها في قلبي كل
يوم مداخل ومخارج دونها العشق في كل مداخله ومخارجه، وصار
الجنين الذي في بطنها يتلألاً نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور،
وأصبحت الأيام معها رجاً من الزمن ، فيه الأمل الحلو المنتظر .

قال : " وجاءها المخاض ، وطرقتُ بغلام ؛ وسمعتُ
الأصوات ترتفع من حجرتها : ولد! ولد! بشروا أباه . فوالله لكان
ساعة من ساعات الخلد وقعت في زمني أنا من دون الخلق جميعاً
وجاءتني بكل نعيم الجنة ؛ وما كان ملك العالم لو ملكته
مستطيعاً أن يهيني ما وهبتني امرأتني من فرح تلك الساعة ؛ إنه فرح

إلهي أحسست بقلبي أن فيه سلام الله ورحمته وبركته ، ومن يومئذ نطق لسان جمالها في صوت هذا الطفل . ثم جاء أخوه في العام الثاني ، ثم جاء أخوهما في العام الثالث ؛ وعرفت بركة الإحسان من اللطف الرباني في حوادث كثيرة ، وتنفست علي أنفاس الجنة وفسرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح .

ويرى صديقنا الأستاذ " م . ح . ح " أن صاحب المشكلة في مشكلة من رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يعاشر زوجته بواحدة منها ، إذ هي كلها أرواح صبيانية تبكي على قطعة من الحلوى ممثلة في الحبيبة ، ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره ؛ لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه الطفلي في هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصل بين الحب والكره منزوع من نفسه ؛ إذ الفاصل في الرجل هو الحزم الذي يوضع بين ما يجب وما لا يجب .

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة ، فكل حل لمشكلته هو مشكلة جديدة ، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً ، وكلتاها بلاء عليه ، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يُشَنَقَ بامرأة لا بمشقة .

هذا عندي ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يثبت أنه أحدهما ؛ فإن كان طفلاً فمن السخرية به أن يكون متزوجاً ، وإن كان رجلاً فليحل هو المشكلة بنفسه ، وحلها أيسر شيء ؛ حلها تغيير حالته العقلية .

ونحن نعتذر للباقيين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفر بالأحوال التي تشبه هذه الحادثة ، لا بالآراء والمواقف والنصائح . أما رأينا ففي البقية الآتية .

صاحب هذه المشكلة رجل أعور العقل ، يرى عقله من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته ، ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصة في إشكالها ، ولوجد في ناحيتها الأخرى حظاً لنفسه قد أصابه ، ومذهباً في السلامة لم يخطئه ؛ وكان في هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به ، وكان يصبح أشقى الخلق لو رماه الله في الجهة التي أنقذه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثاني .

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التي بنيت بها ، كانت هي التي أكرهت على

الرضى بك ، وحملت على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صباً ، وفيها مُتدكِّهاً ؛ ثم كانت هي تحب رجلاً غيرك ، وتصبو إليه ، وتفتتن به ، وقد احترقت عشقاً له ؛ فإذا جلوها عليك رأيتك البغيض المقيت ، ورأتك الدميم الكريه ، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتمد لها يدك فتحامها تحاميهما المجذوم أو الأبرص ، وتكلمها فتُحَمَّ برداً من ثقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حبلين من مشنقتين ، وتتحبب إليها فإذا أنت أسمع خلق الله عندها ، إذ تحاول في ندالة أن تحل منها محل حبيبها ؛ وتقبل عليها بوجهك فتراه من تقدّر لها إياك ، واشمئزازها منك ، وجه الذبابة مكبراً بفضاعة وشناعة في قدر صورة وجه الرجل ، لتتجاوز حد القبح إلى حد الغثاثة ، إلى حد انقلاب النفس من رؤيته ، إلى حد القبيح إذا دنا وجهك من وجهها ؟ !

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك " الرجل الثاني " لا المرأة الثانية ؟ ألسنت الآن في رحمة من الله بك ، وفي نعمة كفت عنك مصيبة ، وفي موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقّب في حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكم الله عليك ؟

تقول : الحب والخيال والفن . وتذهب في مذاهبها ، غير أن " المشكلة " قد دلت على أنك بعيد من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ، ولا حسبت نفسك منحوس الحظ محروماً ، ولا جهلت أن في داخل العين من كل ذي فن عيناً خاصة بالأحلام كيلا تعمى عينه عن الحقائق .

الحب لفظ وهمي موضوع على أضداد مختلفة : على بركان وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خداع من النفس يضع كل ذكائه في المحبوب ، ويجعل كل بلاهته في المحب ، فلا يكون المحبوب عند محبه إلا شخصاً خيالياً ذا صفة واحدة هي الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية في وجود تام الجمال ولا عيب فيه ، والناس من بعده موجودون في العيوب والمحاسن .

وذلك وهم لا تقوم عليه الحياة ولا تصلح به ، فإنما تقوم الحياة على الروح العملية التي تضع في كل شيء معناه الصحيح الثابت ؛ فالحب على هذا شيء غير الزواج ، وبينهما مثل ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يفهم هذا الحب على النحو الذي

يجعله حباً لا غيره، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحاباً هو أسخف زواج بينهما إذا تزوجا .

وذو الفن لا يفيد من هذا الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقل لا فوق عقله، فيكون في حبه عاقلاً بجنون لطيف، ويترك العاطفة تدخل في التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها؛ ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هي أسمى لذاته الفكرية، ويعرف بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة يُوليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الإنسانية ويصرفها ويبدع منها عمله الفني العجيب .

وهذا الضرب من السمو لا يبلغه إلا الفكر القوي الذي فاز على شهواته وكَبَحَها وتحملها تغلي فيه غليان الماء في المرَجَل ليخرج منها ألطف ما فيها، ويحولها حركة في الروح تنشأ منها حياة هذه المعاني الفنية؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية: إن لم تضبط ما في داخلها أصح الضبط، لم يكن في ظاهرها إلا أضعف عملها . ومثل هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة، وهو في قوته يجمع بين كرامة هذه وقدسية هذه؛ لأن إحداها توازن الأخرى، وتعديلها في الطبع، وتخفف من طغيانها على الغريزة، وتمسك القلب أن يتبدد في جوه الخيالي .

والرجل الكامل المفكر المتخيل إذا كان زوجاً وعشيقاً، أو كان عاشقاً وتزوج بغير من يهواها، استطاع أن يتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج؛ وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سر من أسرار الإبداع في التمثال، إذ تلك هيئة استقرار الأسمى في سموه؛ فإن الزوجة أمومة على قاعدتها، وحياة على قاعدتها؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها، وهي معان شاردة لا تستقر، وزائلة لا تثبت، وفنها كله في أن تبقى حيث هي كما هي، فجمالها يحيا كل يوم حياة جديدة ما دامت فناً محضاً، وما دام سر أنوثتها في حجابها.

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انتهك له حجاب أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر، وعادت له غير من كانت، وعاد لها غير من كان؛ وهذا التحول في كل منهما هو زوال كل منهما من خيال صاحبه؛ فليس يصلح الحب أساساً للسعادة في الزواج، بل أحربه إذا كان وجداً واحترافاً أن يكون أساساً للشؤم فيه؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعين لهما درجة من درجة في الشغف والصبابة والخيال، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد، فإن لم يكن الزوج في هذه الحالة رجلاً تام الرجولة،

أفسدت الحياة عليه وعلى زوجته صبيانية روحه ؛ فالتمس في الزوجة ما لم يعد فيها ، فإذا انكشف فراغها ذهب يلتمسه في غيرها ، وكان بلاء عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ؛ إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبي أولادها ، ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسي ؛ وما المرأة إلا حسها وشعورها .
فالشأن هو في تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وفحولتها ، إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه . وما من رجل قوي الرجولة إلا وأساسه ديانته وكرامته ؛ وما من ذي دين أو كرامة يقع في مثل هذه المشكلة ثم تُظلم به الزوجة أو يحيف عليها أو يفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العشرة ، بلّه أن يراها كما يقول صاحب المشكلة " مصيبة " فيجافها ويبالغ في إعناتها ويشفي غيظه بإذلالها واحتقارها .

وأي ذي دين يأمن على دينه أن يهلك في بعض ذلك ، فضلاً عن كل ذلك؟ وأي ذي كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءة ونذالة في معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها؟

إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية في حل مشكلته إن تورط في مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكّد ويعمل ويصبر على ما يعانیه

من ذلك ؛ ومن كان محباً لا يَسْتَزِلُّ المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛
ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق
غيرها ؛ وإنما الإنسان من أظهر في كل ذلك ونحو ذلك أثره
الإنساني لا أثره الوحشي ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا
بقاعدة الفرد . وإنما الدين في السمو على أهواء النفس ؛ ولا
يتسامى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة
العامة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوه فيما يبلغ إليه .

وإذا حل اللص مشكلته على قاعدته هو فقد حلها ، ولكنه
حل يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً ، حتى ليرى الشرع في
نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التي خلقت
له فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة ، فالجنس البشري كله ينزل منزلة
الأب في مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع
عنها ، ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها
في الضمير الإنساني الأكبر ، وإن خالف ضمير زوجها العدوّ الشائر
الذي قطعها من مصادر نفسه ومواردها . أما حكم الحبيبة في هذا
الضمير الإنساني فهو أنها في هذا الموضع ليست حبيبة ، ولكنها
شَحَاذَة رجال .

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقْدة التي في قلبه ؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون ، وحزن الحكيم غير حزن الطائش ؛ والقلب الإنساني يكاد يكون آلة مخلوقة مع الإنسان لإصلاح دنياءه أو إفسادها ؛ فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه ، ولا يُخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي ، أو أصاب ما لا يشتهي ، استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يُوجده الغنى عن ذلك المحبوب المعدم ، أو يوجده الصبر عن هذا الموجود المكروه ؛ فتوازن الأحوال في نفسه وتعتدل المعاني على فكره وقلبه ؛ وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن .

وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً تُرسل إليه المعاني بصورة فيها الفوضى والنقص والألم ؛ لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية .

يعشق الرجل العامي المتزوج ، فإذا الساعة التي أوبقته في المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها : فإما ضرب امرأته بالطلاق ، وإما أهلكها باتخاذ الضرة عليها ، وإما عذبها بالخيانة والفجور ؛ لأن بعض العبث من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبث

الطبيعة بهذا الجاهل في غيره ، كأن هذه الطبيعة تُطلق مدافعها الضخمة على الإنسانية من هذه النفوس الفارغة .

وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلا حيوانيا كحل هذا العامي ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتول دونها ما دام مطلقاً مخلّئ بينه وبينها ؛ والحقيقة هنا حقيقته هو ، والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يعجز عن نيل هذه المنفعة .

ثم يعشق الرجل الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجه آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة ، فإن فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عبث الطبيعة وخداعها وهزلها الذي هو أشد الجدل بينها وبين الغريزة ؛ وبهذا كله تنقلب المشكلة إلى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر ، ولا يعين عليها إلا الصبر ، ولا يفلح في سياستها إلا تحمل آلامها ، فإذا رُزق العاشق صبراً وقوة على الاحتمال فقد هان الباقي ، وتيسرت لذة الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ؛ فإن في نفس الإنسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة ، وموقعٌ أرفعٌ من موقع ، وأثرٌ أبهجٌ من أثر ؛ وألذ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بمعانيها ، وأكرم منها

على نفسه كرامة نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن ، لم يبق لخبية الحب كبير معنى ولا عظيم أثر ، ويتوغل العاشق في حبه وقد لبستهُ حالة أخرى كما يكظم الرجل الحليم على الغيظ . فذلك يحب ولا يطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضب . والبطل الشديد البأس لا ينبغ إلا من الشدائد القوية ، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة ، والتقّيّ الفاضل لا يُعرَف إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمري إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه ، أو يبطل حاجة من حاجاتها ، فماذا فيه من الحكمة ، وماذا فيه من النفس ؟

وما عَقَّد " المشكلة " على صاحبها بين زوجته وحبيبته ، إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوة المصلحة فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها . . . وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يُبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ؛ وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلّم كيف يراها لرآها ، ولو تعودها لأحبها .

إنه من وهمه كالجواد الذي يشعر بالمقادة في عنقه ؛ فشعوره بمعنى الحب وإن كان معنى ضئيلاً عطل فيه كل معاني قوته ، وإن كانت معاني كثيرة . وما أقدرك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير في أعناق الناس !

وقد بقي أن نذكر ، توفيةً للفائدة ، أنه قد يقع في مثل هذه المشكلة من نقصت فحولته من الرجال ، فيدلّس على نفسه بمثل هذا الحب ، ويبالغ فيه ، ويتجرّم على زوجته المسكينة التي ابتليت به ، ويختلق لها العلل الواهية المكذوبة ، ويبغضها كأنه هو الذي ابتلي بها ، وكأن المصيبة من قبلها لا من قبله ؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكره ، فلم تعد إلا صوراً خيالية لا تعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشد الكره إذا شعر في نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها . فهذا لا يكون رجلاً لامرأته إلا في العداوة والنقمة والكرهية وما كان من باب شفاء الغيظ ، وامرأته معه كالمعاهدة السياسية من طَرَف واحد ، لا قيمة ولا حرمة ؛ وإذا أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً ؛ لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته ، ورداً بامرأة على امرأة .